رواية

علي بدر

الكافرة



مكتبة
الفكر
الجديد

رواية

علي بدر

الكافرة

مكتبة الفكر الجديد

علي بدر الكافرة

أعظم مؤرخ للتواريخ الهامشية وللقصص والحكايات المهملة والتي يصوغها بإطار ساخر، بل يعد علي بدر من أبرز الأصوات في الرواية العربية التي ظهرت في السنوات الأخيرة، وترجمت أعماله إلى لغات أوربية عديدة.

الصحفية الأمريكية ماري وايميل

رواياته ثرية اللغة والأحداث، حين تقرأها تتمنى أن تطول مئات الصفحات الأخرى، فقط لتشعر أن هذا النسيج الآسر من الكتابة الروائية يستمر ولا ينتهي.

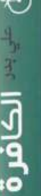
الصحفي البريطاني شولتو براينز في صحيفة الأندبنت البريطانية

يعد علي بدر واحدا من أبرز كتاب الجيل العربي الجديد، ذلك الجيل الذي اصطلحنا على تسميته في مصر بجيل التسعينات لأنه الجيل الذي بدأ ممارسة الكتابة والنشر بشكل جدي مع تسعينات القرن الماضي. والواقع أن علي بدر هو أحد أغزر كتاب هذا الجيل انتاجا وأرهفهم موهبة.

الدكتور صبري حافظ في صحيفة أخبار الأدب المصرية

روايات علي بدر تتضمن مجموعة متنوعة من السجلات، أحداثها تجري في أوقات مختلفة وأماكن بعيدة عن بعضها البعض، يسلط النور على عالم من التعقيد والثراء، والحوار المفتوح، ويحمل في الوقت ذاته خصائصه وديناامياته الذاتية، عالم من الحيوات الصغيرة، ومن السكارى ومدمني المخدرات، والحانات، والعاهرات، فضلا عن المثقفين والسياسيين، كل هذه الشخصيات في الواقع قريبة جدا منا، وإن تتصورها أنها قصص خيالية إلا أنها من الأدب العظيم بل هي درس بالغ الثراء للبشرية جمعاء.

عالمة الاجتماع الفرنسية سونيا دايان هرزبرون في الكانزان ليتزير الفرنسية



تروي الكافرة قصة فاطمة التي تعيش في مدينة نائية سيطر عليها المتشددون الإسلاميون وأجبروها وعائلتها على خدمتهم. قُتل والدها في عملية انتحارية، بعدها تزوجت من شاب عاطل عن العمل يبحث عن مجده الضائع في عملية انتحارية لينعم بوعد الحوريات، ويلبس ثوب البطل بعدما كان الفشل حليفه في الحياة. بعد موته قرر الإسلاميون تزويجها إلى عنصر من جماعتهم المسلحة لكن هذه المرة لم تمتثل لأوامرهم وقررت اللجوء إلى أوروبا. اتفقت مع أحد المهربين الذي ساعدها في الوصول إلى بروكسل ولكنه كان قد اغتصبها في طريقهما إلى هناك. فور وصولها تنزع فاطمة النقاب، وتتحول من فاطمة إلى صوفي لتتقمص شخصيتين. فاطمة التي تعمل صباحاً مع شركة تنظيف، وصوفي الفتاة الأوربية التي تذهب إلى البار لتعود كلّ ليلة مع شاب وسيم، لتنتقم من زوجها الذي أخبرها أن سبب قيامه بعملية انتحارية هو حصوله على سبعين حورية في الجنة. فتقرر مضاجعة سبعين شاباً في أوربا إلى أن تقع في قصة حب معقدة، تزيد الرواية حبكة وثراء.

يتقصى علي بدر في هذه الرواية جذور العنف في الشرق الأوسط عبر تقنيات سردية بارعة، ممزوجة بلغة شعرية شفافة هذه المرة. تلعب الرواية هنا دوراً مهما في استقصاء وتحليل التطرف في مجتمعاتنا، عبر جسد المرأة الذي يتحول إلى مدونة يكتب عليها الرجال عنفهم وقسوتهم وحبهم وخذلانهم. هذه الرواية هي رواية الأنوثة المقهورة ولكنها القاهرة أيضاً، حيث تكشف عن هشاشة الثقافة الذكورية وانسحاقها. ومن خلال هذه الترسيمة ينتقل السرد سياسياً وجغرافياً من بغداد إلى بيروت حيث الحرب الأهلية، ومن الشرق الأوسط إلى أوربا حيث التجربة الاستعمارية.

يعيد علي بدر في هذه الرواية تقنياته التي عرفت بها رواياته السابقة، الدراسات الثقافية، أدب ما بعد الاستعمار، الأنثربولوجيا وأدب الاعتراف الجنسي، ممزوجة هذه المرة بلغة شعرية مميزة.

المتوسط

مكتبة الفكر الجديد



علي بدر روائي عراقي حصل على العديد من الجوائز، وترجمت أعماله إلى العديد من اللغات الأجنبية، صدر له: بابا سارتر ٢٠٠١، شتاء العائلة ٢٠٠٢، صخب ونساء وكاتب مغمور ٢٠٠٣، الوليمة العارية ٢٠٠٤، الطريق إلى تل المطران ٢٠٠٥، الركض وراء الذئاب ٢٠٠٦، مصابيح أورشليم ٢٠٠٧، حارس التبغ ٢٠٠٨، ملوك الرمال ٢٠٠٩، الجريمة الفن وقاموس بغداد ٢٠١٠، أساتذة الوهم ٢٠١١.

ISBN 978-91-87373-64-0

9 789187 373640

المتوسط



الكافرة



المؤلف: علي بدر / عنوان الكتاب: الكافرة
الطبعة الأولى: ٢٠١٥.
صورة الغلاف: Marina / تصميم الغلاف والإخراج الفني: الناصري

ISBN: 978-91-87373-64-0



منشورات المتوسط

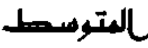
ميلانو / إيطاليا / العنوان البريدي:
Alzaia Naviglio Pavese. 120/ 20142 Milano / Italia
العراق / بغداد / شارع المتنبي / محلة حسن باشا / ص.ب 55204.
www.almutawassit.org / info@almutawassit.org

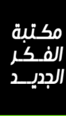


علي بدر

الكافرة







٢٠ تمّوز

أنا هنا قربك. قادمة، من بلاد الحروب التي لا تنتهي. من الأرض الملعونة. من خضمّ أحداث القتل الغامضة. من عالم الشعوذة. من خنق الزوجات، وقتل الصبايا، وسائر الوقائع التي تدور، في إطار مرعب. من بلاد، فيها مقدار كبير، من الأسى، مقدار كبير، من المرح.

أوه، أنت تقول إن الفرح ليس من سماتي على الإطلاق! حسن، ماذا تعرف عني؛ لتقول هذا؟ سأصنع أشياء كثيرة تدهشك، هل تصدقني؟ أقسم لك، خلف هذه الجدّيّة الصارمة، هناك مرح أيضاً.

قلت لك ناولني هذا الكأس، وأنت ستعرف! أعطيتني كأسك، فشربته دفعة واحدة! كانت لدي رغبة كبيرة ذلك اليوم أن أسكر.

"ماذا تعرف عن العنف الذي شهدته، صحيح أن العنف موجود، في كل مكان، والجريمة ليست حكراً، على أحد، لكن الجرائم مختلفة... ثمة جرائم، بدافع الحب، وثمة جرائم، بدافع المعتقد، في الأولى، وسيمون يسبّبون الأذى.. وفي الثانية..."

- "هل ترينهم وسيمين؟" قلت لي!.

"إنهم يرتدون ملابس أنيقة غالية الثمن، يسرقون، ويُفسدون النساء، أو يقتلون، بسبب الحب، أو بسبب الكراهية. حياتهم لا تخرج كثيراً عن هذا، يمكنك أن تقول إن عملية إفساد النساء ليست جريمة، بالقدر ذاته

الذي للقتل! المتشدّدون أكثر وحشية، إنهم يقتلون الأطفال، ويغتصبون النساء، ويفسدون الأبرياء. إنهم يفرضون لغة غامضة. صدقني، إن الجانب الأساس في القتل هو الجدّيّة الصارمة. إنه عمل مقدّس، بالنسبة لهم، لا شيء آخر، إنه عمل مقدّس. أكثر قداسة من عمل النّجّار، وعمل النّحّات، والطرزي، والطّرّاش، وغيرهم".

- - "آوه، لننته، من هذا!" قلت لي.

هذه هي محادثتنا الأولى، في بار، في بروكسل. أذكرها الآن. أستعيدها أمامك، وفي هذه اللحظة، بالذات، وأذكر أني قلت لك مرة:

- "من الصعب عليَّ أن أعبّر لك، بغير لغتي الأولى. شيء لا يمكنني أن أفسّره لك الآن، أو أشرحه، شيء أفهمه، وأحسّه. ولكنْ؛ يصعب عليّ أن أحوّله، إلى كلمات".

أتذكر ذلك اليوم، بوضوح شديد، وهو يرتسم في ذاكرتي مثل مصباح، في ليل مظلم. كنت طلبت مني أن أنزع مشدّ الشعر؛ لأجعله يتطاير في الرياح التي تهبّ، من جهة البحر. وكنت خلعت صندلك؛ لتشعر بسخونة الرمل، على رصيف البلاج. كان الهواء يهفهف في تنورتي التي كانت من القطن. قلت لي اتركيها؛ لتظهر لي ساقيك السمراوين، من وقت إلى وقت.

ربما أنت لا تتذكر هذه الحادثة الآن. ولكني أتذكرها جيداً. ترتسم في مخيلتي، بصورة واضحة جداً. كانت بشرتك - يومها - بهية مشرقة، مُتوّجة، بضحكتك النابعة من القلب. كنا قريبين من بعضنا، إلى الحدّ الذي لا يمكن فيه لأحدنا أن يرى الآخر. كلانا مستغرق في الآخر. منغمسان في الدفء، وفي الرائحة المنبعثة من الآخر، والمختلطة مع رائحة البحر. يدك اليسرى على خصري المشبوب، وبعينيك، تلتهمني.

نعم، أتذكر ذلك اليوم، وتلك الحادثة، بشكل جيد. أنت تعرف أن لي ذاكرة قوية. أكثر من مرة أنت بنفسك قلت لي ذلك.

***

ابتسمت صوفي، بحزن. عندما قالت هذه الجملة. بدا لها من الصعوبة بمكان معرفة كم من الوقت كانت قد جلست إلى جانبه. عشرة دقائق، أم ساعة؟ تناولت قدح الماء من الطاولة، وشربت قليلاً، كان دافئاً، وهذا ما تحبّه في الماء. كما كان علامة على دفء الحجرة. غير أنها شعرت أن شيئاً لم يتغيّر في حالة صديقها إدريان، وهي تخاطبه. وكان ذلك تماماً هو الموقف نفسه قبل أن يحلّ وقت الكلام.

كأنه هو هو.

رنّ هاتفها الجوال، تناولته من حقيبتها الجلدية، وأطفأته. ربما انتشلها رنينه من الانغمار، في هذا الإحساس. أعادها إلى ذاتها، امتزج رنينه، بصوت تنفّس صديقها. شعرت بتوافق غريب في الأحاسيس. توقفت قليلاً عن الكلام، ثم استأنفت، بشكل عفوي.

***

قلت لي: "صوفي ذاكرتك قوية، أنت تتذكرين حتى التفاصيل الصغيرة!"

نعم، أنا أتذكر حتى التفاصيل الصغيرة، بصورة واضحة. كأنها حدثت الآن، ولم تكن في الماضي. ذاكرتي أفضل بكثير من ذاكرتك، فأنت تنسى كثيراً، يا صديقي. أنت تنسى حتى الأشياء المهمّة، بسرعة متناهية. لا أريد أن أذكّرك بنسيانك مفتاح السيارة مرة، في المقهى، ونسيانك محفظتك مرة، على الطاولة، في منزلي...وأشياء كثيرة أخرى تنساها، بسرعة، مع أني أذكّرك بها، وفي أحيان كثيرة؛ أذكّرك بها أكثر من مرة، إلا أنك تنساها!

أقول لك ساخرة:

"إدريان، هل تتعمّد النسيان؟"

تضحك، بهدوء، وتداري خجلك.

أما أنا؛ فبالعكس، أنا على النقيض منك ...أنا لا أنسى شيئاً أبداً، لا أتذكر الأشياء، بوضوح شديد فقط، إنما أتذكر الصور، الأحداث، الكلمات... كلها ترتسم في ذهني، بصورة واضحة، متوهّجة مثل شبكة من المصابيح. بل هنالك العديد من القصص والحكايات والأحداث التي ترتسم في ذهني منذ طفولتي، كأنها حدثت البارحة...

إلى الآن، لا أستطيع أن أنسى ذلك الرجل النحيف، المجدور الوجه، أشعث الشعر، الأعمش تقريباً، بصلعته الصغيرة المرسومة فوق الجبين، وتجاعيد وجهه الحادّة، والتغضّنات السمراء على الخدّين كليهما. لا أنسى صوته الأجشّ الحزين، حينما كان يمرّ من بيتنا على حماره، وهو يقول:

"مظلوم، والله، يا ناس مظلوم...".

الرجل الذي عشق امرأة، وزُوّجَتْ إلى غيره، جُنّ. وهو يتكلم عن حبه لها، وعن شعوره، بالظلم طوال حياته. لم يجدْ أحداً يهتمّ به. كان الجميع يسخر منه، ويضربه، بالحجارة. الأطفال كانوا يركضون وراءه، وهم يصرخون:

"مجنون مجنون!".

الكل كان يظلمه، ويضطهده فوق ظلمه واضطهاده. صورته مرسومة في ذاكرتي، لا تفارق خيالي. أسنانه المهدّمة، وجهه الباكي الحزين يعتصر - إلى الآن - قلبي. شعرت بأن حياته مثل شجرة لم تورق إلا لكي تخسر أوراقها، وتُبتَر أغصانُها.

***

توقف صوفي قليلاً، وهي تنظر إدريان المسجّى أمامها، ثم تواصل الحديث - بعد ذلك - بصوت متحشرج:

لا أنسى "جميلة" البنت التي كانت معي في المدرسة، وكنت أعرفها منذ الطفولة؛ لأن بيتهم كان قريباً من بيتنا. شعرها الأسود السبط، أطرافها النحيلة، شحوب وجهها الذي يزيد من حدّة سواد شرائطها، كلّ هذا جعلني متعلّقة بها. عكس الآخرين الذين كانوا يسخرون منها، لنحولها وشحوبها وضعفها. كنتُ أحببتُ هيئتها المرضية التي جعلتها مثل الملائكة، بهيئة أثيرية. لقد وافقتها في كل شيء حتى أصبحنا ثنائياً متهرّباً، بشكل سري، من المدرسة. قمنا بجولات طويلة في السوق، وفي شوارع المدينة. شعرتُ نحوها بحب غامض، وكتبتُ لها رسائل كثيرة معبّرة. فأذهلها حبّي العنيف النابع من القلب، وكانت تبادلني نفس الحب، بصدق شديد، وعفوية متناهية.

نصمتُ صوفي قليلاً عند هذه المرحلة من الكلام، كأن شيئاً ما يمنعها عنْ مواصلة حديثها. تتأمّل وجه إدريان الغافي. بعد ذلك، تعاود له سرد حكاية صديقتها في الطفولة مع أن الحزن في نبرة صوتها، وفي طريقتها في الكلام لم يفارقها.

قتلها أبوها، بلا رحمة، ولا شفقة. هكذا ضربها، بصخرة على رأسها، فماتت. قتلها؛ لأن ابن جارهم اغتصبها، فعل فعلته معها، وهرب. عادت إلى منزلها مرتاعة دون أن تفهم ما حدث لها، وبكل براءتها الطفلية راحت تسأل أمها عن الدم الذي سال بين ساقيها، فلطمت أمها خدها، وأخبرت والدها. فأراد الأب أن يقضي على عارها، بموتها.

لقد استشعرتُ موتها لحظتها، استشعرتُ روحها التي فاضت في اللحظة ذاتها. فاستيقظتُ ليلاً من فراشي، خائفة راجفة مرتاعة. لقد رأيت خيالها من وراء العتمة، وسمعت صوتها يناديني، باسمي. شعرتُ

بروحها تسير هناك، وراء النافذة. ضغطتُ وجهي على الزجاج، وحدَّقتُ ببصري في البعيد النائي، وبدأتُ انتظارها. لكنْ؛ لا أحد هناك. لا أحد وراء النافذة. لا شيء غير بضعة شجرات، تتحرك أغصانها، برتابة وغموض. لا شيء غير سحب الصيف، وهي تغطي السماء، كالدخان. لقد اختفت النجوم في السماء، ولم أعدْ أرى أيَّ ضوء في الشارع. لا شيء غير ظلمة دامسة، مثلما هي في قلبي.

فجأة، كما لو أن صوتها انبعث من البعد، وأخذ يقترب شيئاً فشيئاً مني. صوتها الشاحب الخفيض، وهو يمر بي، ويتلاشى في أذني. هو الصوت ذاته الذي كان يستنجد بي، حينما يحاصرها الأولاد، ويحاولون إيذاءها. وعرفتُ لحظتها، لا أعرف كيف، أن صوتها الذي تلاشى، تلاشى معه ماضيّ وذكرياتي كلها، تلاشت معه سعادتي كلها. كل ما أحببته، وحافظت عليه. كل شيء ودّعني معها الآن، وإلى الأبد. لقد ودّعتُ كل اللحظات السعيدة التي عشتها معها، والتي مرّت، بشكل خاطف، ورجعتُ؛ لأتلفلف، بالأغطية، في فراشي، وكأنني أُدفنُ في قبر.

في الصباح، بكيتُ عليها، بحرقة وألم، لا يوصفان. لم ينقطع حزني عليها، ولا بكائي حتى اليوم. فحضورها الصامت والوديع الذي كان يفيض - بكثير من الأمان علي - قد رحل إلى الأبد. لقد صرتُ من دونها، بلا صديقة. بقيتُ - لسنوات بعدها - أعيش في عزلة قاتلة، حتى رأيتكَ أنت. لقد أعاد حضورك في حياتي كل تلك اللحظات السعيدة التي عشتها، بفيض روحي معها.

***

ومن الأشياء التي لا أنساها أيضاً، لا أنسى صوت أمي المتهدّج في الليل. كنتُ أتلفلفُ في الفراش، وأتظاهر بأني نائمة. قالت لراضي الرجل الذي تزوّجتْه بعد مقتل أبي:

- "لا تضربْ على وجهي".

حاولتْ أن تدير وجهها على الجهة الأخرى، فجرّها بيد خشنة قوية مشقّقة، وأنزل قبضته الأخرى على وجهها، بقوة، فسال الدم من أنفها.

- "عاهرة، أنت عاهرة. قولي إنك عاهرة. لن أتركك حتى تقولي أنا عاهرة".

قالت له:

- " البنت نائمة، لا أريدها أن تسمع".

رائحة الكحول الممزوجة بالثوم كانت تملأ الغرفة. ثمله لا يخفّف من قوة ضرباته التي يسدّدها إلى بطنها، وهو يقول، بصوت ثابت، لا يلين:

- "قولي إنك عاهرة".

- "راضي، البنت نائمة، الله يرضى عليك، وأخشى أن تصحو".

- "بنتك ستصبح عاهرة مثلك. أنتنّ عاهرات. أنزلي يديك، عن وجهك. وإلا سأدوس بقدمي في بطن الصبية".

- "اترك الصبية، الله يرضى عليك".

- "أنزلي يديك، عن وجهك".

أنزلت يدها - ببطء - عن وجهها، ففاجأها، بضربة، لا تلين، على الأسنان.

صرخت: آه. بألم حاد قادم من الأعماق، وبصرخة مكتومة، بينما انفجر الدم من فمها، وسار على حنكها على الوسادة. لقد خشيتْ أن تطلق صرختها، لقد كتمتْها. أعادتها؛ لتتكسر، في روحها، وفي ذاتها. كانت تظنّ أني نائمة، فخشيتْ أن توقظني.

***

لم تتكلم عنه معي أبداً، كانت تتهرّب مني على الدوام. تخفي وجهها الأزرق المتورّم، وعينيها الداميتين صباح كل يوم. وربما انتقمت منه يوم وفاته. حين سقط عليه جدار في منزل قديم، وهو يلعب القمار مع أصحابه. حين وصلها خبر وفاته، لم تتكلّم أبداً. لم تنطق حرفاً واحداً، ولم أرَ الدمع منهمراً، على خديها الغائرتين.

وقفتْ وسط المنزل، متجمّدة أمام الطبّاخ، تمسك بيدها التعبى مغرفة واسعة، وتهزّ بحركة ثابتة ورتيبة في طنجرة متّسخة، بالسخام، طنجرة مليئة، بمرق أصفر، خالية - على الدوام - من اللحم ومعجون الطماطة. وقد كانت يدها الأخرى موضوعة على خصرها. كان وجهها شاحباً ومتعرّقاً، وعيناها غائرتين، ومنتفختين، لكنها كانت مستمرة، بعملها.

نظرتُ إليها. كنتُ أريد أن أعرف ردّة فعلها. متسائلة في سري: كيف يمكنها أن تأكل في مثل هذه اللحظات. التفتتْ لي بنظرة ثابتة، نظرة أعرفها منها. وقالت، بصوت هادئ وحليم:

- "بعد الآن، لن أجعل رجلاً يؤذيك، بكلمة واحدة. أما اليوم؛ فيمكنني أن أقول لك إن موته لن يفسد حياتنا".

ثم قالت، وهي تحمل الطنجرة، وتدخل إلى الغرفة الثانية:

- "موت رجل في هذا الكون لن يجعل التشريب يفسد".

صمتتْ صوفي قليلاً، وهي ترفع خصلة، هبطت على جبينها. كانت فترات الصمت قليلة. فترات متباعدة، في حديثها، مع ذلك، كانت لديها رغبة كبيرة ذلك اليوم، بالحديث مطولاً إلى أدريان، عن كل اللحظات التي عاشتها قبل مجيئها إلى هذا المكان، وقبل تعرّفها عليه. ومع أن الدمعة هبطت من عينيها، ومسحتها بالمنديل الأبيض الذي تناولته من الطاولة القريبة منها، إلا أن كل هذا الحزن وكل هذا الأسى لم يمنعاها من مواصلة الحديث، وسرد الوقائع والأحداث، وإيراد حتى التفاصيل الصغيرة منها.

أعرف أنه شيء سيىء أن تتذكر كل شيء مع التفاصيل الدقيقة، شيء سيىء، للقلب، لكنه جيد للروح. أتذكر مرة قلت لي:

- "صوفي، أنت تفكّرين بالكلمات، فاللغة الفرنسية - بالنسبة إليك - هي خيط، لا ينفد، تحوكينه، كما لو أن الحياة تتشكّل، وأنت ترويناها".

نعم، هكذا هي ذاكرتي. مثل صور في لقطة فوتوغرافية. لقطات مطبوعة على شريحة. تأتيني، كما لو كانت، في فيلم. متجسّمة، بدقّة، مرسومة وكاملة، ذات حجم كبير، أشعر بها، كما لو أنها حدثت، للتّوّ. مثل لوحة مرسومة على ورقة، أو قماش. إنها لحظة، لا تخبو أبداً. أشعر بأني أختزن كل وجودي على هذه الأرض، كل سنوات عمري، كل ما عشته، كل الأيام متداخلة، بلا بداية، ولا نهاية. وأنا أجلس هناك، كما لو كنت جالسة أمام فيلم؛ حيث أنا موجودة مشاهدة ومشاركة. أنا هناك في الظل، تحيط بي غمامة شفّافة. أعرف أنني أنا، ولكنني كذلك هذا الذي يراقب من الخارج.

• أعرف ما تشعر به فاطمة الجالسة على هذا السرير المحطّم، في حجرة ذات دعائم قاتمة، وسقف من الخشب؛ حيث يبدو المشهد، كما في تفصيل. وأعرف ما تشعر به صوفي التي تراقبها.

***

شيء محزن أن تعرف كل التفاصيل في حياتك. أن تكون لك ذاكرة قوية مثل هذه الذاكرة التي أحتفظ بها. ومع كل القوة التي حزتها في حياتي، وفي تجاربي، ولكني أعترف لك اليوم... بأني عاجزة، غير قادرة على التعبير، عن أشياء كثيرة.

لدي مشاعر، لا أعرف كيف أصفها. لا يمكن فهمها، بلغتك... أليس هذا محزناً؟! أليس هذا شيئاً فظيعاً؟!

لكني أعترف - أيضاً - أن هذا ليس هو الأكثر فظاعة في حياتي!

ما هو فظيع فعلاً، هو أن السماء الرحيمة المحتشدة بالآلهة، والتي طالما ذرفت أمطارها للناس مثل أمّ، تذرف دموعها، على أبنائها، وهي تمنحهم كل شيء: الضوء، الماء، والدفء ... كانت شحيحة معي، وقاسية! أما السعادة... فقبل لقائي إياك كانت نادرة. مثل بضعة شجرات وحيدات، في سهل، جردته رياح الشتاء العاتية. لم أكن أشعر، بشيء، يخصّني، لا بعاطفتي، ولا بكياني. فوجودي كامرأة قد تحقّق معك. وأشعر بهذه الأنانية الفظيعة، ذلك أن الخوف الذي ينتابني هو أن وجودي ذاته سيتهدّد - مرة أخرى - بغيابك.

تتكلّم صوفي مع صديقها، بينما هو ممدّد على سرير، في مستشفى. يرقد أمامها نحيف الجسم. ذراعاه هامدتان، تمتدان على طول جسده. جلده أشقر شفّاف، يسمح لرؤية أوردته الزرق. في معصمه الأيسر أنبوبة، لحقن سائل، يأتي من كيس بلاستيكي معلّق أعلى السرير. جسده عار مغطّى بشراشف بيض نقية. ساقاه جميلتان، تنكشفان، من أسفل الركبة.

تضع يدها - أحياناً - في يده اليمنى. تجلس إلى جانبه على السرير، تطوي ساقيها، وتضع رأسها على الحافة. شعرها الطويل شديد السواد، ينسدل على كتفيها الثابتتين، بينما يبرز صدرها إلى الأعلى قوياً صلباً. بشرتها سمراء نقية، تلمع في الضوء الداخل إلى الحجرة.

كان الشاب قد هزل، بسبب حادث السيارة الذي حدث له، فقد الكثير من دمه، فقد الوعي تماماً، التصق جلده، على عضلاته. وظهرت بعض التجاعيد، في وجهه. ما يزال يتنفّس عبر كمّامة الأوكسجين البلاستيكية. عيناه الجميلتان الزرقاوان مغمضتان أبداً. مع أن وجهه كان بمواجهة السقف، غير أنه بقي يحتفظ - على الدوام - بمظهره الاسكندنافي الساحر.

أما هي؛ فكانت تجلس إلى جانبه، بالملابس ذاتها التي ارتدتها؛ بعد أن عادا معاً من الحفلة. الجاكتة من الحرير، بقميص أبيض، والتّنّورة

قصيرة شديدة السواد، والحذاء بالكعب العالي. كانت تجلس إلى جانبه، وتستمع إلى إيقاع تنفّسه البطيء والثابت.

***

كلما أكون معك، وأنت جالس على الكنبة بالشورت والقميص الأبيض، وأنت تقرأ الصحيفة، أتذكّر الحجرة المربّعة الضّيّقة، في منزلنا. تلك الحجرة التي عشتُ فيها كل طفولتي وشبابي تقريباً. أتذكّر منزلنا الصغير الكئيب، والواقع على حافة الصحراء. وعلى طرف، من مدينة صغيرة. مدينة، ليس فيها سوى سوق واحد، وبضعة منازل متداعية. لا أعرف لماذا أتذكّر هذه الأشياء دائماً. إنها لا تفارق خيالي. لا تريد أن تغادرني أبداً. بل كأنها التصقت بي، مثلما يلتصق الوسخ، بالجلد. نعم، أتذكّر ذلك المكان، كما لو أني أعقد مقارنة بين جلدك وجلد كل مَنْ عرفته، في حياتي ...

تمدّ صوفي يدها، وتمسّ شعر يده الأشقر الخفيف، وتتحسّس بأطراف أصابعها جلده الرقيق والناعم ...

أتذكّر الستارة المطرّزة القديمة، والملأى بالثقوب، الثقوب التي كانت تسمح لأشعّة الشمس، بالدخول، إلى المنزل. وتجعل الأشعّة الشقراء ترتسم على البسط المفروشة، وعلى الأرضية المبلّطة، ببلاطات قبيحة.

لم أحبّ منزلنا، وهذا ما جعلني أتعلّق كثيراً، بأمي. فكنتُ أهرب منه إليها. غير أن أمي لم تكن تعتني بي أبداً. في الليل، حين ألتصق بها، تُبعدني بيدها عنها، كما لو أنها تدفع حائطاً، سيسقط عليها. وفي الصباح، تغادرني كل يوم؛ لتذهب إلى السوق، فأنتظرها، بحزن وشوق.

غيابها كان يُقلقني، ويُثقل على قلبي. فأجلس - على الدوام - عند عتبة دارنا، بانتظار عودتها. غير أني كنت أتعرّض - على الدوام - للمضايقة من الأولاد الأكبر سنّاً. كانوا يضربونني، من دون سبب، يشتمونني، أو

يسرقون ما تجلبه لي أمي من السوق. فكنت - أحياناً - أحتمي، ببعض الكبار. فوجدتُهم الأسوأ. فبحجّة حمايتي، كانوا يتحرّشون بي.

لقد شعرتُ بكل هذا الإذلال، وكل هذه الإهانات، وصَمَتُّ. كنتُ أخشى أن أتكلّم، أخشى أن أقول الحقيقة، فلا يصدّقني أحد. فأنزوي في ألمي وصمتي.

وكي أتفادى كل هذا الظلم، وهذه العدوانية القادمة من الشارع، كنتُ أهرب إلى أجواء المنزل التي لا أحبّها. أجلس وأنتظر أمي هناك.

كم كنتُ أحبّ الأفق الفسيح المأتلّق بالضوء؛ حيث الطيور المهاجرة تندفع بأسراب وأسراب نحو السماء الزرقاء. إلا أنني أتخلّى عن هذه السعادة، بسلام حزين، كئيب، وصامت في المنزل.

كنت أجهش - أحياناً - بالبكاء، لتأخّرها، ذلك أني كنتُ أتوقّع - يومياً - حدوث الأسوأ، مثلما أتوقّع هذا الشيء، على الدوام معك. فحين تتأخّر عليّ قليلاً، أشعر، بالحزن ذاته، بمرارة كبيرة، في فمي، وقلق يتسرّب إلى قلبي. أتخيّل بغيابك أكثر السيناريوهات مأساوية وألماً، ومن ثم؛ أغرق طويلاً في حزني، بل - أحياناً - لا أسيطر على أعصابي، فأنفجر، بالبكاء.

حين تعود أمي من السوق، أشعر بالبهجة، ومن فرحتي، كنتُ أختبئ وراء هذه الستارة شبه الممزّقة، كي أصنع مفاجأة لها. أو أجعلها تفتقدني. مع علمي أنها تراني من هذه الثقوب التي لا تخفي شيئاً وراءها! غير أن أمي تغضب حين تراني أفعل ذلك. لا لأنها تخشى أن أفسد ما تبقّى من هذه الستارة الممزّقة الشبيهة بالمنخل، إنما لأن أمي لا تحب المزاح أبداً. إنها تكرهه. أمي لا تحبّ الضحك. لم أرها يوماً ضاحكة. كانت تسمّي المزاح والضحك سفاهة. كانت تنهرني، لم تكن تقبل أن أفعل هذا أبداً. أمي الحزينة دائماً، الباكية أبداً، الشاكية من

كل شيء. لا تحبّ أن أضحك، أو أمزح، أو أمرح ... كأن هذا الشيء خُلق لأناس غيرنا، نحن ليس لنا من هذه الحياة غير الألم والموت. لا سلقَ من هذه الحياة غير القسوة والعنف.

***

آه، يا صديقي، كم أشتهي أن تكون لي بنت؛ لتمزح، وتمرح معي. كم أشتهي أن تكون لي بنت، أجعلها سعيدة ضاحكة الوقت كله. فتاة جميلة، أنت والدها. فأبي لا يمكنني أن أنسى نظرته الصارمة، ولا ملامحه القاسية. كان يجلس - على الدوام - في الحجرة المستطيلة، التي لا يدخلها إلا الضيوف، أثاثها قديم، وموحش. على الحائط صورته، جالس أمام عين الكامرة. شعره أسود كثّ، عينياه عميقتان، حادّتا النظرات، شواربه خفيفة، ولحيته الطويلة مصبوغة، بالحناء. مع أنه كان وسيماً في ملامحه، إلا أن الوجوم والعبوس قد منحاه مظهراً قبيحاً، ومنفّراً.

لماذا أتذكّر كل هذه الأشياء الآن؟

ربما أتذكّرها كي أهرب من مشهدك، وأنت هكذا ملفوف، بالشاش، وتتنفّس، ببطء، من خلال كمّامة الأوكسجين. إنه نوع من الهروب، من هذا المشهد الذي يؤلمني، ولا أعرف كي أهرب منه. أشعر، يا صديقي الآن، بالعجز المستديم، بالاختناق، بالتلاشي، بالتعب، بالإرهاق، أكاد أن أتهاوى، وأسقط على الأرض، إلا أني سرعان ما أتماسك، أقول عليّ أن أكون قوية، ثابتة.

الطريقة الوحيدة الباقية لي كي أهرب من مشهدك هذا هو عبر تذكّر أشياء بعيدة، وقعت في حياتي. عبر استعادة طفولتي الحزينة، في بلدي البعيد. ومراحل حياتي الصعبة طوال سنوات عمري الثلاثين. وحياتي الملأى، بالأحداث.

في هذه اللحظة، شعرتْ صوفي، باليأس القاتل، فنهضتْ، من

مكانها. تناولتْ كأس الماء من على الطاولة القريبة. شربتْ قليلاً، وأعادتْه إلى مكانه. لقد أحسَّتْ صوفي لحظتها بالملمس الحقيقي لألم صلب، لا يلين، ألم يتسرّب دون مقاومة، من أعمق أعماق روحها.

سارت قليلاً حتى وصلت النافذة، وهي عبارة عن باب كبيرة من الزجاج، تطلّ على حديقة المستشفى. وقفتْ، بصمت، ثم طافت، بناظرها، على المشهد الذي أمامها؛ حيث يمتدّ شارع واسع وراء سياج المتنزه الذي يفصل المستشفى عن فندق فخم. لقد شاهدت لحظتها خطوط ضباب أفقية، ضاربة إلى البياض، آخذة بالتحلّل، ببطء، فوق العمارات العالية. بينما كانت السماء تصطبغ، ببريق ضارب إلى الحمرة.

وفي الداخل، كان صديقها يرقد على ظهره، وطبقة من الضمادات البيضاء، تحيط به. وعلى جهة خاصرته، جرح هائل مثل جرح المسيح.

لقد شعرتْ لحظتها أنها في عزلة قاتلة. في داخلها ألم لامتناه، وقد بدا لها ذلك البُعد الشاحب، كأنه انعكاس، لحالتها.

عندئذ، فكّرت في أن كل ما جرى لها طوال تلك الشهور، وإنْ كان حقيقياً، فقد كان له مظهر وهمي أيضاً مظهر غير معقول. لحظة، وهي تنظر من النافذة، شعرت بأنها ضائعة، مبعدة، مهجورة .... ولتتفادى هذا الإحساس عادت؛ لتجلس قربه.

لا أعرف سبب هذا الإحساس ... إنه إحساس فظيع من العجز والشعور بالأسى. هل جرّبته في حياتك؟ لا أظنّ. حياتي وحياتك مختلفتان.

- "أنت وين، وآني وين؟" قالتها بالعربية.

الذكريات التي عشتها لا تفارق خيالي أبداً. أحداثها لا تغادرني مطلقاً، ذكرياتي التصقت بي مثل ندبة، أو جرح عميق غائر. وربما من هنا، ومن قلب هذه النعمة، نعمة وجودك معي، قد وُلدت مخاوفي عليك. ذلك

لأني لا أريد أن أعود وحيدة مرة أخرى، جائعة إلى الحبّ. فالأجساد التي عرفتها قبلك كانت، بلا أرواح. أما الروح؛ فهي فيك، لذا؛ فإن جوعي لك، كان وما يزال، بلا حدود.

لقد أمضيتُ طفولتي كلها، بانتظار حبك، انتظار هذا الحبّ الهائل الذي لا يغادر القلب أبداً. بلا مبالغة، يا صديقي، الحب الذي انتظرتُه، جاء معك. كان هو الوسيلة الوحيدة التي بقيت لي، في الصمود، في وجه العواصف التي واجهتني. لذا؛ لا أريد أن أصدّق أن كل هذا سينتهي. وعليّ أن أكتفي، بالصمود، في فوضى حياةٍ، ستولد، من جديد خارج حدود وجودك.

لا طاقة لي على هذا الصمود، صدّقني، لم أعد قادرة، لا على انتظار حب آخر، ولا الصبر، من أجل شيء آخر. هكذا أريد أن أستبقيك، أنت، كما أنت. ولكنْ؛ بعد الذي حدث بالأمس، هل يمكنني أن أفعل شيئاً؟

أنتَ أمامي الآن، أنت الذي حلمت بك كثيراً حتى قبل أن ألتقي بك. هل تصدّق؟

كنتُ حلمت كثيراً أن أحب رجلاً كل هذا الحب. أن أقدم له كل شيء. أن أمنحه كل أسراري. غير أن الوقت لم يكن طويلاً معك؛ كي أحدثك عن كل شيء. كان قصيراً جداً. وها أنت ممدّد أمامي، بوجهك الشاحب، وبساقيك النحيلتين هاتين.

***

هكذا رأيتُ ساقيك الرفيعتين البيضاوين تحت الشورت الأبيض الواسع، للمرة الأولى، كان ذلك في خليج أوستنده. رأيتُ صدرك النبيذي الذي لوّحته الشمس، من خلال قميصك الأبيض المفتوح. لقد نظرتُ في عينيك للمرة الأولى مباشرة. رأيتُ فيهما نظرة ساهمة، متأمّلة. أتذكّر

هذا الأمر جيداً، أتذكّر كيف تحاشيتَ النظر لي مباشرة، وكيف أشحتَ، بعينيك، إلى نقطة بعيدة على سطح البحر الموحش.

كان البحر ساكناً ومشعّاً، وضوء الشمس ينتهي إلى الرغوة الشفّافة التي تغسل الرمل، بوشيش خفيض متكرر. أحسستُ تلك اللحظة، بالسنين الطويلة التي مرت في حياتي، دون أن أشعر مرة واحدة، بالحب. أو بالرغبة المتجددة المتكررة، برجل. رغبة قوية عارمة، أشبه بموجة تندفع، بقوة، وترتمي على الجرف، ثم تنسحب محسورة أبداً إلى عرض البحر.

في تلك الساعة، لم يكن غيرنا على الشاطئ الواسع. وحيدين داخل هذا الامتداد الساكن. بدونا تحت سماء خفيفة الزرقة، كنقطتين ساكنتين متمددتين، على الرمل، لا تكادان تتحركان. وحدنا في هذا البُعد الفسيح، كنا نمارس الحب، على الرمل. وكان الموج الطفيف يصل إلينا، يلامسنا، ويترك غشاء فضّياً رقيقاً على جسدينا، يلمع تحت شمس أوستنده في الصيف، لا يكاد يجفّ، حتى يبتلّ، من جديد، بزبد، يتقطّع، ويذوب.

***

في تلك الساعة من الصباح، في عطلة الصيف، في الفندق، كنتُ مفتونة بك، وأنت تأخذ الحمام عارياً تحت الدوش، مبكراً جداً حتى قبل أن تشرب قهوتك. ثم ارتديتَ المايوه الأسود، وهبطتَ بجسمك المشدود العضلات إلى البحر. كنتَ هبطتَ إلى الركبتين، في الماء البارد، وكان هواء البحر يصدم وجهك.

كنت تدعوني أن أهبط إلى البحر معك.

- تعالي ... تعالي ...

فلحقتُ بك، كان الماء بارداً، وكنتُ أحتمي، بدفء جسدك. لمستُهُ الدافئة كانت تقيني برودة الماء المالح، بعد ذلك، خرجتَ أنت قبلي،

من البحر. صرختَ عليّ، غير أني كنتُ أريد أن أجعلكَ تقلق علي، فرحت بعيداً في البحر.

- صوفي ... عودي ... عودي، لا تكوني حمقاء ...

كنتُ شعرتُ، بسعادة كبيرة، أن هناك على هذه الأرض مَنْ يقلق عليّ، ويخاف عليّ ... جذفتُ لحظة، ثم خفتُ، فعدتُ مسرعة. حين وصلتُ إلى البرّ، توقفتُ، نظرت إلى الشاطئ الرملي الواسع. لم ألمح أية شمسية منصوبة. لم يكن أحد على الشاطئ سواك. كنتَ تقف على حافّة الماء، تنتظرني، أعود من البحر، وعلى ذراعيك الفُوَط الطويلة. فهُرعتُ نحوكَ، خرجتُ أركض، وأنا أرتعش من البرد. فطوّقتني، بذراعيك، كان جلدك ناصعاً، مضيئاً، وناعماً. شعرك الأشقر الذهبي ما يزال يقطر ماء بارداً. فطوّقتُ جسدك، بذراعيّ، وأنا أضحك. مأخوذة، بهذه الملامسة، وغارقة بعينيك الزرقاوين الثاقبتين. فرميتَ عليّ الفوط، لففتَ بها جسدينا، وعدنا جرْياً إلى الفندق.

تصمتُ قليلاً، كأنها تنفلت من غيمة حزن، مرت بها. تقدّمتْ نحوه. مدّتْ يدها نحو يده. شبكتْ أصابعها، بأصابعه. وللمرة الأولى، شعرتْ بأن يده شدّتْ، على يدها. لقد شعرتْ أن يده حيّة. ما تزال سليمة. بها حرارة. نبض. قوة. ابتسمتْ، وانهمرتْ دموعها، من عينيها.

هل تعرف بأني أجلس قربك الآن؟ هل تشعر بوجودي؟ هل تتعرّف على صوتي؟ هل أنت سعيد بي هنا معك، وإلى جانبك؟ كان الطبيب حتى الأمس يرفض بقائي معك طويلاً. لا يسمح لي بالبقاء إلا بضعة دقائق معك. وأمضيت الساعات الطويلة في صالة الانتظار. كم كان الأمر قاسياً! انتظار شيء، لا أعرف ما هو. ربما خبر، سيطيح بي إلى الأبد. لكنه - الآن - سمح لي. لم يسعدني هذا الأمر! هل تعرف؟ بل أرعبني! أخشى أنه سمح لي، بالجلوس، إلى جانبك؛ لأنه يأس، من عودتك، إلى الحياة ثانية.

غير أن شدة قبضتكَ الطفيفة على يدي، شجّعتني. أعطتني أملاً كبيراً أنك ستستمرّ معي، ستبقى حياً؛ لأني أشعر أن لا حياة لي، من دونك.

وجودي إلى جانبك قدّم لي راحة كبيرة. أشعرني أنه يمكنني أن أحميك. أن لا أسمح لك بالذهاب الأبدي عني، والاختفاء. بأن أطوّقك، بذراعي، ولا أسمح لك، بالغياب، أو الرحيل. أنه يمكنني أن أبعد شبح الموت عنك. هل تثق، بقدرتي؟

I

دخلت الممرضة تحمل شرشفاً نظيفاً وحوضاً بلاستيكياً صغيراً. طلبت من صوفي أن تغادر الحجرة، وهي تنزع الشراشف التي تغطّي ساقي أدريان؛ كي تقوم بتنظيفه.

خرجتْ صوفي، من الحجرة، نظرتْ له نظرة حزينة، وغادرت، بثبات، بينما بقيت الممرضة خلفها. سارت، باستقامة، وكعب حذائها يرنّ، بإيقاع واحد، على البلاط الأبيض حتى غادرت المستشفى.

حتى وإن صمتتْ صوفي في هذه اللحظة عن الكلام، إلا أنها شعرتْ في داخلها أنها تركت لخيال إدريان المسجّى استكمال ما تبقّى من حديثها الذي لم تستطع أن تنقله له.

كان الليل قد هبط سريعاً، وأغرق الشارع، بظلمة معتمة، ما خلا أنوار السيارات الحادة التي تمرّ، بسرعة، في آفنو أنسباك. عبرت صوفي الشارع، إلى الجهة الأخرى، وسارت على الرصيف المقابل. كانت محلات الملابس والمطاعم والبارات مفتوحة، والأنوار الباهرة تنعكس على وجهها وملابسها. لم تكن تعلم أنه اليوم الوطني في البلاد، وأن هنالك احتفالات، في كل مكان. اندهشت أول الأمر، من زحام الناس، فأرادت أن تتفادى الأمواج الكثيرة، من البشر، فاتجهت نحو الساحة الكبيرة، أو الغراند بلاس. وهو الجزء الأكثر كوزموبوليتية، من جميع أجزاء هذه المدينة الأوربية الطابع.

بقيت جامدة للحظات، في الشارع، بينما مرّت سيارة سريعة، من جانبها. لم يسبق لها أبداً أن وعتْ بعمق وحدتها قدر ما وعتها تلك الليلة.

فلا وجود لأي شخص قريب منها؛ لتتمسّك به، أو لتُحدّثه عن حالتها. لقد شعرتْ - بشكل كامل - بعزلتها. وفي المقابل، برزت روح أنانية، في داخلها، بل كراهية لكل مَنْ حولها. كانت عدائية في ذلك المساء. أخذت تستحضر ذكرى الأيام مع إدريان أيام الاحتفالات في العام الماضي، بنوع من الحنين القاسي. وكانت جذوة الألم تشتعل في داخلها.

أخذت تنظر إلى الناس، وعلامات الانزعاج بادية عليها. سارت حتى بداية الغراند بلاس. توقّفتْ؛ كي ترقب انفجارات المفرقعات التي أخذت ترسم في السماء، وتنثر أنواراً متفرّقة، تنعكس على الوجوه المرحة الضاحكة، ومجموعات الشباب الصغيرة التي كانت تتدافع نحو البارات والمطاعم.

كانت السيارات تغصّ، بالركاب، وتزحف عبر الشوارع المحاطة، بالأشجار، وبالقرب من المنازل الصغيرة المزدانة، بضفائر المصابيح الكهربائية، شعرت صوفي أن الناس تتعلّق بالآمال والأحلام التي ربما لا يُكتَب لها أن تتحقّق. ولكنها تتعلّق بها، كما لو أنها حقيقة.

كانت بحاجة إلى أن تسير طويلاً في الشوارع. لم تكن لديها أية رغبة للعودة إلى منزلها. شعرتْ بحاجتها للاندماج مع الجماهير التي تحتفل بهذه المناسبة. لعلّها تنسى، أو يتغيّر مزاجها.

- "لمَ لا؟.." قالت في نفسها. إذا كان هذا الأمل يمكنه أن يقدّم لهم الراحة والهدوء. لمَ لا تتعلّق هي - أيضاً - بشيء، من هذا الأمل؟

لقد بعث التفكير بهذا الأمر فيها راحة داخلية جلية. انشرح قليلاً صدرها الذي كان منقبضاً. شعرتْ، بسعادة خفيفة، تسري في جسدها. شيء من الأمل مصحوب بقليل من النشوة. لكنه كان مؤقّتاً، بطبيعة الأمر.

توقّفتْ قبل أن تصل الساحة. ثم استدارتْ؛ لتختفي في أحد الشوارع

الضيقة. ثم سارت بضعة خطوات، في شارع صغير، يضمّ مطاعم وبارات، من أنواع متعددة.

بعد قليل من التفكير، قرّرتْ صوفي أن تعرِّج على البار العربي؛ لتشرب كأساً، وتتناول العشاء هناك.

دخلت البار. لم يكن مزدحماً. اختارت طاولة بعيدة. نقلت عينيها على الصور المعلّقة على الجدران. هنالك صورة، لراهبة. امرأة نصف عارية. صورة أخرى لتشي غيفارا، بقبّعته وسيجاره، صورة لفتيات يقمن باستعراض في إحدى المدن الأمريكية. زنجية عارية، تحيط عنقها بسبعة أو ثمانية من العقود المعدنية، تقف إلى جانب صورة لماو.

جلستْ على مقربة، من النافذة. لم تكن راغبة، بشيء، وبالرغم من جوعها، فهي لم تتناول أي شيء منذ ليلة البارحة. قرّرتْ أن تختار وجبة خفيفة. كان النادل يرقبها. اقتربتْ منه، ابتسمتْ له.

- أريد وجبة خفيفة.

أعدّ لها طبقاً من السلطة العربية والحمّص، وقدّمه لها. تناولته، وذهبت؛ لتجلس، في مكان منعزل.

حاولت الأكل. بالرغم من جوعها. لم تستطع. توقّفتْ. تساءلتْ:

- "كيف يمكنني أن آكل من دونه؟"

تذكّرته حينما كانا يأكلان معاً! تخيّلته أمامها. نظرت ملياً. اختفت الصورة، من أمامها.

عادت إلى حزنها.

كيف تحوّل جسد أدريان هكذا مُسجّى قبالتها؟! كيف يمكنها أن تتحرّك، وتمشي، وتأكل، وهو على هذه الحال؟

ما هو الحب؟ ما معناه، بالنسبة لصوفي؟ معناه أنها تشعر أن أدريان على الدوام معها، حتى وهو غائب عنها. تشعر كما لو أنه حاضر معها كل اليوم! تخاطبه، وتتكلّم معه بينها وبين نفسها! تخطّط ماذا ستفعل الليلة معه، وغداً، وفي العطلة، وفي الصيف. ترى وجهه أمام وجهها منذ الصباح، وحتى المساء.

هو حاضر معها، في كل لحظة، في كل ساعة حتى في أحلامها. ترى عينيه، وهما تراقبانها. تشعر به، وهو يراقبها، ينظرها، يكلّمها! تتكلّم معه بينها وبين نفسها! تخترع الأحاديث والنقاشات معه. تغضب منه، وتصحّح له أفكاره، وتطلب منه أشياء عديدة! كل هذا في مخيّلتها، كل هذا، وهي جالسة في المترو صامتة! أو واقفة في الترام، في الطريق إلى عملها! أو جالسة وحدها في المنزل، على الصوفا. أو وهي تعمل في مكتبها. الجميع يراها صامتة، ولكن حياتها في الداخل مجنونة وصاخبة.

فحين ترتدي ملابسها مثلاً، تشعر، وكأنه حاضر معها! يطلب منها أن ترتدي هذا القميص، أو هذه التنورة، أو هذا الحذاء. لا تطيق النظر، في وجهها، لأنها تشعر بأن عليها أن تكون في عينيه أجمل! تشعر بأن عليها أن تهتمّ بنفسها حتى لو تكون وحدها في منزلها! أن تشعر بحضوره، وأنفاسه حتى وهي في الفراش! أن تتابع كل لحظة رنّة التلفون، وأن تكتب له كل دقيقتين رسالة!

أن تسأله أين هو الآن؟ ومع مَن؟ وماذا يفعل؟! تريد أن تعرف كل دقيقة في حياته، تريد أن تعرف بماذا يفكّر؟ وأين سيذهب اليوم؟ ومع مَنْ يتكلّم؟ وماذا يرتدي؟ وماذا يأكل؟ ومع مَنْ؟

هذا هو الحبّ، أليس كذلك؟!

في البداية، فكّرتْ أن تذهب إلى منزله، تقضي الليلة هنالك، ثم تذهب إليه في الصباح، في المستشفى. إلا أنها غيّرت فكرتها. كانت

خائفة من أن تذهب إلى شقته، في حي أوكل. خائفة أن تجد فيها أشياء، تفاجئها. فهي بالرغم من حبهما، بالرغم من علاقتهما على مدى عامين كاملين. بقي أدريان غامضاً غموضاً مطلقاً، بالنسبة لها. كانت تكتشف كل مرة شيئاً ما في حياته، قد خبّأه عنها. ولهذا السبب، أرجأت فكرة الذهاب إلى شقته، في أوكل، والنوم فيها؛ لأنها تعرف أنها هي مكمن أسراره، إنه المكان الذي يخبئ به أعزّ شيء لديه، ولا تعرف - بالضبط - ما هو. قالت في نفسها:

"ربما هو هارب من شيء ما"!

إنه - بالمحصلة - مثلها، مثلما هي هاربة، من أشياء كثيرة في حياتها، منْ يعرف؟! ربما هو - أيضاً - هارب من أشياء كثيرة في حياته؟!

فهو من ستوكهولم. ولكنه جاء للعمل هنا، في بروكسل منذ أكثر من عام. لم يذكر لها سبب مجيئه، ولم تكن تعرف أن له عائلة هناك، لم تعرف لماذا جاء هنا. لمَ ترك عائلته، وجاء للعمل في بروكسل. في البداية، برر لها الأمر، كما لو أنه بمحض الصدفة، اقتضى عمله كمهندس أن يقدم إلى بروكسل، ويعمل في مطار زفنتان. ولكنها أخذت تكتشف أن صديقها يخفي أشياء كثيرة عنها. وحين واجهته بواحدة من الحقائق التي اكتشفتها عنه، ارتعد من الخوف مثل طفل. إنه يفقد أعصابه، بسرعة. يرتجف، ثم يغضب، ويهرب. كانت كل مرة تكتشف شيئاً جديداً قد خبّأه عنها، لا تعرف لماذا، وما هو السرّ في حياته. كانت تعرف أن هنالك قصة ما ... ما هي؟ لم تكن تعرف، ولكنها كانت مصمّمة أن تعرفها شيئاً فشيئاً، في السرّ من دون أن تثير انتباهه، أو تستفزّ مشاعره.

غير أن الفضول أخذ يستعر في قلب صوفي. لمَ لا تذهب إلى شقته، وتتحرى من الأشياء الموجودة فيها، أشرطة الفيديو، الكتب الموضوعة هناك، الصحف القديمة التي يحتفظ بها، كل هذه الأشياء التي يخبئها عنها، ولا يريد أن يكشفها لها، ربما ستجد من خلالها سر حياته؟!

هكذا فكّرتْ صوفي. قالت:

"طالما عندي مفتاح شقته، لم لا أذهب هناك، وأبحث فيها عن كل ما جعله غامضاً عني ... لا بد أنه يخبّئ أشياء كثيرة، هنالك سرّ عظيم في حياته، جعله هكذا، بالنسبة لي، جعلني خائفة على الدوام منه، جعلني لا أعرفه، ولا أعرف حقيقته".

لكنها خافت، ارتاعت من هذه الفكرة. ذلك أنها ربما ستجد شيئاً ما سيبعدها عنه، أو سيبعده عنها. وبدلاً من ذلك، عادت إلى شقتها في السابلون.

***

لم تكن الشمس قد أشرقت بعد حينما استيقظتْ صوفي مذعورة من النوم على حلم يتكرر لها منذ زمن. كانت أطراف يديها قد خدرت تماماً، نهضت من سريرها، وهي ترتعش. شعرتْ بالاختناق. فتحت النافذة. شاهدت أضواء لافتة المطعم الوردية المرتعشة تبرق في الناحية الأخرى من الشارع. ملقية ضوءها على أغراض الحجرة.

- "كيف يمكن أن يحدث هذا؟"

سألت صوفي نفسها.

- "كيف يمكن أن احلم الحلم المرعب ذاته من عشرة أعوام حتى قبل أن ألتقي به"؟

توقّفتْ أمام المرآة. كان وجهها شاحباً، عيناها متورمتين. كان لا بد أن تفهم، في تلك اللحظة، حتى وإن كانت بالأمس على غير دراية بعد، أو على غير تصديق:

أن السعادة ليست دائمة.

السعادة التي كانت في ذروتها لا بد أن لها مدى زمني. لا بد أن يحدد، بسقوط. لا يمكن للهناءة أن تستمر في حياتها طويلاً. هي هكذا. إذن؛ يمكنها التفكير بهذا الحادث الآن على أنه سقوط متسارع، كانت توقع حدوثه. حدوث شيء كبير ينهي سعادتها. هي هكذا لا تعتقد في أي يوم أن غبطتها ستستمرّ طويلاً. ولكنْ؛ لم تكن تعتقد أن حادثاً ما سيحدث له. ذلك أمر لم تكن تتصور حدوثه على الإطلاق. لكنه جاء مثل ضربة قدر قاتلة. مثل نكتة شريرة، تحيل العينين السليمتين إلى حجرين أبيضين مثل عيني الضرير.

ارتدت ملابسها، على عجل. تناولت قطعة من الخبز، مع قليل من الجبنة. شربتْ قهوتها إلى النصف.

لم تبك هذا اليوم! لم تكن قادرة على فعل أي شيء. لم تكن حزينة، لم تكن غاضبة، لم تكن منهارة، كانت في عاطفة غريبة، لم تجربها من قبل. شيء من القوة والثبات، مع شيء من الانحلال والتراخي.

تناولتْ حقيبتها، وغادرت المنزل.

في مصعد العمارة، التقت صوفي جارتها البرتغالية ثقيلة الظل. المرأة النحيفة التي ترتدي بنطلونات واسعة وتيشيرتات قطنية في الصيف، وفي الشتاء ستراً رجالية سميكة. كما أنها ترتدي حتى في الشتاء نظارة غامقة العدسات؛ لتخفي عينيها المحمرتين من الشرب.

لم تكن صوفي تحبها أبداً، تراها غبية، ليس في رأسها عقل، أفكارها لا تتزحزح.

ما إن رأت صوفي في المصعد حتى بدأت تسألها:

- " كيف هو صديقك؟"

لم تكن لصوفي لا القدرة، ولا المزاج، على إجابتها.

استرسلتْ:

- "أقول لك خذي بالك من صديقك، الرجال لا يؤتمنون، إنهم يركضون وراء كل النساء ... هل تعرفين؟! كان لي صديق في يوم ما حينما كنتُ في عمرك، لكنه أخذ يركض وراء العاهرات اللواتي يملأن أجسامهن بالوشوم، أنت تعرفين أن الرجال يثيرهم هذا الأمر ... أقصد الوشم. آه ماذا أحكي لك عن النساء؟! شيء مقرف، لا تصدّقي ما يحكيه الرجال عن أنفسهم، إنهم في غاية الغباء والقرف. لا تصدّقيهم".

وسط هذا الكلام، شعرت صوفي، بالدوار، أخذت تمرّ - فعلاً - بلحظات، شعرت فيها بأنها فقدت عقلها، إنها ليست حية، كان هنالك شيء يندفع منها أشبه بالقيء، اندفع على أصص الصبّار المزروع أمام الحديقة.

•

٢١ تمّوز

- "انظر، بعمق، ماذا ترى؟! حدّقْ أكثر! استمرّ، في التحديق". قلتُ لك في حلمي ليلة أمس.

- "لا أرى شيئاً، عتمة سوداء أشبه بالموت، لابد أنه الموت". قلت لي.

- "ركّز على المشهد أكثر، أكثر".

- "إنه الموت".

هذا الحلم يأتيني منذ عشرة أعوام دون أن أعرف مع مَنْ أتكلّم. بالأمس، عرفت أني كنت أتكلم معك. قلت لك:

- "لا أستطيع تغيير هذا السواد، ولكنْ؛ ربما هو سواد، وليس الموت، كما تدّعي".

ثم طلبت منك أن تنظر، بعمق. سمعت لحظتها صوت بكاء. خفقَ أجنحةٍ، تحلّق على شاطئ بحر. قلت لك:

"لا تبكِ، لا تبكِ، أنا جنبك، لست على الجانب الآخر". سمعت هسيس الشجر، عواء الريح مع صوت بكاء شجي وحزين.

"هذا قلبي، أمنحه لك. قلبي الذي يدرك الأشياء قبل حدوثها، قلبي الذي يرتعش، وهو يستعيد اللحظات معك"، ثم أخذت أحثّك على الثبات:

"تمسّك، بالحب، يا صديقي، وسيندحر الموت. لا تبكِ. اصمد. تذكّر الأحلام التي حلمناها، تمسّكْ، بالرؤيا، ورغبات الجسد. اهرعْ إليّ، وعانقني، عانق أنين الصفصاف وأغاني الغجر. استنجد، بشجرة التفاح حين تورق أغصانها، طارد البجع، وتشبَّثْ، بالثعالب. لا تنصت إلى نحيبي، أنا امرأة ملعونة، امرأة كافرة، خرجت عن العشيرة،، فشحبت روحها. تذكّر قلب الفتاة البدوية التي أحبّتك. الفتاة البرية التي غامرت، بكل شيء، من أجلك، الفتاة التي تاهت بين البساتين والأنهار، بين خيام الغجر وآثار القبائل".

كنتَ سألتني مرة:

"صوفي، أنتِ لم تحكِ لي عن حياتك..."،

قلت لك:

"سأحكي لك عن حياتي يوماً، يا صديقي، ولكنْ؛ ليس الآن".

كنا جالسين، في الدفء الذي يأتي من خشب الكابينة المغلق. جالسين؛ لنفطر معاً على طاولة منخفضة. وبعد أن شربنا القهوة، أخذنا نتمشّى طوال اليوم على الشاطئ، ثم عمنا في البحر حتى تعبنا تماماً، أنا على الأقلّ. وحين عدنا إلى الفندق، كدت أسقط من النوم. انتظرتك في الفراش، وجسمي هادئ وثقيل بهذا التعب الحلو، بسبب السباحة والجري على البحر طول النهار. وحين انسللت أنت إلى الفراش إلى جانبي، شممتُ رائحة جسدك. تحسّستُ ملمس جلدك الناعم. قلت لي:

- "صوفي، احكي لي عن حياتك، فيما مضى ...في لقائنا الأول، كنت حدّثتيني عن المتشدّدين؟ إلا أنك لم تذكري شيئاً فيما بعد، مَن أنت صوفي؟ من أي بلد أنت؟"

تظاهرت بالنوم ...

- "لا تتظاهري بالنوم، قلت لي ...".

تصمت قليلاً، وهي ترفع رأسها، كأنها تتذكّر شيئاً عزيزاً عليها.

لكنني نمتُ فعلاً. نمتُ، وما كان لي، بطبيعة الأمر، أن أحكي لك عن حياتي. كنت أعدّها أشبه، بالسر، لا لأني كنتُ أخشى أن تعرف هذا السر، إنما كنت أخشى عليه أن ينفرط، أن يضيع مني. أن أنساه، أو أن يصبح شيئاً غريباً عليّ. كنت أرغم نفسي على تذكّره. كنتُ أخشى لو أني فرّطتُ به، وقلته لك، أو للآخرين، سينتهي، أو سأنتهي! كما كنت أخاف منه، يرعبني أن يعرف الآخرون ما كنته، فيما مضى. هل كان يمكنني أن أقول لك مثلاً:

- "أنا التي اسمي صوفي كان اسمي فاطمة...؟".

كنت أعيش في الفقر الذي لا يمكنك أن تتخيله ... كنت أعيش في حجرة، ليس فيها سوى طشت، بطلاء مقشّر، ومرآة صغيرة، على مقدار الوجه، ولم تكن واضحة تماماً، بالكاد، كنت أرى من خلالها وجهي. كنتُ أعيش في مدينة، سيطر عليها مسلّحون متشدّدون، وانتهى فيها كل شيء. أصبحت الحياة فيها حياة قاسية، ليس فيها أدنى تسامح، فأقول في نفسي: آه، يا لتسامحك! وأنا أرى عينيك تبتسمان لي، كلما أخطأت، بشيء معك ... لا... لا يمكنني أن أخبرك، عن حياتي، ومع أن كلماتك كانت تأتيني، وكأنها صوت الطبيعة القادم من جوف العتمة الكثيفة، وكان علي أن أطمئن لها، إلا أنني كنت أهرب منها، كنت أهرب، كما يهرب الندى أمام شمس الصباح.

قلت لي - "صوفي، كبّري دماغك. واحكي لي، لا تحاولي التهرّب من سؤالي".

كنت أعتقد أن الأمر أكثر تعقيداً مما تتصور، وحين دخلت يوماً إلى منزلي، وكنت أشعل جهاز الموسيقى على موسيقى من بلدي، طلبت مني أن أطفئها، قلت لي لأنها فظيعة، كالجنائز. كنتَ تركتَ زجاجة النبيذ، الممتلئة واضحة هكذا على مائدة المطبخ.

ماذا أفعل، يا صديقي؟ اعذرني، لقد عشت حياة مختلفة تمام الاختلاف عن حياتك. عشت حياة، ليس فيها أية فسحة للجمال، ولا أية فرجة للفرح.

- "لا تتظاهري، بالنوم ... احكي لي عن حياتك...".

كيف أحكي لك عن حياتي؟! صديقي، وماذا أحكي لك؟! ماذا أقول لك؟! كنت أعيش، في مدينة بائسة، وزيادة في بؤسها، سيطر عليها المسلّحون. هل تخيّل؟ كانت الحياة قبلهم ذابلة، بوجودهم، انطفأت تماماً. وصارت تنحدر شيئاً فشيئاً إلى القبر. عملنا أمي وأنا، في خدمتهم. أنهض منذ الفجر؛ لكي نقوم على خدمة وإطعام رجال عابسين وصامتين، يذهبون كل يوم بأسلحتهم، في مهمات غامضة. أعرف أني لو قلت لك هذا الأمر، سيصيبك، بالهلع.

كنا فقراء! لم يكن في منزلنا سوى حصان هرم وبغلة. بيت على حافة الصحراء، في قرية، خلفها هضاب رملية مترامية، تمتد إلى ما لانهاية، وأمامها مدينة كئيبة، منازلها كالحة ومتداعية. كنا نعيش في كوخ ذي واجهات خربة، وباب حديدي صدئ، وفناء مهمل، يضيئه مصباح عمومي شحيح. الجدران في الليل لا تضيئها سوى لمبة عارية، تبث ضوءها، بصعوبة، بسبب غائط الذباب الذي يغلّف المصباح. صورة والدي المعلّقة على الجدار قد امّحت. ربما تغيّر والدي كثيراً عن الصورة، بشاربيه الكثّين، وعينيه الشفّافتين، وحلّ محلّهما هذا العبوس الأبكم.

ليس هنالك ألوان في الطبيعة التي أمامنا. للطبيعة التي عشت فيها

لون واحد. هذا اللون الأصفر الرملي الكئيب. وربما من هنا، تأتي هذه القسوة والوجوم في وجوه الناس. يأتي من لون واحد، يغطّي كل ما يحيط بنا، الوجوه والأجساد والأرض وواجهات المنازل.

الموت كان يحيط بنا، الشجر أعجف يابس ذابل، بسبب حرارة الشمس. الجو مغبرّ، كل ما هبّت عاصفة رملية تقبر الناس تحت التراب. مع ذلك، كنت أخرج في الصباح حافية، أركض مع الصبيان، في هذه الصحراء الشاسعة. ومن وقت لوقت، كنا نصطدم بجيفة حيوان ما ملقية على الرمال، إمّا جمل ميت، أكلت من أعضائه الكلاب. أو حمار أحشاؤه المكشوفة سوّدتها الشمس. أو كلب مجفّف كمومياء، أو رأس حصان.

هل تصدّق؟... المرأة التي تحبها كانت تلعب قرب هذه الهياكل العظمية، وهذه الجثث.

ليس هنالك من بشر، بل تمرّ - أحياناً - بضعة نساء من القرية ذاهبات إلى سوق المدينة غير أنهن مغطّاة بأخمرة هائلة سوداء.

عشتُ في زمن شديد القسوة، يا صديقي. أنا من أرض مشقّقة مثل يد فلاح، رمالها مفكّكة تحت وهج الحرارة القاسية. من تلال موحشة، صخورها تسدّ الأفق البعيد، فلا ترى الناس فيها إلا نفسها. من حياة فظّة، يصنعها رجال أفظاظ، وجوههم عابسة، كأنها غيوم راكدة ملتصقة، بالأرض. وتعسّف المناخ لا يمنحهم إلا عادات كئيبة مهجورة. فلا يكتسبون قوتهم إلا بالعنف والوهم، أما الحب؛ فهو شيء نادر، لا أحد يقترب منه؛ لأنه يقود إلى الموت، فينتصب وحده مثل كعكة مهجورة.

لقد عشنا في ظل المحنة، محرومين من الحب، ومن الطعام، يراقبنا مسلّحون قساة متشدّدون، ويعذّبنا برد المناخ القارس، من دون أي حساء! لقد كان العوز إلى الحب كبيراً جداً، فقد غدت عواطف الناس مثل

صخوراً لأنهم فصلوا الرجال عن النساء، بسور من حديد، حتى وجد الرجال العزّاب ضالّتهم، بمضاجعة الحيوانات، كالحمير والبقر.

***

ماذا أحدّثك، يا صديقي، عن تلك الأيام؟ عن تلك اللحظة التي سمعنا فيها أن المتشدّدين سيدخلون المدينة، في الليل، فدبّ الهلع، في كل مكان، واجتمع رجال القرية في بيت كبير القرية، كان رجلاً حكيماً، وكبير السن. لقد أخذ الرجال ذلك اليوم يدورون في حلقة مفرغة مثل البرغي الممسوح. لا يعرفون ما يصنعون، لا أحد يمكنه مقاومتهم.

ثم جاء كبير القرية إلى منزلنا، وقف بالباب مع والدي، حاول أن يطرد ذبابة طنّت حول أنفه، بفظاظة. فحرّك عظام فكّيه، بعصبية، وهو يتكلّم، ثم مسح يديه النديّتين، بجلبابه الأسود، وقال لوالدي:

"سنقاومهم....".

غير أن والدي تركه، ودخل، بعصبية، إلى منزلنا. كان والدي يكنّ ضغينةً كبيرةً للحكّام، ويرمي أسباب فقره عليهم. كاد اليأس أن يستولي عليه، وهو يجتر مرارته التي أجّجها اليأس من الصراع، في بلد يتقهقر. كاد أن ينتهي إلى مخاطبة الجدران، في البيت، ذلك أن لا أحد يستمع إليه، أو يستجيب له، فضاع في قفار مشاعر الضغينة والكراهية.

وفي الليل، حين بدأ نهيق الحمير وصياح الكلاب، بالخفوت، هاجم المسلّحون القرية، واستولوا عليها كلها. وهكذا سرعان ما قرّر والدي الالتحاق بالمسلّحين المتشدّدين.

***

ارتفع صوت المؤذن، بينما كانت أمي تحاول أن تقنع والدي ألا يلتحق بهم. إلا أنه دخل، في صمت طويل، كان وجهه ذلك اليوم عبارة عن لوحة فارغة، لا تعبّر عن أي شيء، عبوسه أبكم وصارم، وغير مفهوم، بالمرة.

- "ماذا أفعل هنا؟" صرخ - فجأة - بوجه أمي "أبقى في هذه القرية المقفرة؛ كي أصيد الذباب؟"

نفض التراب عن جلبابه، وانحدر في الطريق الترابي الذي يقود إلى مكان المسلّحين. ارتفع الليل مثل عاصفة، وابتلع القرية الصغيرة، كنا نسمع صوت الريح على أغصان الأشجار، ونسمع بكاءها بين الحشائش.

***

في يوم، عاد أبي إلى المنزل مبكراً، وقف وسط الباحة عابساً، وقال إننا سننتقل إلى مكان ثان، أو إلى منزل آخر. لم يقل أكثر من هذه الجملة، تركها من دون إيضاح. بعد ساعة، رأيته يتباحث مع أمي، في الحجرة الأخرى، وكانت أمي قلقة وخائفة. سألتُ أمي لمَ هي قلقة وخائفة؟ إلا أنها لم تقل لي شيئاً.

في اليوم التالي، نقلنا أغراضنا، وذهبنا إلى المدينة الصغيرة؛ لنعيش في منزل كبير، يتحصّن به رجال مسلّحون، وجوههم عابسة، يرتدون ملابس غريبة، ويضعون على رؤوسهم العمائم السود، ولحاهم طويلة. في المنزل، صالة كبيرة، يقدم فيها الطعام، بإسراف كبير، ويكون دوماً مصحوباً، بصراخ مدوٍّ. وخلف هذه الصالة، كانت هنالك حجرة طويلة للنساء المنقّبات، أمامها حجرة للحراسة. فيها أريكة. على جانبيها، نوافذ صغيرة، لا يمكن إغلاقها، تشرف على الشارع. مقابلها، نافذة كبيرة بلا إطار ولا زجاج، ترى شجرة نخيل عبرها. على أريكة كبيرة، على اليسار، تجلس امرأتان محجّبتان؛ الأولى امرأة ضئيلة الحجم، والأخرى سمينة، لها صوت جَدّ قبيح. لا أحد يمكنه دخول حجرة النساء المنقّبات دون أخذ الأذن من هاتين المرأتين.

وكان دور أمي هو تنظيف المنزل كله في الصباح الباكر، وحتى منتصف النهار؛ حيث ننتقل إلى منزل صغير ملحق بهذا البناء، وهو أشبه، بالزريبة، كنا ننام، ونأكل فيه.

نبقى أنا وأمي في هذا المنزل الصغير للعمل طوال النهار. أما والدي؛ فيختفي في النهار، ولا يعود إلا في الليل، وأحياناً؛ يختفي في الليل أيضاً، والكثير من الأحيان، يغيب لأيام متتاليات. ربما كان يقوم بمهمّات عديدة خارج المدينة، يكلّفه بها الرجال المسلّحون. أما أنا؛ فكان علي مساعدة أمي، في التنظيف، وفي الأعمال الخدمية الأخرى؛ حيث ننهض كل يوم مبكّرات، قبل استيقاظ الجميع، ونقوم بتنظيف المنزل من الطابق العلوي وحتى الطابق السفلي. لا يمكنك أن تتخيّل التعب الذي كان في يدي الصغيرتين، وفي جسدي، وفي قدمي، حينما أعود بعد العمل الشاقّ، تلك الأيام.

***

في يوم جمعة، وفي ساعة مبكّرة من الفجر، وقبل أن ننهي التنظيف، دخلت مجموعة من المسلّحين بالعمائم واللحى، وجلسوا على الأرض. وأخذوا يتباحثون، في أمر خطير. من كلامهم الذي سمعته من بعيد، من طريقة حديثهم، أدركت جدّيّة ما كانوا يتباحثون به. في الفسحة المقابلة، وقف حرّاس متنكبون، بأسلحتهم، وفي الممرّ، وعند باب الديوان، هنالك مجموعة أخرى من المسلحين الأصغر سنّاً.

بعد ساعة، طلب منا أحد المسلّحين مغادرة المكان، أمي وأنا، وبطريقة فظّة. فما كانوا يخاطبون أحداً، بصورة لائقة، أو هادئة أبداً، ولا سيما النساء. وما إن هممنا بمغادرة المكان حتى صرخ أكبرهم سنّاً، صرخ في تلك اللحظة، بالذات، وقبل أن نبلغ العتبة، أمر بجلب امرأة من السجن الملحق بهذه القاعة.

- "اجلبوا هذه الزانية الكافرة من السجن"! هكذا كان الصوت، خشناً قاسياً، مركّزاً على كلمتين اثنتين زانية وكافرة. لقد رنّتا في أذني طويلاً، كنتُ أعرف معنى كلمة زانية جزئياً. معنى مضبباً، ليس حقيقياً، ليس،

بالضبط، ولكنْ؛ شيء قريب من المعنى. أما معنى كلمة كافرة؛ فكنت أجهله كلياً. مع وقع الكلمة موسيقياً في أذني، فقد أحببتها. كافرة. لم أكن أعرف المعنى، ولكنْ؛ كصوت، بالرغم من الطريقة القبيحة التي لفظها هذا المسلّح المتشدّد بها. كافرة ... يا للسحر! قلتُ في نفسي. مَن هذه المرأة المهمّة إلى هذه الدرجة التي تجعل كل هؤلاء الرجال الذين نرتعش منهم، ينشغلون بها، تجعلهم إلى هذه الدرجة، ينهمكون، بالحديث عنها.

كنا أمام العتبة. عادت أمي، إلى الداخل. تبعتها. قالت لهم:

- "لقد نسيت حافظة الملابس، هل أعود لأخذها...؟"

- "يالله، بسرعة، يا غبية .. كلكن غبيات ... خلقكنّ الله هكذا".

لقد واجهتنا في الممرّ، الكافرة الزانية. كانت في العشرين من عمرها نحيفة سمراء، بعينين سودواين، تقطران عذوبة. لم ترتد النقاب.

"هل جرأتها هي التي جعلتها تسير في هذا المكان، من دون حجاب؟" هكذا تساءلتُ في وعيي الطفلي، في تلك اللحظة. تساءلتُ، في نفسي:

كيف جرأت هذه المرأة ألا تستسلم لأوامر هؤلاء الرجال الأقوياء؟ أم لأنها كافرة وزانية، ولا يجوز للزانية والكافرة أن ترتدي النقاب؟ بينما كل النساء، في كل المدينة وملحقاتها، ومنذ سيطر المسلّحون عليها، يتنقّبن، بالسواد الكامل، من أعلى الرأس حتى أسفل القدمين، كل النساء أصبحن تحت نقاب أسود حتى البنات الصغيرات، بل لا يجوز إظهار حتى أصابع اليد. على المرأة أن تتغطّى، بالكفوف السود حتى في الصيف الحار، وهكذا لا ترى النساء الماشيات بالنقاب، إلا كما الغربان. لا وجود لوجه امرأة مكشوف، في تلك البقعة أبداً، إلا وجه هذه المرأة. هذه المرأة الجميلة التي مرّت أمامنا، بعد أن صرّ باب السجن صريراً خافتاً مثل باب حظيرة ماشية.

وقفت بشعرها الأسود الكثّ المنثور على كتفيها، أمام رئيسهم، بوجهه الذي يشبه وجه حشرة. في تلك اللحظة، تغيّرت نظرتي لها. لم تكن هذه المرأة قوية. بل؛ كانت ترتعش أمامهم مثل ورق الأشجار. لماذا، يا ترى؟

كانت الحجرة التي جلس فيها المسلّحون مضاءة، بإناء زجاجي، فيه زيت معلّق، بحبل، وكان الرئيس جالساً، في صدر المجلس، يشرب القهوة، بعبوس، وصمت، وخلفه فراشه. قال لهم:

- " هذه الفتوى ... لقد حكمتُ عليها، بالرجم بعد صلاة الجمعة".

***

لم أكن أعرف معنى الرجم. لكني هُرعت إلى الشارع؛ لأنقل الخبر إلى جميع الأولاد والبنات، وخصوصاً مَن كانوا في عمري.

"المرأة الكافرة التي رأيتُها اليوم ستُرجم بعد صلاة الظهر".

كان امتيازاً كبيراً أن أعرف كل ما يدور في هذه الحجر المغلقة، من أسرار، يقررها هؤلاء الرجال الذين يستولون على المدينة. وفي ذلك الوقت، لم أكن أعرف ما معنى الرجم، ولا سببه.

***

بعد صلاة الظهر، تجمّعنا، في الساحة المقابلة للجامع. كل المدينة قدمت؛ لتشهد عملية الرجم. كان الموعد بعد الصلاة، وما إن خرج المصلّون من الجامع حتى أخذت الناس تُهرع للمكان الذي سيشهد هذه العملية. •

لقد استيقظت المدينة الميتة باكراً ذلك اليوم؛ لم تكن كذلك فيما مضى، كانت مدينة غافية مسطّحة خاملة. أما اليوم؛ فهي نشيطة حية، هذا يعني أن اليوم ليس يوماً عادياً في تاريخها، سيكون يوماً مشهوداً، يوماً لا يشبه أي يوم آخر. في طريقي؛ حيث كنت أُهرع معهم متعثّرة بنقابي

الأسود، رأيتُ الأولاد الحفاة يركضون أيضاً. كانوا فرحين جداً، وكانوا هم الذين يتناقلون الخبر، للجميع في طريقهم. دون أن يذكروا بأنني التي أخبرتهم به. وهذا جعلني حزينة بعض الشيء، كان من الإنصاف أن يذكروا أن هذه الأخبار الخطيرة، والتي تخرج من هذا المكان السّرّيّ الخاص، بالمسلّحين، أنا وحدي التي كنت أجلبها لهم.

***

ساعة واحدة، أو أقلّ، تجمعت كل المدينة المكفهرّة العابسة، وأصبحت مبتهجة، لحدث جديد، في تاريخها.

بين الفينة والأخرى، يأتي رجل، بسلاحه؛ لينظّم الجمهور. في المقدمة، وقفت عائلة قبيحة، اتخذت مكانها أمام جميع العائلات. تعالت الأصوات، تطلب منها الرجوع إلى وراء. أخذ رجال العائلة يصرخون مطالبين المسلّحين، بجلب الحجارة. بدت الأم مثل ببغاء عجوز مريضة. زوجها الأعرج كان مبتهجاً لرؤية هذا الحدث. حالة رضى غنائية في وجوه الناس، كأن هذا المشهد القاسي هبط عليهم مثل هدية.

يتأهّب الناس للحدث، شعور بالسعادة الغامرة على الوجوه، ربما لأنهم ليسوا هم الضحايا. أو إنها الإثارة الشبيهة بالصعود في المركبات الخطرة، في مدن الملاهي؛ حيث الفرح يصعد، كلما نقترب، من لحظة الموت.

اصطفّت مجموعة أخرى من الرجال المسلّحين على مقربة من هذا الرجل السمين، في مستطيل، يرددون الآيات القرآنية، ويقومون، بحركات تحت قيادة رجل، وقف وسطهم.

في المقدمة، يبرز وجه شاب أبله، نحيل قليلاً، شفاهه مكتنزة، وأنفه أعقف. هنالك طفل يبكي ويتلوى إلى جانب أمه التي تصبّره؛ ليرى الحدث الذي سيحدث بعد دقائق. رجل مشعوذ يقف ويصف للناس

ما ستؤول إليه هذه المرأة؛ إذ إنها بعد الرجم، ستؤول إلى النار. وقفت أمامي بنتان حافيتان، في ثياب زرقاء فضفاضة، مع صبي قصير، قبيح، قوي وممتلئ الجسم.

صرخ الصبي، حاول يائساً أن يتقدم على كل الناس، إلا أن أحد المسلّحين ضربه بالسوط، على مؤخرته، فعاد إلى وراء. كان حشد الغوغاء كبيراً، كأنه موكب، وقد التحق بهذا المهرجان بعض المارة، جاءوا على ظهور الحمير. الأطفال صعدوا على السور؛ ليرقبوا المشهد، من هناك. بعض النساء المحجّبات، بالخمار الأسود، تجمّعن قرب الموضع الذي رُسمت فيه دائرة، بالطباشير.

سيارة دفع رباعي، عليها رشاشة أوتماتيكية، وقفت في موقع قريب، وصوبت نحو المكان. رجلان قويان، كأنهما مصارعان، يرتديان ملابس أفغانية، لهما عضلات واضحة، دفعوا بعض الرجال؛ ليوسعوا الساحة. رجل عابس، بجلباب طويل، يتحرك حركة بطيئة، شعره طويل مسدول على الجانبين، حاجباه الأسودان كثيفان، بالغ البشاعة، كان هو الذي قرر ساعة الرجم.

انتدب ثلاثة رجال من المسلّحين، وقد سمّاهم بالأسماء، فهبطوا من سيارة الدفع الرباعي، ببنادق معلّقة على الأكتاف، ووقفوا أمامه. أشّر لهم بيده آمراً إياهم أن يجلبوا الكافرة.

هُرعوا، بسرعة، إلى السيارة القريبة. كانت العيون تلاحقهم. دخلوا إلى السيارة. أنزلوا الشابّة، وهي ذاتها التي رأيتها صباحاً، في الممر. كانت ترتجف. مانعت أول الأمر، إلا أنهم سحلوها سحلاً. أوصلوها إلى مركز الساحة. بصحبتهم امرأة قوية، صلبة. لها يدان وقدمان قويتان، كأنها رجل. كانت منقّبة، بالسواد، من الأعلى إلى الأسفل، إلا أن النقاب لا يعيقها أبداً عن أداء مهمّتها. كانت تساعدهم في سحلها، وجرّها إلى الموضع. وضعوها وسط الدائرة المرسومة، بالطباشير البيضاء. قامت المرأة،

بربطها، بحبل، كان مشدوداً، على خصرها، ربطتها به؛ كي لا تتحرّك. جعلوها تجثو على ركبتيها، وشدوا يديها إلى وراء؛ ليستقر الجسم، بلا حراك. كانت الفتاة تهتزّ من الخوف. أشارت بيدها إلى المرأة المنقّبة التي جاءت مع المسلّحين بأنها تشعر، بألم، من الحبل، فضحك الجمهور عليها.

جاءت سيارة، تحمل صخراً، وقلبوها قرب الموضع. رمقت الفتاة بعينيها الحجارة الساقطة هناك. ارتاعت، وبان الرعب، في وجهها وعينيها. ابتسم المسلّحون حين رأوها ارتاعت، وارتجفت. فرحوا؛ لأنها فزت مثل الطير حين رأت الحجارة المتساقطة من السيارة.

هُرع الرجال والنساء والأطفال؛ ليحمل كل واحد منهم نصيبه من الحجارة. لم أحمل حجراً. كانت أمامي، وقد وقفت إزاءها، بالضبط، متفحّصة وجهها وجسدها. كان يمكنني - أيضاً أن أسمع - أنينها، بل كنتُ أسمع حتى تنفّسها، أرى الدمعة، في عينيها، أشعر بوجهها البريء، وكنت أشعر ببراءتها.

طلبوا منها أن تنظر إلى الناس. وقف على رأسها أحد المسلّحين، له لحية، انسابت إلى أسفل، يعلوها شاربه المحلوق. أنفه الكبير يلتهم وجهه، وقد برزت عظام وجنتيه. رفع رأسه مفتخراً، وأخذ يقرأ أمام الجميع فتوى رجمها. أخذ يتكلّم، والناس تصغي له. كنت أنظر وجهه، بانبهار، دون أن أفهم معنى الكلمات التي يلفظها. كنت أنظر عمامته السوداء، وهي تتحرك مع حركة جبينه وحاجبيه. بينما يقف إلى جانبه جارنا السمين، الواشي الأول، للمسلّحين بها، وقد برز كرشه إلى أمام، في زمن كان الجميع فيه ضامراً، من الجوع.

أشار، بيده، إلى الناس، برميها، بالحجر.

***

رفعتُ النقاب عن وجهي متحدية كل مَن كان هناك؛ لأحدق في وجهها جيداً. كانت جميلة، مكتنزة الشفاه، فطساء الأنف، بلهاء قليلاً. ذات عينين سوداوين واسعتين، هيئتها متعبة حزينة. كنت أركّز في عينيها تلك اللحظة؛ حيث بدأ الضجيج يتعالى، عند سماع الأمر، برجمها. لقد أحدث الرجال دربكة، بأقدامهم، متأهّبين للحدث.

عيني بعينها مع أول ضربة حجر، ضربت وجهها. مع أول صرخة ثاقبة مرتعشة عالية، صدرت عنها، مصحوبة، بحركة لسان سريعة مرتجفة. كنتُ سمعتُ حفيف ثيابها، الصوت الناجم عن الدم الذي سال منها. صوت بكائها الجلي والبطيء. دلفت عيوننا بعضها بعضاً؛ كثافة تحديقنا تضاعفت.

شعرتُ تلك اللحظة- وهذا الشعور أضمره حتى الآن- بأني أريد ضمّها ضمّة شديدة، كنتُ أريد معانقتها، أن أقول لها "يا أختي"، كنتُ حبستُ تنفّسي قدر المستطاع حتى تكون روحي قرب روحها.

أما هي؛ فقد أرسلت لي زفيراً مضمّخاً، بالدم، وهي ترفس، بأقدامها على الأرض، لم تكن قادرة أن تتّقي الضربات، عن وجهها، أو رأسها، فيداها موثوقتان. كان الضحك يتعالى، وهم يمعنون، بضربها، على الرأس، وعلى الوجه. ظلّ جسدها يتحرك طويلاً، يتلوى، وأنا أقف عند رأسها. لا بد أنها فكّرت بي، وهي صامتة قبل أن تفيض روحها.

بقي الجمهور، يدفنها تحت الصخر، حينما انسحبتُ وحدي، من الساحة. حتى الأرض أخذت تتأوّه لكثرة ما سقط عليها، من الحجر.

•

في السماء، رأيت زوجاً من العصافير يبتعدان، وأنا أرقبهما، بعيني، تمنّيتُ الطيران معهما، والخلاص من هذا المكان. شعرتُ بأن قلبي يكاد ينخلع من الحزن والخوف. السماء ليس فيها غير بضعة غيوم متناثرة، لا فائدة منها. وليس في الصحراء القريبة غير راعٍ صغير السن، بعمري

تقريباً، وهو يغفو على صخرة، وأمامه قطيع صغير من الخراف، لا يتعدى الخمسة، خراف ضامرات، يبحثن في المزبلة، عن شيء، يأكلنه.

***

بقيتُ إلى المساء، لم أعد إلى المنزل، بقيتُ أفكّر بهذه الكافرة. كنتُ أريد أن أكون الكافرة. لا لشيء، إلا لمواساتها، أكون مثلها؛ لأخفّف عنها. وحين عدتُ إلى المنزل، لم أعبأ لغضب أمي التي صرخت بي:

- "أين كنت؟"

- "هناك ..."، قلتُها، بهدوء، ولا أباليّة.

- "أين هناك؟ لقد بحثتُ عنك، في كل مكان، ولم أجدك، شعرتُ باليأس، أين كنت؟"

- "قلت لك هناك ... ماذا تريدين مني؟"

- "لا أصدّقك، يا كلبة، لقد بحثتُ عنك، في كل المدينة، وقد انخلع قلبي من الخوف عليك، لن أدعك تخدعيني هكذا، لم تعودي صغيرة، قولي أين كنت؟! تكلمي...!"

- " ماذا تريدين مني؟ بمَ أتكلم؟"

- "قولي أين كنت، وإلا سأقول لوالدك".

- "قولي له، لا يهمّني.."

- "آه، يا إلهي، ما حدث لك؟! ... أنت لا تشبهين ابنتي التي أعرفها! ماذا جرى لك؟! ألا تقولين لي؟!"

- "هكذا أنا كافرة ...".

- ...أش أش، لا تقولي هذا الكلام، وإلا سمعك أحدهم".

- "كان علينا أن نكون كلنا كافرات، ولا ندعها تموت وحدها".

وارتميتُ في حضن أمي باكية.

***

في الليل، كنتُ أنظر القمر من الزريبة التي حشرونا بها، من دون هدف. أنظر القمر، في هذه اللحظة، وهو يضيء المآذن. الكون كله صامت، باستثناء نباح كلاب أحياناً. ستائر الحجرة مسحوبة. خارج نافذتي، هنالك شجرة عجفاء، في الحديقة، سوداء كئيبة على خلفية الليل الشاحب الوميض. أمام أمي طاولة مغطّاة بقماش أخضر، مضاءة بشمعتين.

سألتُ أمّي:

- "هل الله عادل؟"

- "نعم، هو عادل".

- "هل هو رجل؟ أم امرأة؟"

- "هو روح، لا رجل، ولا امرأة".

- "لماذا نقول هو، ولا نقول هي؟"

- "لأنّه لا يصحّ أن نخاطب الله، باسم امرأة".

- "لماذا؟"

- "لأن المرأة أقلّ من الرجل".

- "أقل بماذا ؟"

- "أقل بكثير..."

- "مثلاً، أريد أن أعرف، بماذا؟"

- "المرأة أقلّ ذكاء من الرجل ... الرجل أفضل. والله خلق الرجل على صورته".

- "والمرأة خلقها الله على صورة مَن؟"

لم تجبني أمي، بل نظرت لي نظرة استغراب، أو نظرة يأس، ربما. فلم تكن موافقة - بالتأكيد - على هذه الأسئلة التي لم تخطر في بالها. وفي الواقع، لم تكن تخطر في بالي لو لا رجم هذه الفتاة التي سمّمتْ علي حياتي.

- "هل يرجمون الرجل ..؟"سألتها.

- "لا...".

- " لماذا؟"

- "لأن المرأة هي التي تغوي الرجل، هي التي جعلته يأكل التفاحة، ويخرج من الجنة...".

- " أنت قلت إنها غبية، كيف استطاعت هذه الغبية أن تخدع الرجل الذكي؟!"

لم تجبني أمي. كان عليَّ أن أجد الجواب وحدي. عليَّ أن أبحث عنه، وأصل إليه. غير أني شعرتُ بعد هذه الحادثة غيري، لم أعد نفس هذه الصبية أبداً.

II

في هذه اللحظات، أعادت الذاكرة صوفي إلى اليوم الذي تعرّفت فيه على إدريان. كان ذلك قبل عام واحد من هذا الحادث، بالضبط. كان الجوّ حاراً، في ذلك الصيف الذي سافرتْ فيه إلى أوستنده. لم تكن بلجيكا، على عادتها. كانت درجات الحرارة مرتفعة. حتى كاد الإسفلت أن يذوب في الشوارع. بل يبست أغصان الأشجار على جذوعها. السماء الزرقاء صافية وخفيضة، وقد امتزجت مع البحر الرمادي وموجاته الزرقاء الهادئة. كاد أن لا يتحرك فيه شيء. كان ساكناً جداً. وفي المساء، أخذ كل شيء لون لؤلؤة وردية، فصار منعشاً.

كانت صوفي تتذكر هذه الأيام، وكأن حرارة ولون السماء والبحر قد لعبا دوراً حاسماً، في هذا الحب؛ حيث جاء أدريان؛ ليقضي بضعة أيام، بمناسبة عيد ميلاده هناك. هذا اللقاء قادهما إلى هذا الحب. الهواء والماء المطبقان، والساخنان سريا في أعماقهما، وسحبهما نحو أعنف حب، يمكن أن يحدث هذا الصيف في أوستنده.

***

كان تعارفهما في مثل هذا اليوم الذي حدث فيه الحادث المشؤوم، حادث السيارة، والذي أدى به إلى المستشفى. وهو يوم ميلاده أيضاً. فقبل عام، ذهب أدريان إلى أوستنده شمال بلجيكا؛ ليقضي أسبوعاً، على البحر. وهناك، التقى صوفي التي كانت تقضي عطلتها، في الفندق ذاته.

شاهدته للمرة حينما كان واقفاً أمام موظفة الاستقبال محدّثاً إياها عن حجزه في الفندق. سمعتْ صوفي صوته دون أن تنظر إليه. أصغتْ له جيداً. رنّت الكلمات في أذنها. قال لموظّفة الاستقبال إن اسمه أدريان، وهو من ستوكهولم، ويعمل في مطار زفتان، في بروكسل. ويريد أن يقضي يومين، في الفندق، بمناسبة عيد ميلاده.

"لمَ يحتفل بعيد ميلاده وحيداً؟" تساءلت في نفسها.

لم تستطع تفادي النظر إليه. التفتت له. ومن النظرة الأولى سحرها بروفايله. جذبتها شقرته المميزة. عيناه الزرقاوان الصافيتان أشبه بعيني إله روماني. جسده الممشوق، ملابسه الأنيقة، كلها كانت متناغمة تناغماً هائلاً مع صوته.

شعرت بشيء صبياني للوهلة الأولى في حركاته. وحين التفتت إليه، شعرت بشيء جديد. أشبه، بموسيقى، تصعد في داخلها. انتهت من الكلام مع موظف الاستقبال، ومرت، من أمامه، التفتت له، بنظرة جانبية، جعلته يشعر بأنها انتبهت لنظراته.

لقد صدر عنها في وقتها حركة عفوية، أرادته - من خلالها - أن يشعر بها، وأن يلتفت إليها، وقد نجحت، في ذلك. انتبه لها، نظر إليها، بل منحها نظرة مميزة، كما لو أنه قال لها: إنها من طراز المرأة التي يحبها. أو على الأقل؛ المرأة التي يودّ أن يقضي معها العطلة، في أوستنده.

وهي - من جانبها - لم تخطئ، شعرتْ أنه من النوع الذي يحبّ النظر إلى النساء. ليس من النوع ذاته الذي تعرفه في الشارع، في البار، أو في العمل. إنما من نوع آخر، ذلك النوع من الرجال الذين يحدّقون، بحب، إلى المرأة. الرجال الذين يحملون بعض النزعات الرومانسية، عن المرأة، أفكاراً وصوراً وخيالات متعددة.

وهذا صحيح. لقد تيقّنتْ - فيما بعد - منه. كان شخصاً عاطفياً، على نحو مرهف، لديه عاطفة خاصة نحو النساء، خلقتها مراهقته ربما، أو خلقتها حياته الوحيدة والفريدة برفقة والده المريض، والذي انتهى إلى مصحّة للمجانين، ومن ثم؛ مات منتحراً.

هذه الحكاية خبّأها أدريان طويلاً عنها. حكاية جعلته حسّاساً جداً في التعرض لها أو الكلام فيها، فأراد بكل صورة أن يخبئها في داخله وأن يبعدها عنها. إلا أنها اكتشفتها - فيما بعد - بالمصادفة المحضة.

***

إذنْ؛ ما اكتشفته صوفي في أدريان، هي تلك الرومانسية المميزة، عن المرأة. ليس المرأة الجميلة والحرة، بشكل خاص، إنما كل امرأة. لقد ميّزت فيه نوعاً من الرومانسية القادرة على ملاحقة الفتيات، بنظراته، أين ما كنّ. وما كانت له تجربة عظيمة عن اللذة الجسدية. فقد كانت علاقاته مع النساء متقشّفة ومقنّنة. ولكنْ؛ بقي في داخله على الدوام ذلك الرجل الحنون، الرجل الرومانسي الحالم، والذي يحمل عن النساء في روحه وفي عقله أجمل صورة.

***

في تلك الساعة، لم يكن هناك أحد غيره أمامها. كان الشاطئ واسعاً. مسافة كبيرة تبعدها عن الفندق. امتداد ساكن تحت سماء زرقاء، بغيوم خفيفة، طائران في الفضاء يحلّقان. عرفتْ حينها أنهما صقران، في البعد الفسيح. راقبتْه، وهو يتخطّى على الرمل، قدماه عليهما غشاء من زبد الموج فضي رقيق، وهنالك زبد أبعد من قدميه، يتقطّع في الماء، ويذوب. قدماه تجفّان في الشمس، وهو يلحق بالكرة التي تتدحرج على الرمل، يقف عند شمسية امرأة، كانت تقرأ بكتاب، وتضع عدة الصيف جنبها.

(هل هي زوجته؟! ... هل هي صديقته؟) أول سؤال خطر في ذهنها. وهي تنظر له، من بعيد، تحاول أن تميز شكلها.

أخذتْ تراه صباح كل يوم. كانت تتابعه، بنظراتها، هو - أيضاً - أخذ يتابعها، بنظراته. أحياناً يتمدد على الرمل تحت شمسية كبيرة، وهو يقرأ بكتاب. عيناه في الكتاب يتابع سطوره، إلا أنه - من وقت إلى وقت - يطرح الكتاب جانباً. ينظر نحوها. يتابع جسدها. يتابع حركاتها. يرفع نظّارتيه الشمسيّتين السوداوين؛ كي يتأكّد من وجودها، ثم يعود، إلى كتابه؛ ليقرأ.

***

تحاول - الآن - أن تتذكر كل شيء مرّ في ذلك اليوم، اليوم الأول الذي رأته به. لم تكن تعلم أن هذه النظرات العابثة ستقودها - في يوم من الأيام - إلى أن تحبه كل هذا الحب.

***

في يوم، كانت في بالكونة فندقها، فمرّ من تحت. شعرتْ بنبضات قلبها، وهي تتسارع. لحظات مرّتْ، ثم شعرتْ أن وجهه مألوف لديها. فأخذت تتساءل: هل رأته، في مكان ما، من قبل؟ تظنّ هكذا، على الأقلّ، لديها يقين، بأنها رأت وجهه. هل التقتْهُ في المكان الذي تلتقي به الرجال، على الدوام؟ أم رأته، في مكان آخر؟ وقفت صامتة أمام النافذة. أخرجت سيجارة، من العلبة، بأصابعها دون أن تنظر العلبة، سيجارة واحدة، اختبأت، في ركن، من العلبة. أخرجتْها، بصعوبة، بأصابعها. وضعتْها، في فمها. أخرجت الكبريت، وأشعلتْها. نفثت الدخان، في الهواء، وعادت، إلى سلسلة تفكيرها.

كانت تفكر - أحياناً - بصوت عال. عادة اكتسبتها من سنوات. كانت تتبعها؛ كي تتخلّص، من توتّرها. عندما تتكلّم، تشعر، بالراحة، ولا سيما الكلام، بصوت مسموع مع نفسها.

***

في اليوم التالي، استجمعت شجاعتها، وذهبتْ، تبحث عنه، في كل مكان: في الفندق، على البلاج، في المطاعم القريبة، من مركز المدينة. لم تكن صوفي تتخيّل أنه في هذه اللحظة، بالضبط، يبحث عنها. وهكذا حين وجدها سار باتجاهها، كان ينظر نحوها، وكانت تنظر نحوه. ومع أن صوفي قد بذلت قصارى جهدها، كما يبدو؛ لتجعل من هذه اللحظة لحظة مكتملة، كان هو أيضاً، كان يبذل قصارى جهده، من أجل أن يجعل من هذه اللحظة لحظة مميزة.

لا تعرف صوفي، إن كانت هي المرة الأولى التي يتحدث فيها أدريان مع امرأة، بشكل مباشر هكذا. وما كان هو يعرف إن كانت هي التي سمحت له بالكلام المفتوح، ومن أول وهلة. وهل هي المرة الأولى التي سمح فيها لرجل أن يتحدث هكذا؟ أم لا؟

التقيا، في منتصف المسافة. تمهّلتْ عندما اقترب منها. توقّف قبل أن يخطو الخطوات القريبة جداً منها. ابتسم لها، وهو يمدّ أصابعه، بلطف، في خصلات شعره. كان يمسك سيجارة، في اليد الأخرى، وضعها بين أصابعه دون أن يشعلها. حين وقف أمامها، انبسطت أساريره؛ لتتلاشى تجاعيد جبهته. رسمت ابتسامة جميلة، على شفتيها. التقيا وجهاً، لوجه. غير أنه ارتبك قبل أن يسلّم عليها. سألها:

- نحن التقينا، من قبل؟

- أظنّ رأيتكَ، في مكان ما...

- أعمل، في بروكسل.

- أوه، أنا - أيضاً - أعيش، في بروكسل، إذنْ؛ لا بد أننا التقينا.

هكذا التقيا، صوفي وأدريان، على رصيف البلاج.

قال لها إن الطقس جميل هذا اليوم، وهو يودّ أن يسير معها. لقد رأتْ

صوفي - في هذه الجملة - مدخلاً كلاسيكياً، من دون شكّ، المدخل الذي يحدّد بداية هذه الأمور غالباً، والتي ستكون، في حدّها الأدنى، فيما بعد. ولكنها كانت مقبولة، إذاً؛ يمكنهما إن كانا يحملان الرغبة ذاتها، بإدامة حديث، وربما حديث طويل بناء على هذه الجملة.

وهكذا وقفت صوفي، بانتظار ما يحمله أدريان، من جمل أخرى، إلا أنه تلعثم، بالكلمات. اضطرب، في البداية، واحمرّ وجهه. إذا وجد نفسه - فجأة - فارغاً تماماً. لقد شعر أنه لا يحمل أشياء كثيرة؛ ليقولها، إنما كان مندفعاً نحوها، وحسب. مندفعاً، من دون إرادة منه نحوها. دون أن يعرف لماذا. كان الموقف غير مريح، بالمرة، لذلك أخذت صوفي تبحث له، عن مخرج، لقد وجدتْ له مخرجاً، بلباقة. في بحر ثلاثين ثانية، جعلته يبتسم لها. لقد شعرتْ لحظتها أن عليها أن تتدارك الموقف، خوفاً من أن يهبط الحديث إلى أدنى مستوياته. وبالتالي، يخفق اللقاء، برمته. وهكذا اندفعت؛ كي تكمل الحديث معه. مشجّعة إياه؛ لأن ينطلق دفعة واحدة، وبطريقة لائقة وجميلة. وهكذا أخذت كلماته تندفع مستحثّة طاقة من العواطف والمشاعر الواضحة.

لقد قبلتْ تناول القهوة معه، وأفهمتْهُ أنها ليست، على عجلة، من أمرها. ووجد هو هذا الأمر، في غاية الروعة، في أن يتمكن من أن يقضي وقتاً مع امرأة، دخلت، بالكاد، للتو، في مجال جاذبيته.

***

في اليوم التالي، سارا، بمحاذاة السور عند رصيف البحر. كانت الأنوار باهتة أول الليل. أخذت الساحة المواجهة للبحر تُضاء بالمصابيح. المكان تشعّ منه رائحة البحر المهيّجة، جلسا على السور المنخفض المبني من الطوب البني، والمثلوم النهايات. بينما غاصت أقدامهما الحافيات، في الرمل الرطب.

أدركتْ يومها أنها ستعيش معه قصة حب. لا تعرف ما نوع هذه القصة، ولكنْ؛ هنالك - في القادم من الأيام - حكاية كبيرة. هذا ما نوّه اها به أيضاً. عندها شعرت أن عليها أن تهجم عليه، بقبلاتها الخفيفة، بشفاهها التي تتفتح مثل عقود الورد، وتغطّي وجهه، بشعرها.

لم يكن الشجر الكبير المتناثر من غير نظام قريباً من الساحل، وهو يهتز، بأطرافه، في الليل، يخفي جسديهما. كانا يتمدّدان على الرمل. سرعة يديها، وهي تخلع بنطلونها وكالسونها، كانت خاطفة، في الظلام.

- "هل أنت جادة؟" قال لها.

ضحكت منه:

- "هل أنت خائف...؟"

***

لقد عاشا أياماً جميلة، أيام حب حقيقية، ومن أول وهلة. كما لو كان كلاهما يبحث عن الآخر منذ زمن بعيد. لقد شعرتْ - هي - بالسعادة، بعمرها، لأول مرة منذ سنين عديدة. وهو - من جانبه - كما لو كان ينتظر طوال حياته امرأة مثلها.

بالرغم من غموضه، بالرغم من حياته غير العادية، إلا أنه حاول - قدر إمكانه - أن يخفي كل شيء عنها. ما عرفته عنه هو تعريف بسيط، بشخصيته. اسمه أدريان، يعمل مهندساً، في مطار زفنتان، في بروكسل، يعيش في شقة صغيرة، في أوكل. وُلد، في أوسلو، ويعيش، في ستوكهولم.

***

كان اليوم الأخير، في أوستنده، عاطفياً جداً، لقد غادرتْ صوفي الفندق قبله بيوم واحد. فأوصلها أدريان إلى محطة القطار، بسيارته.

حمل لها حقيبتها إلى متن القطار، وهبط سريعاً. هبط إلى الرصيف، بينما اتخذت - هي - مكانها لصق الزجاج؛ لكي تتمكّن من رؤيته. لقد شعرتْ بالاضطراب حين أوشك القطار أنْ يتحرّك. وفي الخارج على الرصيف، وقفَ هو يرنو بنظره إلى النافذة ملوّحاً بيده، وهو يبتسم. كانت ابتسامته مُشرقة، ابتسامة حبٍّ حقيقية. أما من جهة صوفي؛ فإنها لم ينتبها أي شكّ، في هذا الحب. كانت متأكدة منه، مع أنها لا تعرف من أين يأتيها هذا التأكيد.

لقد شعرتْ - وهي تغادر أوستنده إلى بروكسل - بأنها بدأت قصة حب غير عادية. ابتسامته لها ذلك اليوم مملوءة، بالأمل، ويشوبها شيء، من التصميم. من الصعب صياغة هذه المشاعر، بالكلمات، كان يتعذّر ذلك عليها، بالكلمات. لوّح لها، باليد، واسترخت - هي - في جلستها، على كرسي القطار. الصورة الأخيرة عنه لا تزايلها. شعره الأشقر القصير على الموضة الشائعة بين الشباب. بشرته المشرقة، التي تتبقّع بفعل أشعة الشمس، فتصبح برونزية. على العموم، فيه كل ما تحب في رجل أن يكون عليه.

***

حين عاد إدريان إلى بروكسل، اتصل بها مباشرة. من جانبها، لم تكن تحتمل الابتعاد عنه. صوفي المرأة ذات العينين الحداديتين، قررت - وهي في الثلاثين من عمرها - أن تجعل من حياتها مهمّة محددة: استسلام كاسح. وحياة تضحي بها، في سبيل هذا الشاب الذي تعرّفت عليه مؤخّراً. وتختار - بتصميم حاسم - لا رجعة فيه أن تكرّس نفسها جسداً وروحاً له.

لقد استعاضت عن الجميع بهذا الشاب الاسكندنافي، فهجرت الجميع، من أجله. من أجل هذا الشاب الذي لا يميل إلى التصنّع

والظاهر. شابّ وسيم، ينطوي على أسرار، تتعرّف عليها، بصعوبة بالغة، وشيئاً فشيئاً. غير أنها لم تكن متيقّنة، من حبه لها، لقد أخذ يمضي كل الوقت معها. وكان هذا مدعاة، لسرورها، كانت ترغب، بامتلاكه، من دون شك، إلا أنها كانت خائفة جداً أن يذبل حبه، بسرعة لها، وسرعان ما نازعتها الشكوك إزاءه. فقد خشيت - في البداية - أن تظهر له حبها الشديد؛ لئلا يزعجه ذلك. فتظاهرت له أنه لن يحوز منها إلا جزءاً قليلاً. ثم طلبت منه مرة ألا يلتقيا لمدة أسبوع كامل. إلا أنها منذ اليوم الأول لم تستطع النوم، رقدتْ رقاداً غير مريح بالمرة، شربت حبة منوم، إلا أنها لم تستطع النوم. وسرعان ما كلّمته، بالهاتف، وطلبت أن تراه، في اليوم التالي.

لم تتعرف صوفي - خلال هذه الفترة - على أشياء كثيرة، من حياته. كانت تعرّفت - بشكل جيد - على جسده. على طبيعته، على أفكاره، ثقافته، عاداته البسيطة، في المأكل والمشرب، وأشياء أخرى. ولكنها لم تتعرّف - حقيقة - على حكايته. وهو لم يتحدث لها، بأي شيء، عن تاريخه. هكذا كأنما هو منبثق، من تحت الأرض. لم يتحدث كثيراً، عن عائلته. لم يقل لها لمَ ترك ستوكهولم، وجاء إلى بروكسل. كان قد تحدث - بشكل سطحي - عن مرض والده. ولكنه لم يتحدث لها، عن جنونه وانتحاره في عيد ميلاده.

٢٢ تمّوز

بعد مقتل هذه المرأة، لم أعد كما كنتُ. أخذتُ أنظر إلى الأشياء المحيطة بي نظرة جديدة. ولا سيما إلى عائلتي التي كانت منخرطة، في عملها مع المسلّحين. حتى نظرتي لوالدي، لم تعد كما كانت، على الإطلاق. فقد أخذتْ علاقتي به تتعقّد شيئاً فشيئاً. فهو لم يكن رجلاً عادياً أبداً. بل كان أكثر الرجال إثارة للخوف، في القرية التي كنا نعيش فيها. لم يستطع أحد أن ينظر - أبداً - في عينيه. كانت له سحنة غائمة، كما لو أن ظلال أوراق الشجر تغطّيها. إنها ظلال سنوات طويلة، من العيش، في حقد، وفي غضب.

كم كان رهيباً! إذ كان أعتى المسلّحين يكلّمه، بتذلّل. ولهذا؛ فوجئتُ حين سمعتُ - يوماً - صوته ناعماً ومرخّماً حين تكلّم مع مَن هو أعلى منه رتبة في التنظيم. فشعرت أن هؤلاء الرجال عبارة عن سلسلة من الرعب. طبقات من المخيفين واحدة تلو الأخرى.

أما في عائلتي؛ فكانت أمي أسفل هذه الطبقات. حين تتكلم مع أبي، فإنها تدمدم، بهمهمة غير مفهومة. صوتها يأتيك خفيضاً، كما لو كان قادماً من مكان ناء. إن يطلب منها شيئاً فإنها لن تقول له سوى:

"تحت أمرك!"

رأيتها مرة، وهي تقف أمامه حاملة الفانوس؛ لينير بشرته القاتمة وعينيه اللامعتين كعيني حيوان. كانت تقف أمام أكثر الرجال وحشية في العالم.

رجل يُطاع، لا يقال له "لا" أبداً.

لقد أمضت أمي حياتها باحثة في قاموسها عن أكثر الكلمات ملاءمة لمخاطبته. وجعلته إذا ما قامت من أمامه، فإنه لن يزيح نظره عن مؤخرتها. أو عن نهديها الصغيرتين البارزتين. لقد استبعدتْ من ذهنها جميع الكلمات الجافّة، واستخدمت معه كل الكلمات الشديدة التنميق. ولم تستخدم معه الكلمات الباهتة، والتي تقدم وعوداً باطلة وخاوية. كل مهارتها كانت ترتكز على قدرتها على ملامسة تفكيره وحسّه، بصورة صائبة. مستخدمة جميع المعارف لإسعاده حتى تلك التي اشترتها، بآلامها، ومعاناتها.

مع ذلك، كان الخوف يشلّها. نعم، كانت - على الدوام - خائفة. سألتها مرة:

- " لماذا أنت خائفة، يا أمي؟"

- " لأني امرأة".

هكذا كان جوابها.

- "لماذا تخاف المرأة؟"

- "لا أعرف ... هي تخاف..".

- "والرجل، ألا يخاف؟"

- "هو يخاف أيضاً، ولكنْ؛ من أشياء مختلفة".

حسب أمي، تخاف المرأة، من كل شيء، يحيط بها. هي تخاف حينما تسير في الطريق ليلاً، وتسمع خطوات متسارعة خلفها. تخاف من صوت الأحذية التي ترنّ على الرصيف خلفها، تتخيل أنها تسرع، إن هي أسرعت، وتبطئ، إن هي أبطأت. تخاف من عيون أشبه بعيون الحيوانات، تراقبها،

وتترصّدها. المرأة تخاف من وجيب قلبها، وهي تسير، فتتخيّل أشياء هامدة، تتحرك. وتسمع أصواتٍ، من كل مكان.

- "إنه الخوف من الرجال، إذن؟"

أمي لا تجيب.

***

كانت وجوه الرجال المحيطين بنا قاسية مثل المعدن، وعيونهم صلفة مثل الحجر. كنتُ أخاف عيونهم حينما تلفت لي وجوههم الصنمية الجامدة. كنتُ أخاف من عبوسهم الذي يُحدث، في داخلي، ارتجافاً غامضاً. أشعر أنهم مؤهّلون؛ لأن يمدوا أيديهم، ويلمسوني، وأخاف أن تملأ روحي رائحتهم. حين أراهم في الممر، أو في النزل الذي كنا نعمل فيه، أتراجع إلى الوراء خائفة. تُرعبني أصواتهم، وهم يقرؤون - بصوت غاضب - كتباً مقدسة. كنتُ أخشى لحاهم الطويلة التي لا تستطيع الريح أن تحركها... فأعود راكضة لأبي، راكضة إلى حضنه! كنتُ أريد أن ألمس وجهه! وجهه العتيق القريب من وجهي، والذي لا أرى فيه سوى ابتسامته العذبة. ورائحته التي أعرفها، وأنا مغمضة العينين، في حضنه، وكنتُ أشمّها منبعثة، من لحيته. من صدره. من وجوده، بأسره! غير أن هذه الرائحة وهذه الابتسامة قد اختفتا تماماً، من وجهه، ومن جسده بعد ظهور المسلّحين المتشدّدين، في مدينتنا.

لقد تغيّر أبي. ومع أني كنت أراه عملاقاً في قوته، وعنفه، وسلطته، وغضبه القاهر، حتى قبل ظهور المسلّحين في حياتنا. ولكن ذلك، بسبب غضبه، ولا شيء آخر. لم يعترض على أمي، وهي ترعى كل مَن تراه بحنانها الذي يشبه السياط اللاهبة. ولكن والدي - على برودته معنا، قبل ظهور المسلّحين - كان يعطيني شيئاً، من قوته. أما بعد ذلك؛ فشعرتُ بتغيّره تغيّراً كاملاً. لم أعد أشعر، بهذه القوة لي. أصبحت أشعر أن قوته أصبحتْ

عليّ. أصبحتُ أخشى من قوته التي شملت، بذعرها، كل المحيطين به.

مع أني لم أحقد عليه، بسبب ذلك. لا لأنه أبي، لا. ولكنْ؛ ربما لأني كنتُ أشعر بالأسباب التي دفعته أن يفعل ذلك. لم يقل هو عنها شيئاً أبداً. فهو رجل، لا يقدم تفسيرات، لأحد، أعتاد أن يتّخذ قراراته، بنفسه، واعتاد أن يُصدر الأوامر. ولكني عرفت ذلك حدساً ومعاينةً. فقد كان شخصاً مهملاً، بسبب فقره، أراد أن يصبح مهمّاً، والأهمية تأتي إمّا من القوة، أو من الثراء، في المكان الذي كنا نحيا فيه. وهكذا؛ بالتحاقه، بالمسلّحين، أصبح رجلاً مهمّاً. وقياس أهميته هو أنه لم يعد أحد يتجرأ على النظر، في عينيه. وحتى الرجال المسلّحين أنفسهم كانوا يحيّونه وهم يطأطئون رؤوسهم. وكنتُ أتساءل على الدوام، إن كانت سعادته تنبع من هذا الذعر الذي أصبح يُحدثه، في كل مكان، يحلّ فيه.

***

الفقر هو السبب. هذا من دون شك. أقول هذا، وأنا مطمئنّة. شيء واضح، لا يحتاج، إلى أي إثبات. ولكنْ؛ هنالك قصة أخرى أيضاً. ففقر والدي لم يكن طبيعياً، أي أنه لم يولد فقيراً أبداً. إنما وُلد في عائلة موسرة وثرية، عاشت في مدينة بعيدة جداً عن مدينتنا. فجدي، الذي لم أره أبداً، حاز، على ثروة كبيرة، كميراث من والده الذي كان أحد كبار الملاك في المنطقة. وبما أنه أكبر شقيقاته الثلاث، فقد استولى على ثرواتهنّ أيضاً. أمر شائع في هذه المناطق من العالم، أن يحوز الرجل على ثروات شقيقاته أيضاً. ولكي تكتمل ملكيته تماماً، رفض تزويجهنّ؛ لئلا يطالبنه، بالإرث، فيما بعد. وبقينَ في داره مثل العبيد، يعملن، ويسهرن، على راحته.

كانت الأراضي التي حصل عليها جدي تصل حتى حدود المدينة الكبيرة، ولديه العديد من المزارعين ذلك الوقت. وفضلاً عن ثروته الريفية هذه، كانت له في المدينة مصبغة. قالت لي والدتي مرة إنه تزوج من

ابنة إقطاعي في القرية، وهي فتاة قبيحة جداً، أجبره والده، على الزواج منها. أنجبت له خمسة أولاد، كان والدي أكبرهم. إلا أن جدي لم يستهوه البقاء طوال الوقت مع زوجته القبيحة وأولاده، فقد انغمس في حياة القمار والدعارة والسفر الدائم. بل قالت لي أمي إن جدي قد أنجب ثلاثة أولاد اخرين، من ثلاث نساء أخريات، تركهنّ، في مدن مختلفة. فقد كان يسافر كثيراً. كلما سافر إلى مكان، كان يتزوج، من امرأة، ثم يتركها، من دون أن يحتفظ بأية ذكرى منها. لأن قلبه كان قاسياً، لا يعرف الحب، ولا الرحمة. إلا مرة واحدة، وكان ذلك مع عاهرة صغيرة السن، هي الوحيدة التي لم يستطع استبعادها، من ذاكرته نهائياً.

يقال إن جدي تعرّف على هذه الشابة، في منزل للهو، في شمال البلاد. لقد نام معها ليلة واحدة، ثم عاد إلى قريته، بسبب موعد له مع أحد التجّار. إلا أنها بقيت ملتصقة، بعقله مثل كابوس متسلّط. فبعد هذه الليلة، واللقاء القصير معها، لم يكن ممكناً نسيانها. وبعد أن عاد إلى منزله وزوجته القبيحة وأولاده الخمسة جنّ جنونه. لم يستطع البقاء والصمود، من دونها. فقرّر العودة إليها، وجلبها معه حتى لو كلّفه هذا الأمر كلّ ثروته. إلا أنه حين ذهب هناك، وجدها قد غادرت هذا المكان تماماً. فقد كانت عاهرة ريفية شابة، تتنقل بين المدن بحثاً عن رزقها.

لم يستسلم جدي، للأمر، وهكذا أخذ يبحث عنها. إلا أن بحثه كان من دون جدوى. لم يعثر على أيّ أثر منها، وبدلاً عن ذلك، أخذ يستسلم للإشاعات المتضاربة حولها. فكل شخص يلتقيه يقول له إنه رآها في مكان ما، فيسافر في الحال إلى ذلك المكان، حتى أنهكه اليأس من البحث والتجوال. لقد بحث عنها في عشرين مدينة، في شمال البلاد وجنوبها. ولم يعثر عليها. وفي إحدى المرات، وجد مشعوذاً، قيل له إنه الوحيد الذي يمكنه أن يكشف له عن مكانها الحقيقي. فتشبّث، بقميصه، بخشوع عبد، طلب منه أن يخلّصه من هذه الورطة، أو أن يجد له هذه

الصبية. فاستغلّ المشعوذ هذا العاشق المجنون، وابتزه. فقد أخذ يقدم له المعلومات عنها لقاء مبالغ كبيرة، من المال، وكان يسافر معه، من مكان، إلى مكان. عشرة أعوام، وهو يبحث عن هذه العاهرة الصبية ذات الفستان الأصفر وعينيها الباسمتين، دون جدوى. لقد وجد هذا المشعوذ بهذا العاشق المخبول فرصة، يجب استغلالها، بل إن عدم استغلالها، سيكون ضرباً من الغباء، وهكذا، فقد جرده من آخر فلس، حتى مات.

***

هكذا وجد والدي نفسه مع أشقائه مجرّدين من ثروتهم. وجدوا أنفسهم مع أمهم فقراء بائسين، من دون ثروة، تكفل لهم عيشهم، من دون الأراضي الشاسعة التي كانت لهم، ومن دون المصبغة التي كائنة، في المدينة، فيما مضى.

حينها، هاجر والدي إلى المدينة؛ كي يعمل، ويرسل لأمه وأشقائه وشقيقاته بعضاً من المال، إلا أنه لم يجد لنفسه سوى عمل حقير، في المصبغة ذاتها التي كان يملكها والده. أخذ يعمل، بجد، سنوات، من دون توقّف، حتى تزوج من امرأة، كان والدها يعمل معه أيضاً في المصبغة. هكذا عاش والدي مع زوجته التي أنجب منها سبعة أولاد، في المدينة البعيدة، ويرسل - لأشقّائه وشقيقاته - المال. ولكنه شعر أن أعباءه تفاقمت. أشقّاؤه، من فقر، إلى فقر. حياة أولاده وزوجته لا تتقدم أبداً. كما شعر أنه محبوس طوال يومه، في العمل، في هذه المصبغة التي هي أشبه، بالقبو. قال مرة لوالدتي إنها أشبه بردهة فسيحة رطبة ومظلمة، كان يتركها في المساء؛ ليذهب إلى منزله الذي يقع في مكان قريب منها. منزل صغير مؤثّث، ببعض الأشياء التافهة، وبفرشة، من التبن. لم يتوفّر لوالدي أن يقدم لزوجته، ولا لأبنائه، أي شيء. مع أن الوهم في أن يصبح ثرياً، لم يفارقه أبداً. كان يتخيل أن يوماً ما سيصبح منزله كبيراً، سترتدي زوجته أجمل الثياب، سيُنار المنزل، بالثريات، ويُفرش،

بالسجاجيد السميكة. إلى أن جاء اليوم الذي شعر فيه، بيأس قاتل. شعر باستحالة أن يتحقّق هذا الحلم أبداً. ربما لأنه كان ملولاً. ربما لأنه سريع الغضب، لا يصبر؛ كي يحصل على الأشياء التي يحتاجها. كان يريد كل شيء سريعاً وجاهزاً. وهكذا، لم يطق الحياة هناك. شعر أنه - بأولاده السبعة - لا يمكنه أن يحقّق حلمه، بل سيكون هذا هو القيد الذي يكبّله إلى الأبد. فهرب من زوجته وأولاده سراً.

جاء والدي إلى مدينتنا. وأخذ يعمل، في متجرة قرب السوق. السوق ذاته الذي كانت أمي تتسوّق حاجياتها منه. وفي يوم، رأى أمي عائدة، من المدينة، إلى القرية، فتبعها. تبعها حتى دخلت، في دارها. فجاء بعد يومين، وطلب يدها، دون أن يذكر لهم أي شيء عن ماضيه. كانت أمي يتيمة، والدتها توفّيت عند ولادتها، وأشقاؤها اثنان، قتلا في الحرب، وسافر ثالث دون عودة. ولم يبق لها سوى والدها العجوز الذي خشي أن يموت، ويتركها وحيدة. فوافق على زواجها منه، على الرغم من أنه يكبرها بعشرين عاماً.

***

لم تكن حياة والدي مختلفة كثيراً عن حياته، فيما مضى. لم يستطع جمع الثروة التي حلم بها. وربما وفّر له هذا الهروب هو ألا يكون مسؤولاً عن زوجة وسبعة أولاد، فقط. لكنه بقي فقيراً، كما كان. الشيء الذي تغيّر هو أن والدي قلب غضبه نحو الحكومة وموظّفيها. نحو الحكومة، بسبب إهمالها له. ونحو الموظّفين، بسبب كبريائهم على أبناء القرى واستعلائهم. كما أن الفقر واليأس جعلا والدي، من دون أية عاطفة إزاء الآخرين. ولم تكن لديه أية مشاعر إزاء أي شخص من المحيطين به.

وفي يوم، حضر أحد الموظّفين الحكوميين، من المدينة، إلى قريتنا. فما إن رآه والدي حتى أخذ يشتم، ويزجر. قال له والدي إنهم يأخذون

الرواتب العالية التي لا يستحقونها، وإنهم أبناء عاهرات، يكرهون الشرفاء الذين من أمثاله. لم يرقْ هذا الكلام للموظّف المعتدّ كثيراً بنفسه أبداً، فأراد أن يصفع والدي. إلا أن والدي الذي كان بثياب المنزل، هجم عليه مثل الثور، وطرحه أرضاً. ومن سوء حظ والدي أن الموظّف الحكومي لم يكن جباناً، فقد أمسك بخناق والدي، وانقلب عليه، وأخذ كلاهما يتقلّبان على الأرض، ويترنّحان مثل قطعة اللحم التي تقلب في الطاوة.

كنت أنظرهما، من وراء نافذة منزلنا. لقد حبستُ أنفاسي، وأنا أرقب هذا المشهد. كانا يتدحرجان على التراب، ويمزّق أحدهما ملابس الآخر. لقد رأيتُ أعضاء أبي التناسلية، وقد خرجت إلى العلن بعد أن تمزّقت ملابسه. والمشكلة أنهما لم يتوقّفا حتى أصبحا عاريين تماماً، معفّرين، بالدم والتراب. أشعل هذا المشهد عاصفة، من الضحك عند الجيران، لم ينسها أبي لهم أبداً، لقد أضمرها لهم، في نفسه. ثم اصطادهم، فيما بعد، واحداً بعد آخر، أي بعد التحاقه بالمسلّحين. لقد اتّهمهم، بالتقاعس، عن الجهاد ضد الحكومة الكافرة. ومع أن والدي ذلك الوقت لم يكن متديّناً، وكان يسكر بين وقت وآخر، ولكن حقده عليهم لم يتوقّف أبداً.

***

ذلك الوقت أصبحت مراهقةً! كان شعوري الأول نحو جسدي وضخامته هو الخوف والكراهية. لقد جلب الأنظار نحوي. كل نظرات الرجال صارت تصوّب نحو صدري! إنه لحظة الشعور الأولى بأن جسدي ينمو، ويشتهي، ويرغب خارج قدرتي، وسيطرتي! كما أنه هو الذي يجذب النظرات، والعيون نحوي. لقد أصبح مشتهى ومرغوباً رغماً عني. كنت قبلها مختبئة، متوارية عن الأنظار، بطفولتي! فجأة، صارت العيون، كل عيون الرجال تراقبني. كل العيون تصوب إلى صدري ومؤخّرتي.

هكذا كنتُ أشعر - تلك الأيام - بنفسي. حتى جاء اليوم الذي تكلّم فيه والدي معي.

دخل أبي، إلى الحجرة، وكنتُ ألعب، بدمية، في يدي، ومن دون أن ينظر نحوي، ناداني باسمي. انتبهتُ له. طلب مني أن أتبعه إلى الحجرة الثانية. نهضتُ من مكاني؛ كي أذهب وراءه، فأوقفتني أمي. أشارت لي أن أرتدي النقاب أمامه.

- "النقابِ أمام أبي؟" قلت لها مستغربة.

أشارت لي بعينيها ألّا أعترض! إلا أني رفضتُ. مسكتني، من يدي، ونظرتْ لي، بوجهها المتوسّل. قلتُ لها:

- "حلّي يدك عني".

دخلتُ، من دون حجاب، إلى الحجرة التي دخلها والدي، وجلست على الأريكة التي تقابله. وحين رفعتُ رأسي؛ كي أسمع منه، ومن أول نظرة له، شعرتُ، باختفاء نظرات الأب، من عينيه. شعرتُ، باختفاء تلك النظرة الحنونة التي كان يغدقها بعض الأحيان نحوي! لا أعرف كيف؟! شعرتُ تلك اللحظة أنا أيضاً خائفة بعض الشيء، من أبي ... لحظات من الصمت، وهو ينظر، إلى الحائط عابساً. لا ينظر نحوي. ثم جاء صوته عميقاً، كأنه قادم، من قعر بئر.

- "لِمَ لمْ ترتد النقاب أمامي؟"

صَمَتُّ. لم يكن لدي أية كلمة؛ كي أقولها. توقّفتُ - تماماً - عن الشعور، بأني أمام أبي. لحظات من الصمت، تفصل بيننا، ثم أخذ يتكلم. لقد تكلم، بكلام، لم أفهم منه شيئاً. لكني شعرتُ أنه يريد أن يحدّثني، عن سر خطير، يهدّده. شيء، لم تجد أمي ذاتها الجرأة، على أن تحدّثني به.

كان هنالك شابّ لطيف، من جيراننا، كنتُ أنظر له. وشعرتُ بأني واقعة في حبه ... لم يكلّمني، ولم أكلّمه، ولكني حلمت مرات ومرات - بيني وبين نفسي - أني أتكلّم معه ... لم أفعل أي شيء، كنتُ أتظاهر بألا أنظر إليه، وهو يمرّ، من باب بيتنا. لم يكن الحب مسموحاً لي.

كان مغرياً لي أن أسأل أمي:

- " لمَ غير مسموح لي الحب، يا أمي؟"

أمي لا تجيب. ولن تجيب. كانت - على الدوام - بمزاج سيىء. عندما أكلمها، لا تجيب. لا تريد أن تجرحني، ولا تريد أن تقول الحقيقة. الشيء الوحيد الذي كنا نؤديه معاً هي هذه الأعمال الخدمية. ما خلا هذا الشيء، فإن أمي تقوم، بكل شيء، وهي صامتة. حزينة وصامتة. طائعة ومنشغلة، بتفادي المشاكل مع الآخرين. وهكذا وجدتُ النقطة التي ينبع منها خوف والدي. وربما مصدر لذته أيضاً. على الأقلّ، تلك اللحظة، وهو منهمك بهذا الحديث معي. فحرمانه علمه اكتشاف متعة مزدوجة، من الخوف، من فقدانه لشرفه، ومن تنبيهي، للحفاظ عليه.

في ذلك الوقت، شعرتُ، للمرة الأولى، بما كان يحذّرني منه، شعرتُ، بالشيء الذي فتح عيني البريئتين، على اتساعهما، على هذا السر الخطير الذي أراد أن ينقله لي: "المرأة هي بكارتها".

إذنْ؛ هذه هي التحذيرات المحرّمة التي أراد أبي أن ينقلها لي هذا اليوم، وهو صامت وعابس. هذا هو السرّ الذي جعل أمي تريدني أن أرتدي النقاب أمامه، وهو يجلس، بشكل ثابت ومغتمّ. وهو جالس، بملابسه السود، بعمامته التي وضعها، على رأسه، بلحيته الكثّة التي تأكل نصف وجهه، وبيده التي تمسك المسبحة، بحركة ميكانيكية ثابتة.

لم أنطق أية كلمة أمامه. فأضاف:"إن فقدتْ بكارتها، فقدتْ حياتها". تهديد. لكنْ: الحق أقول إني شعرتُ تلك اللحظة، بالرغم من حداثة سنّي، أن والدي لا يتحدث عن غشاء بين فخذي، إنما يتحدث عن جوهرة موجودة هناك. عن ماسة، وضعها الله لاختبارنا. وليس هنالك سوى رجل واحد، في الكون، له الحقّ، في أن يقتلعها، لنفسه. وأن يحصل عليها وحده. علينا ألا نفقدها قبل مجيئه، وإلا سنفقد الأرض، كما أننا سنفقد السماء أيضاً.

- "هل هذا هو العدل الإلهي، يا أبي؟ وماذا سيفقد الرجل؟"

- "لا شيء".

- "كيف؟"

- "هو رجل".

- "رجل؟"

ثم استدرك والدي، وقال :"ولكننا سنفقد شرفنا".

- " لكنه جسدي ...".

- "أنت لا تملكينه، ليس لك!"

- " جسدي ليس لي؟"

عيناه غائرتان مثل نقبين في الأرض. وما زالت يده تكرّ على سبحته. إلا أني شعرتُ تلك اللحظة بأنه يسحقني. فجسدي الذي لا يؤلم أحداً غيري، يتبخّر. ويتحوّل إلى شرف الرجال المحيطين بي! كنتُ أنظر نحوه، بينما هو جامد، من دون حركة، من دون عاطفة، ينظر أمامه. وأنا أفكّر، بجسدي الذي تحوّل إلى غيري، الجسد الذي إن لم أحافظ عليه، سأسحق بأقدام الرجال، ثمناً وعقاباً، لتدنيسه! لم يسأل أبي نفسه كيف يمكن لشرف الرجال أن يكون بين فخذي، أُخرّي وأبولُ عليه كلّ يوم. لا يهمّ! ولكنْ؛ عليّ أن لا أفقده. عليّ أن أحافظ على الماسة البرّاقة التي سيستخرجها الفارس، بقضيبه.

لقد أراد والدي، ربما، أن يفرض بهذا الأمر سطوته على كل المحيطين به. هذه السطوة، فرضها الايمان، على أبي. فكل الحيوانات يمكنها أن تقتل غيرها، من أجل البقاء، إلا الإنسان، فهو الوحيد الذي يمكنه أن يقتل، من أجل إيمانه، بفكرة. أو من أجل إيمانه، بإله. الإنسان هو الوحيد الذي

يمكنه أن يقتل الآخرين؛ لأنهم يؤمنون بأفكار، لا يؤمن بها، أو لأن عليهم أن يؤمنوا، بأفكار، يؤمن ويعتقد هو بها. إنها مهزلة! اختفى أبي، بسببها. بسبب إيمانه، بفكرة، لا يؤمن بها الآخرون، فتوجب قتلهم. ارتدى في يوم حزامه الناسف، واختفى من حياتنا إلى الأبد... عشرات الحيوات اختفت، باختفائه، دماراً هائلاً أحدثه، بموته! لقد انتظرته، في الأيام التالية الحزينة، لقد انتظرته، مثلما انتظر آخرون آباءهم وأمهاتهم، كان أخفاهم، باختفائه.

***

III

عادت صوفي إلى شقّتها الواقعة في السابلون. نافذة كبيرة، وستارة لونها أبيض، عليها رسوم طيور مهاجرة محلّقة، في سماء ملوّنة، بالأصفر، والأزرق. أثاث بسيط، أريكة حمراء، خزانة ملابس خشبية، ومرآة، أمامها طاولة، تحمل أدوات الماكياج. على الجدار، صورة أدريان، شابٌ، في الثلاثين، من عمره. شعر قصير، امتزجت شقرته، بلون أحمر. عينان زرقاوان لامعتان، جسم نحيل، ببذلة رسمية، وربطة عنق، يرتدي نظّارة، إطارها أسود راق.

تذكّرتْ كيف كان أدريان يأتي في الأيام الماضية إليها؛ كي ينام، في سريرها نوم الطفل. ينام، بهدوء، دون أن يعكر نومه شيء. كانت تستغرب قدرته على الاستسلام الكامل في سريرها، وقد أخبرها عن هذا الأمر مرةً. قال لها أنه لا ينام بشكل جيد في سريره، هنالك آلاف الأشياء التي تشغله وتربكه. ولكنه حين يأتي إليها يشعر بالراحة التامة، يترك كل شيء يخصه خلفه. يرمي كل شيء وراءه، ويأتي كي يستسلم استسلاماً كاملاً في فراشها.

***

أشعلتْ مصباح الصالة، فانتشر النور مثل غبار، على الأثاث. بعض ملابسه ماتزال في مكانها، موضوعة - دون انتظام - على الكنبة الجلدية السوداء. معطفه ما يزال مرمياً على الكرسي المقابل للنافذة. يحمل رائحة جسده. أغلقت الشرفة؛ حيث الستائر ارتفعت، بفعل هبّة ريح عالية.

أخذتْ قهوتها، وجلست؛ لتتصفّح بعض صورهما التي التقطاها معاً خلال عام، من علاقتهما.

نظرت صوفي، بصمت وسكون. كان شعاع الغروب يتسلل إلى الحجرة، إنها شمس بروكسل الخفيفة، وهي تزول، وتختفي. هذا المشهد ذكّرها، ببحيرتي جنيف وزيوريخ الأوربيتين الكبيرتين اللتين زارتهما معه، في العام الماضي؛ حيث وقفا لمراقبة الشمس، وهي تختفي وراء الأفق. ومن بعد ذلك، أخذ الشارع يغرق شيئاً فشيئاً، في الظلام، ما خلا أنوار السيارات. وأخيراً، تسامت وراء قطاعات المتنزه المقسّمة إلى مربّعات خضراء العمارات الصغيرة والكبيرة التي تشمخ - بقوة سحرية - نحو السماء؛ حيث تسبح الغيوم الندية التي تتصبّب، بالحرارة. أخذ الليل يزحف، وهو يحجب وجه المدينة الذي رأته خلال النهار مطبوعاً على وجوه البشر. ورأتْ في الجمال الكسول للأشجار جوّ أوربا الذي تمتزج فيه البرودة، بالمعجزة.

***

هذا العام، احتفل أدريان معها في يوم عيد ميلاده. قرّرا الذهاب، إلى حفلة موسيقية، ومطعم، ومن ثم؛ العودة، إلى المنزل. قال لها أن تأتي هذه الليل؛ كي تنام عنده، في شقّته في حي أوكل الذي يقع إلى الجنوب من مدينة بروكسل.

لقد أمضيا سهرة جميلة في مطعم راق في شارع لويز. استمتعا بالموسيقى ورقصا، وحين عادا كانا مخمورين قليلاً.

صعدت سيارته. قبلته قبل أن تغلق الباب. رأت شيئا غريباً. أدريان لم يكن مبتهجاً أبداً. لم تبدُ عليه علامات السعادة، ولا أمارات الفرح. كان قلقاً أيضاً. شيء ما يشغله. هكذا حدستْ، أو قرأتْ - بالأحرى - انفعالاته ومشاعره، في هذه الليلة، ولذلك، سألته:

- "لمَ تبدو حزيناً؟"

- "أنا ... أبداً..." هو ينكر دائماً، هذه عادته، ليست المرة الأولى التي ينكر ما تقوله صوفي له، ولكنْ؛ بعد دقائق، يعترف لها، بالحقيقة.

- "اليوم عيد ميلادك، ألا ينبغي أن تكون سعيداً؟ أعرف أن والدك انتحر، في يوم عيد ميلادك، وأنت طفل، ولكن هذا لا يستدعي أن تحزن طوال عمرك".

صمت صمتاً مطبقاً.

لم تكن المرة الأولى التي تواجهه بها صوفي، غير أنه يتحصّن، بالصمت. ينسحب إلى داخله، حتى يبدو عليها - في أحيان كثيرة، بالصعوبة بمكان - إعادته إلى الحالة الأولى التي كان عليها.

عادا إلى المنزل. كانت صوفي قلقة أيضاً، وربما كان قلقها أكثر حدة، وأكثر كثافة من قلقه. وكانت تدرك أهمية هذا اليوم، في علاقتهما، لا، بل كانت تدرك ثقل هذا اليوم - أيضاً - في حياته. كانت تتفهّمه، ليس من السهل أن تكون ثلاث مناسبات مهمّة في يوم واحد: يوم ميلاده، يوم تعارفهما في أوستنده، وذكرى انتحار والده. هذه الأشياء العاصفة كلها حدثت، في يوم واحد. فلا بد أن تُربكه. هو شخص غير قادر على إزاحة التاريخ الثقيل الذي مرّ به، من حياته. غير قادر أن يكون غير آبه به. ومن جهة أخرى، كان يريد أن يتصرف ويشعر ويعيش طبيعياً، أو أن يتصرف معها، بشكل تلقائي، على الرغم من تزاحم الأحداث ومأساويتها.

كان قلقه - مع ذلك - مبالغاً به، أكثر حدّة من كل مرة، وكان ذلك، لسبب، لا تعرفه. لم يكن الأمر يتعلّق، بالمناسبة فقط، هكذا شعرتْ. إنما، لسبب آخر، بالكاد، تتعرف عليه. لكنها مصمّمة أن تعرفه. شيء يحرّكها لمعرفة هذا السرّ، هذا اللغز الذي يجعله قلقاً، في هذا اليوم، كما كان ذلك في العام الماضي أثناء تعارفهما.

مدّتْ يدها، وفتحتْ زر الفستان، من الخلف، فسقط على الأرض،

لحاله. خلعتْ ستيانها، ورمته على الكرسي. مشتْ حافية على البلاط، ووصلت إلى الطاولة، تناولتْ علبة السجائر. تناولتْ واحدة، وأشعلتها، بينما دخل هو إلى الحمام.

أخذت تدخّن أمام الشرفة. شيء ما على الطاولة لفت انتباهها. كانت بطاقة معايدة وصورة فوتوغرافية، في ظرفين مفتوحين قرب كتاب صغير. ذهبت لاإرادياً نحوهما، رفعت البطاقة. كانت صورة لطفلة، تلعب في الحقل، وهي مبتهجة. قلبت البطاقة، وقرأت الكلمات التالية:

بابا عيد ميلاد سعيد،

كل عام، وأنت بخير،

هذا العام الثاني الذي تقضيه بعيداً عنا، ماما تتماثل للشفاء.

تعال، أنا أحبك.

سالي.

ستوكهولم

١٧ تمّوز

قرأتْها مرتين، وهي مصدومة. صورة فوتوغرافية لابنته أيضاً. فتاة صغيرة الجسم. ساقاها جميلتان. ترتدي بنطلوناً قصيراً، وقميصاً أزرق. عيناها زرقاوان حالمتان شبيهتان بعيني والدها. على وجهها ابتسامة جميلة.

أدريان متزوج، إذنْ!! هذا ما كان يخفيه. متزوج، وله طفلة، اسمها سالي. لم يذكر لها هذا الأمر أبداً.

لمَ خبأ عنها أمراً كهذا الأمر؟! هل من المعقول أنه يحبها، كما يدعي، ويخفي عنها أنه متزوج، وله طفلة، تعيش، في ستوكهولم؟! لماذا يخبّئ

هذا الرجل كل شيء عنها؟ لمَ هي على علاقة به طوال عام كامل، وكل يوم تكتشف فيه شيئاً جديداً، شيئاً لم تكن تعرفه من قبل؟! ما الذي يجعله يخبّئ عنها كل هذه الأشياء المهمة التي لا يمكن لعاشقين مهما كانا يخبّئانها عن بعضهما؟! إنه أمر في غاية الأهمية، وليس أمراً عابراً؛ كي يخفيه. لمَ هو هكذا دائماً؟! ما هو السرّ الذي وراء هذا الرجل الذي تعرّفت عليه قبل عام، في فندق صغير، في أوستنده، وأصبحت بينهما علاقة حب عاصفة؟! إنه حب، وليس علاقة عابرة. حب حقيقي، لا يقبل الشك. ولكنها تشعر - مع ذلك - أنه غريب عنها. شخص خائف - على الدوام - من ماضيه، ومرتبك. كل ما فعله في حياته يثير الريبة والشك. يراوغ في كل شيء. شخص كبير، لكنه مثل طفل. ما إن تواجهه بحقيقة من الحقائق حتى يبدأ يبكي، وهو يرتجف. أنا خائف، أنا خائف ... ذاكرتي ترهقني ... والدي انتحر، في يوم ميلادي ... أنا خائف أنا خائف ...

- "خائف من ماذا ...؟"

لا يجيب.

إنه خائف فقط. إنه غير قادر على قول أي شيء. يخفي على الدوام حياته، كما لو أنه يخفي يداً مجدوعة، أو قدماً مبتورة، إنه يخفي حياته الماضية مثل عاهة.

***

تذكّرت - وهي جالسة - كيف بدا لها، في بداية تعارفهما، على أنه شابّ اسكندنافي. شقرته، وزرقة عينيه الصافيتين، تُثبتان - دون أدنى شك - أنه من بلدان الشمال. لكنه - في الواقع - لم يكن كذلك مائة، في المائة. بعد أشهر من علاقتهما، اكتشفت، وبالصدفة المحضة، أنه نصف اسكندنافي، ونصف لبناني.

كان اسم عائلته كافياً لأن يردّها إلى أصله العربي. كان قد نسي بطاقة هويته على الطاولة مع مجموعة من أغراضه. مفاتيحه، قدّاحته. علبة السجائر، علكة، وورق كلينكس.

رفعت صوفي بطاقة الهوية، وقرأت:

Adrien Jabbour

فجأة، أحالها الاسم إلى اللغة العربية: جبّور! لم لا يكون جبّور؟!

***

في البداية، أنكر ذلك، قال لها إنه اسم اسكندنافي، وبالصدفة أن يكون هنالك اسم عربي مشابهاً له. غير أن الشكّ لم يتركها. أرادت أن تتحقّق من وجود اسم جبور كعائلة اسكندنافية، نرويجية على نحو محدّد. قضت يومين، وهي تبحث على مواقع الإنترنيت في أسماء العائلات الاسكندنافية، إلا أنها لم تجد منها ما يشير إلى هذا الاسم أبداً، إنما هو على الأرجح اسم جبّور العربي.

واجهته في اليوم التالي، بقوة.

- "اسم عائلتك اسم عربي، لم تُنكر؟"

- "لماذا تلحّين على هذا الأمر؟"

- "هكذا أريد أن أعرف".

كان الأمر واضحاً جداً، ولكن صوفي أرادت أن تعرف منه هذه القصة، وأن تعرف تفاصيل أكثر. إلا أنه - كعادته - تهرّب، من ذلك. حاول أن يخفي كل ما يخصّ حياته الماضية. حاول أن يحيط كل ما يخصّ تاريخ حياته، عائلته، هويّته، بالغموض المطلق. قال لها:

- "أنت - أيضاً - تخفين أشياء كثيرة عني"!

- "لا أخفي عنك شيئاً مهماً كهذا...".

- "بل تخفين أشياء كثيرة؟" أراد أن يغرقها، بتفاصيل وجدالات كثيرة؛ كي يهرب من الحديث عن هذا الأمر".

- "قل لي!"

- "ماذا تريدين أن تعرفي؟".

- "أريد أن أعرف الحقيقة، أريد أن أعرف مَن أنت؟ مَن هي عائلتك؟.

- "إنك تعرفيني هنا، وهذا يكفي ... لماذا تريدين أن تعرفي عائلتي؟! ما خصّك بعائلتي، إذا كانت لبنانية، أو غير لبنانية، هذا لن يغير من أمرنا شيئاً؟!".

- أعرف أنه لن يغيّر، ولكنك حينما تخفي هذه الحقيقة عني، من الصعب بعدها تصديقك، بأشياء أخرى، ثم إن الشك ينتابني حين أعرف أنك تخفي عني أنك من عائلة لبنانية!".

- "لست أنا... إنه والدي، من أصل لبناني، هذا كل ما في الأمر..".

- "لماذا تتهرّب، إذن؟"

- "لا أتهرّب ... ولكنْ؛ لا معنى لهذا الأمر عندي، ولا أرى أنه سيغيّر شيئاً، إذا عرفت أني من أصل لبناني، أو لا، ليس الأمر، بذي أهمية، كما أنني أفكّر بنفسي على أني اسكندنافي، لا شيء آخر، صدّقيني هذا الأصل لا أهمية له البتة".

- "كيف تخفي ذلك؟! ولماذا...؟!"

- "قلت لك ... ليس هنالك من سبب".

- "لماذا ترتجف وخائف، وكأنك ارتكبت ذنباً...؟"

- "أبداً... أبداً... ولكني أريد أن أنسى هذا الأمر ... هل فهمتِ؟! لا أحبّ التحدث به...".

- "هل هنالك من شيء مثلاً...؟"

- "قلت لك .. إنه تاريخ حقير، لا أريدك أن تفكري به...".

***

بعد يومين، روى أدريان إلى صوفي - باختصار - حياة عائلته، قال لها إن والده يتحدّر من عائلة جبّور المسيحية، في لبنان. اسمه غابرييل جبّور، هاجر أثناء الحرب الأهلية، إلى أوسلو، في النرويج. ذهب كي يعمل في شركة عمّه منير جبّور، وهي شركة تخليص للبضائع والنقل البحري. ثم تزوج سكرتيرة عمّه النرويجية، واسمها بيرنا يارغارد Berna Järegård (والدة أدريان)، ثم انتقل كلاهما، للعمل، في ستوكهولهم، في السويد بعد أن فتح غابرييل مكتباً للتجارة بين بيروت وستوكهولم خاصاً به، وبزوجته.

وُلد أدريان، في ستوكهولم، وقد عاش هناك حتى أنهى دراسته للهندسة، ثم جاء للعمل، في مطار زفتان، في بروكسل.

هذه رواية أدريان الأولى التي تلاها على صوفي. ثم بعد ثلاثة أشهر، اكتشفت بعض التفاصيل عن انتحار والده. وكان ذلك بشكل غامض وسريع جداً. ثم اكتشفت أن والده قد فقد جميع أفراد عائلته، بمذبحة طائفية، في لبنان. أما القصة التي سمعتها من أدريان هي أن إحدى الميليشيات اقتحمت الحيّ المسيحي الذي تقطن فيه عائلة والد أدريان. وهناك ارتكبت مجزرة، بالسكان، راح ضحيّتها جميع عائلته، بمَنْ فيهم شقيقة والده إيلين، وهو الوحيد الذي نجا؛ لأنه كان خارج المنزل.

ثم سمعت مرة منه، وبشكل مقتضب جداً، كعادته بطبيعة الأمر:

أن والده أراد الانتقام لمقتل عائلته، فالتحق بمليشيا مسيحية، هذه

الميليشيا ارتكبت مجزرة، بعائلات الميليشيات الأخرى. ثم هرب والده، من لبنان، وجاء إلى أوسلو. ولكنه لم يستطع التخلّص من صور الحرب وبشاعة الأحداث، فمرض بالشيزوفرينا، وبعد فترة قصيرة، انتحر.

تذكّرت صوفي أنها جرّبت الانتحار يوماً ما، حينما وصلت إلى بروكسل. مرّت بمرحلة يأس مطلقة. فقررت أن تنهي حياتها، بيدها. استيقظت في الصباح على هذا القرار الخطير، ونفذته.

وقفتْ عند المغسلة، نظرت، في وجهها، في المرآة. . فتحتْ صنبور الماء. مسحتْ شفرة الحلاقة بيدها. رمت الورقة التي كانت تلفّ الشفرة، في المزبلة. وضعت الشفرة على رسغها. كان الوقت ينساب، ويسيل الدم. دم أحمر فاتح، أخذ يلطّخ كل ما في طريقه. كان ينساب دافئاً، يتدفّق، ويتدفق. يلوّن ملابسها، ويلوّن الأرضية. على الفراش، يتحوّل إلى نهر كاسح، قبل أن تطرق جارتها الباب، وتطلب الإسعاف.

٢٣ تمّوز

لقد أخبرتك يوماً بأني جرّبتُ الانتحار. ماذا أقول لك؟! كان شعوراً نسبياً، بالراحة. إلى الآن، أتذكر الجرح الذي أخذ ينزف الدم، بلا توقف. أتذكر الجدول الكاسح الذي كان ينحدر مني.

بالأمس، في الحلم، كنتُ انتحرتُ أيضاً. وقفتُ أمامك، وقلتُ لك:

اتبعْ دمي. ستصل - حتماً - إلى شرياني. صَمَتّ، ولم تنطق كلمة واحدة.

قلت لك: "اشرب".

- "لا أثق بالشراب!"

- "تكلم".

- " ليس لي كلام"، هكذا كان جوابك.

قلت لك تعال، يا صديقي، روحي ستستقبلك. حشد من البجع يطير نحوك. حفيف أشجار، وماء يسير عبر الغابة يمرّ، بالقرب منك. جموع تحيي لك أعياداً مقدسة. صرخت نحوك: تعال ... يا صديقي، تعال ...!

كنتُ عارية، أغوص، في بحيرة. وأنت واقف عند الضفة، خائف، تحمل في يدك كأس بورتو، أو شيري، لكنك لا تشربه، كنت خائفاً أن يكون من دمي. قلتُ لك:

- "اشربْ، كم هو وحشيّ وفظيع ألا تشرب."

كنتَ متردداً، عيناك حمراوان، من القلق، وجهك مكفهر. ويداك ترتجفان من الهلع. خوفك الفظيع هذا ذكّرني بخوف أمي. هل تصدّق؟ نعم، ذكّرني بأمي. كانت أمي خائفة على الدوام. خائفة مثلك. صورتها، وهي مرتعدة من الخوف أمام والدي، لا تفارقني. حين تتكلّم معه، كانت تتكلّم، بوقار أبكم. كل شيء يتحرك فيها، شفتاها وخدّاها ويداها. الخوف كان سمتها. يطبع نحافتها. قامتها الممشوقة، عينيها الجميلتين اللتين كانتا مثل عيون القدّيسين صامتة ومتأمّلة. يديها الصغيرتين اللتين تدسّهما، في العجين، وهي تصنع الخبز.

هكذا كانت أمي. صوتها كان حانياً، وشجيّاً. إطار نظارتها الأسود من النوع الرخيص. ساعتها الصغيرة لم تخلعها أبداً. كانت تُجلسني كل صباح على متكئ عالٍ، لتُلبسني ملابس المدرسة بدانتيلا بيضاء، وتشدّ شعري، بمشدّ لامع. أشبه بالصورة الوحيدة التي أخذتها أمام المصور حينما كانت شابة. عيناها السوداوان مفتوحتان أمام عدسة الكامرة. ملابسها ريفية بسيطة. وجهها شاحب وخائف أمام هذه الآلة السوداء والرجل المسيحي الذي يجبرها أن تبتسم أمام عدسته. هذه صورتها التي تبرز في ذاكرتي، من وقت إلى وقت.

مبالغتها في العناية بشعري واهتمامها بنوعية حذائي الذي أرتديه جعلني غريبة عن كل ما يحيط بي. صرتُ أخرج إلى الشارع مثل فتاة من طبقة أخرى، قد هبطت على قرود الشارع ذوي الملابس الرثة.

شعرتُ في ذلك الزمن أن أمي تريدني أن أكون مبتعدة - بشكل عنيد - عن كل ما يحيط بي. أن أكون غريبة ومنبوذة مثل مريض. بل زرعت في داخلي شعور الاغتراب عن العالم المحيط بي. كان ردّ الآخرين عنيفاً أيضاً. أخذ الأطفال يسخرون مني. طريقتهم الوحيدة للردّ على صورتي المتعالية هي إهانتي، وتحقيري: يقتربون مني. ينظرونني، بنظرات استغراب. يقفون

على مقربة مني دون أية كلمة. ثم ينطقون كلمات فاحشة أمامي. أسكت. يشتمونني، أسكت. يدفعوني، فأسقط على الأرض. أبكي. ينفجرون، بالضحك.

في البداية، جعلني هذا الأمر منطوية، على نفسي. مبتعدة قدر ما يمكن عنهم. بعدها، قرّرتُ التآلف معهم. فانخرطتُ في حياتهم. صرتُ مثلهم، أتشبّه بهم في الصياح العالي، في الركض في الشوارع المتربة، في العراك بالأيدي على أتفه الأشياء، والانغمار، في جنون الألعاب الصاخبة.

صرتُ مثل الصبيان الحفاة، أطلق العنان كمتنفّس لشيء ما في داخلي. شعرتُ حينها أني خرجتُ كلياً عن تأثير أمي. بل أخذتُ أدفع نفسي شيئاً فشيئاً؛ لأكون خارج سيطرتها. لم أعد أشعر بأني ابنتها. صرتُ أعاديها، وأحقد عليها. أحاول قدر الإمكان أن أختلف عنها. باحثة عن كل عذر لكراهيتها.

إلا أن هذا لم يدم طويلاً. في زمن لاحق، شعرت بأهميتها، بأهمية أن أعود إليها. فالتحقتُ مرة أخرى، إلى حضنها. لم أتوقّف مطلقاً عن تأمّلها. شعرتُ بأني منسحرة بها. صرتُ - من وقت إلى وقت - أقارن وجهي، بوجهها. قلتُ لها مرة:

- " إني أتأمّل معجزة تشابه أم وابنتها! كم أشبهها! كم أختلف عنها!"
فابتسمتْ لي دون أن تجيبني. ذلك شجّعني أن أسألها:

- "هل يمكننا - يا أمي - أن نجد لأنفسنا مكاناً مستوياً مريحاً هادئاً، في أرض كثيرة العثرات".

لم تفهمني، فأعدتُ السؤال عليها مرة أخرى:

- " هل تعتقدين - يا أمي - أننا نستطيع أن نعيش حياة صحيحة، في مجتمع، ليس صحيحاً؟"

لم تجبني! ولكني كنتُ أعرف - كما تعرف هي - أننا رحلنا، في زمن الآخرين، وليس زمننا.

لم يكن لدى أمي المنهكة من التعب المتعرقة دوماً من حرارة الجو أي حماسة للعواطف والحب. بالكاد، كان لها من الوقت؛ لتراني، أو تتعرف عليّ، ولهذا؛ بقيتُ مجهولة، بالنسبة لها. كما لو أني فاجأتها، بنمو جسدي، ويفاعتي، وبتحوّلي إلى كائن مختلف. لم تكن تعرف كيف حدث كل هذا. وأنا - من جانبي - لم أكن صاخبة؛ لألفت نظرها، ولا متطلّبة، كما الفتيات الأخريات. كنتُ صامتة، خجولة، مشغولة دائماً، في ركن من أركان البيت، بألعاب سرية. ولم أكن أخرج إلا إلى المدرسة.

لم تتوقّف أمي لحظة عن العمل. كانت تردد ما ستفعله في اليوم التالي حتى وهي نائمة. الشيء الوحيد الذي كانت تفخر به هي أنا. كانت مزهوةً على الدوام أمام الجيران؛ لأنني طفلتها التي تنال كل الجوائز، في المدرسة. كانت تفاخر بأني حصلتُ على جائزة التفوق، في كل السنوات منذ أن دخلتُ مدرسة المدينة. أمي سعيدة بي سعادة كبيرة، وتصلي كل يوم؛ لأصبح طبيبة. إنه شرف، بالنسبة لها. رجاء، توسّل، تضرّع إلى الله؛ كي يعوّضها ما فاتها مع والدي. ربما، بسبب كراهيتها له، واشمئزازها منه. لم تستطع التعود عليه. ضغينتها منه لم تتوقف مع الوقت، إنما أخذت تتأجّج. جرحها منه لم يندمل، إنما أخذ ينزف. كرهته، بكل ذرات كيانها، بكل الأفكار والمشاعر التي يتّسع لها جسدها. تمنّت له النكبات، الأمراض، الحوادث، على ألا يكون على كرسي معتمداً عليها مثل ممرضة. إنه انتقام لذيذ، فقد استجاب لها الله أخيراً؛ إذ نفّذ والدي عملية انتحارية، قتل فيها العديد من الفلاحين، ومات هو أيضاً.

***

تستيقظ أمي في السابعة صباحاً؛ لتعد الفطور، ومع استيقاظها، تداهمني ضجة الراديو الأليفة، اختلاط صوت المذيع مع وشيش

السماور. صوت محرّكات السيارات مع فوضى الصباح الحماسية. الحاجة العميقة إلى أغاني فيروز مع الشهية غير المحدودة لضجيج الصباح. بعد ظهور المسلّحين، واحتلالهم لمدينتنا والقرى المحيطة بها، توقّفت المدارس تماماً. توقّفت طقوس الصباح. صمتت المدينة. مكثتُ بضعة أيام، في المنزل لمساعدتها. وبعد أن عمل والدي مع المسلّحين، أخذتُ أخرج معها لمساعدتها في عملها الجديد، وهو التنظيف، في منزل المسلّحين.

قبل ظهور المسلّحين المتشدّدين لم تكن أمي تغادر المنزل كثيراً. في المساء، تجلس في الفناء، أو في ركن من أركان المنزل، صامتة. في الصباح، تنتقل بين موقد المطبخ والحجرة؛ لتعد الطعام لنا. نادراً ما كان ينتبه أحد لوجودها، وإذا فعل والدي ذلك، فلكي يأمرها بأن ترشّ مبيد الحشرات، في التواليت، أو لتملأ خزان الحمّام. مرة ذهبتُ معها إلى المدينة. قبل ظهور المسلّحين، بأسابيع قليلة، كنتُ أحببتُ التجول، برفقتها. أحببتُ أن أتأبّط ذراعها. وشعرتُ، بالفرح؛ لأن الطقس ذلك اليوم كان يتلاءم - بشكل كامل - مع التمشية. غير أن أمي لا تريد أن أشبك يدي، بيدها، كانت تسحب يدها، فتعود يداي إلى جيوبي خائبة. كنت - أحياناً - أنظر في فاتيرنات المحلات، أنظر، وأنا أسير في الشارع. أرى أشياء كثيرة، تستحقّ الفرجة، وهي أشياء غير مسموح لي أن أتفرّج عليها تحت أي ظرف من الظروف.

تسمح لي أمي أن أتفرّج عليها ... أشعر بالعطف من طرف عينيها، لهذا؛ هي تصطحبني، هناك أحذية أنيقة، حقائب، قبّعات، حلي.

تشتّتُ أمي انتباهي. تقودني إلى طرق بعيدة، عن المحلات، ثم تقول لي بعد أن تيأس:

"- ماذا تفعلين بهذا ... ستتنقّبين ... النقاب سيأتيك، على كل حال بعد أشهر من الآن." ثم تردف، وتقول:

- "الجمال الطبيعي لا يحتاج إلى زينة اصطناعية".

- " عن أي جمال تتحدثين، يا أمي؟"

أمي تتنفّس الصعداء، وتسحبني من يدي. الحيّ الذي نقطنه بدأ يشيخ. نساؤه عجائز. لا شيء هنا غير الموت. يحدث - أحياناً - أن نشهد في هذا الحي جريمة من الجرائم. عدد من النسوة يلقينَ حتفهنّ في هذا الحي الذي نقطنه. القاتل هو الأخ، أو الأب، الجريمة هي جريمة شرف.

الابن الوحيد، مندوب شركة لأدوات المائدة، قالوا لا يريد أن يرث معه أحد. قتل شقيقته؛ لأنه قبض عليها عارية، في فراش جارها. ليس من العسير الاهتداء إلى مسكن هذه الشابة. تسكن - في واقع الأمر - في منزل أمها العجوز التي تستهزئ - على الدوام - بالمارة.

***

لقد توافق تحوّل جسدي مع ظهور المسلّحين في حياتنا. بدأ صدري يكبر قليلاً، وبدأ ينبت لي زغب خفيف. انشغلتُ بهذا الأمر كثيراً، طالما أن العالم الذي كان من حولي قد انشغل بالفتاوى والملصقات التي كان ينشرها المسلّحون ذوو اللحى الكثّة في المدينة. ليس هنالك من كلام سوى حكايات مرعبة، يتداولها الناس، عن هؤلاء الرجال ذوي السحنات الغامضة والغاضبة. عن الرجال الأشداء الذين أصبح الجميع لا يخشاهم، ويرتاع منهم، وحسب، إنما يتذلّل لهم أيضاً.

أثناء عملنا في هذا المنزل الذي يقطنه المسلّحون المتشدّدون، رأينا الكثير من النساء. نساء منقّبات، جئنَ، من أماكن مختلفة، من العالم. كانت إحدى وسائلي التي تسلّيني ذلك الوقت هي مراقبتهنّ، وإطلاع أمي - أولاً - بأول، على كل تفاصيل حياتهنّ التي أجمعها، بسرية تامة. هذه الأعمال التجسّسية هي التي أرهفت حالتي الجسدية والحسية معاً. فلولا معرفتي بهذه التفاصيل الكثيرة، لهاته النساء، في هذا النزل الكبير،

ساء غامضات أشبه بالسجينات أو المحظيات؛ لأصبحت حياتي قطعة مسبية غائبة في عتمة الحجرات.

قضي لي أن أعمل طوال الوقت، في حجرات النساء، وهي حجرات متعددة، تقع في الجهة الخلفية، من المنزل. أما أمي؛ فقد كانت تعمل في الطابق الأعلى، في حجر الرجال. أمر رئيس المتشدّدين أن تكون مهمّتها نظيف الممرّ والسلّم والحجرات المتعددة التي عادة ما تكون خالية في الصباح. أما أنا؛ فقد عملتُ في حجر مأهولة بالنساء، نساء حزينات، غامضات، يتحرّكن، بهدوء، وصمت. لا نتكلم معهنّ؛ لأن الكلام معهن غير مسموح به أبداً. عقوبته الجلد، أو القتل. شيء خطر جداً. غير أن فضولي الشديد دفعني لأعرف عنهنّ كل شيء. فصرتُ أنظر لهن بتمعّن شديد؛ لأتعرف إلى وجوههنّ. أرهف سمعي؛ كي أتعرّف إلى أسمائهنّ. أحاول التعرف إليهنّ عن طريق سماع همسهنّ، فيما بينهن، للتعرف على حكاياتهن. كنتُ أفعل كل هذا، بصمت؛ كي لا أثير شبهة أحد.

في المساء، أخبر أمي، بكل ما أسمعه عنهنّ. فما إن نرجع للتو بعد أن ننجز معاً أعمال المنزل الكثيرة حتى أبدأ بسرد الحكايات لها.

هناك، داخل النزل، لا نتكلم أبداً. لا يُسمح لنا بالكلام. عادة ما تكون كل واحدة منا مستغرقة في عملها الصامت. نعمل، دون أدنى تواصل، أمام المسلّحين الذين يراقبوننا. ولكني من بعد ساعات القيلولة، أنطلق لأمي، بحديثي عن النساء الحارسات، أو عن السبيات اللواتي ينام معهنّ المسلّحون، بالدور. النساء الصغيرات الخائفات المرتاعات هنّ مَن يُزيّنّ الحياة الرمادية لأولئك الرجال المسلّحين الذين يمرّون، بالبيت. وبعضهم يذهب بمهمّة صامتة، فينسب له حدث عظيم، وتلوّن حياته، بألوان حب سري، أو مأساة ما.

كنتُ أخبر أمي عن كل شيء، وألوّن أحياناً بخيالي بعض القصص.

نعم، هكذا كان. لكن أمي سرعان ما تكشف هذا الزيف. قلت لك مرة إن لأمي غريزة صائبة، تمكّنها من كشف تخيّلاتي، وبالطريقة نفسها، تكتشف بعض المعلومات التي أحاول أن أخفيها عنها. إحساسها العملي المرهف وتصورها يحفّزني أن أعرف كل ما يجري تحت سقف هذا المنزل الكبير. فصرتُ أحرص أن أعرف - بدقّة - ما يفعله كل واحد من المسلّحين، مع مَن ينام، مع أي سبية.

هذا ما أتذكّره من تلك الأيام بعد أن فقدتْ مدينتنا صخبها الذي كان في الشارع. كأنما الحياة لم تعد موجودة. لقد أصبحت المدينة الأكثر صمتاً، والأكثر هستيرية. بل أقول لك إنها لم تعد مدينة. إنها معسكر معزول، معسكر هاجع في الخوف والخضوع والمذلّة. روحها منقبضة خوفاً ورعباً من المتشدّدين. كل أصوات الحياة صمتت. محركات السيارات، أجهزة الكاسيت، المذياع، أبواق السيارات، النباح، الزمجرات، الأصوات البشرية، زقزقات العصافير كلها توقّفت. لقد بدأت سمفونية جهنمية، من أصوات الرصاص وصراخ المقتولين والمذبوحين بالسكاكين، والنشيج الصامت للنساء المسبيات.

أقول لك لم يعد النخل أخضر، نعم، لم يعد النخل أخضر ... إنما اشتعلت رؤوسه المنتصبة، بأشعة الشمس الحارقة. أقول لك ما عادت الأرصفة، كما كانت، بل كأنها تعرّضت، للتخريب، بسبب كثرة الحفر وأكوام الزبالة.

أما عن النساء؛ فماذا أحدثك، يا صديقي ... لقد أصبح النقاب يغطي النساء، من أعلى إلى أسفل. لقد أصبحت مدينة من الغربان السود؛ حيث النساء يسرن صامتات، ولا ينطقن مطلقاً. ليس هذا فقط، إنما هنالك مشهد مألوف، عليك أن تراه كل يوم هو أن ترى رجلين حافيين وشبه عاريين يمدّدان على الأرض، ويجلدان، ولا ترى غير السيور التي تصعد وتهبط على ظهريهما، والألوان الفاقعة.

مدينة اجتاحها داء كبير، يا صديقي. لا قانون فيها، ولا نظام. بلد مُقفر، آخذ، بفقدان هويته، يجتاحه الصحراويون، وجيرانه المتوحّشون. بلد يخوض المسلّحون فيه أعتى الصراعات المسلّحة، من أجل سرقة الممتلكات، المواشي، البيوت. إنه التعهّر، بعينه. لقد أوقفوا العمل، وشوّهوا دياناتنا، بشعوذاتهم الشيطانية. قد حوّلوا المدينة، إلى خراب، تفوح منه روائح المجاري الكريهة.

***

أما أنا؛ فقد كنتُ في عالم آخر! لم يكن النقاب قادراً على كبح جموح جسدي الذي مايزال شاباً، لم يكن قادراً على تهديد يفاعتي المندفعة. لكن انشغالي منذ وصول المسلّحين بالعمل في النزل الكبير مع أمي، وولوجي في هذه القصص الحزينة لهاته النساء البائسات، واستماعي إلى صوت بكائهنّ، والولوج في تفاصيل عديدة بائسة، راح يُظهر الجفاف، في روحي الطازجة، ويؤثر على متعتي، في الحياة.

نعم، لقد تبدّل كل شيء، بالنسبة إليّ. شعرتُ، بأنوثتي أول الأمر مثل زهرة تتفتّح في داخلي، لكنْ؛ سرعان ما تمّ كبحها، بقوة، وعنف، لا نظير لهما.

في البداية، افتتنتُ بنبرتي في الكلام عندما تغيّر صوتي. أخذت أستمع لصوتي، كما لو أني أستمع لشخص آخر. كنتُ أحببته. شعرتُ بأني امرأة، عرفتُ أني غادرت طفولتي إلى الأبد. ولكني - بعد ذلك - خفتُ منه. أن أكون امرأة يعني أن أكون مرغوبة من الآخرين، ومطلوبة منهم. شعرتُ أن هذا الأمر سيجعل أحد هؤلاء الرجال المحيطين بي طامعاً بي. فكرهتُ هذا التغيّر والتحوّل، في نبرة صوتي، وفي طريقتي، في الكلام، بل أصبحت كارهة لكل شيء، من حولي. صرتُ أعيش مكروبة، بسبب خوفي، من جسدي، بسبب خوفي، من أنوثتي. هؤلاء الرجال لا يصمد أمام

خشونتهم أحد. أجساد، بلا أرواح. أفواههم مثل أفواه الضواري. أصواتهم العالية مزعجة مثل ضرب على علبة من الصفيح. أيديهم خشنة، تحمل السياط والسلاح. حينما ينظرون لي أشعر، كما لو أنهم ينوون الفتك بي.

كنتُ أسير في الشارع، بسرعة؛ لئلا يلتفتُ أحد منهم لمؤخرتي المرتفعة. كنتُ أتعرف - بسهولة - على سحناتهم الكئيبة، وعلى نظراتهم الوقحة. كانوا يسيرون جماعات جماعات؛ ليرقبوا تطبيق النقاب على النساء. عيونهم متيقّظة، قلوبهم حاقدة. ينتظرون خطأ ما. حركة غير مسموح بها للاقتراب من الشخص، وإخافته ورعبه. كم من المرات تمشّيتُ في الشارع، وشاهدتُ معهم أبي، وهو يحمل سلاحه، وسوطه الذي يخيف به الناس. كم مرة رأيته يتمشى سعيداً، وهو يذرع الشارع جيئة وذهاباً. يذرع الشارع وحراسه معه، متيقّظاً، ليس للنسيم الدافئ، ولا لهمسات الشجر، ولا لطيران الطيور، لا لنجوم السماء المشعة، وإنما لإذلال شخص، أو لجلد مخالف، أو تقريع امرأة، سقط نقابها سهواً. فأعود محزونةً مذعورة، لقد عشتُ - على الدوام - خائفةً، منبوذة بين المنبوذين.

***

بعد مقتل أبي، لم يكن أمام أمي إلا التزوّج، من شخص آخر. فبعد دفنه، صار الكثير من أصحابه من المسلّحين يطاردها. لم تكن أمي ترى فيهم سادة محترمين، لم تكن تقبل أي شخص تحت سقف منزلها.

أيام كانت شابة، حلمت بالزواج من رجل محترم، له وظيفة معروفة، وعادات حميدة، ويسار كاف، لإعالتها. لقد عاشت على هذا الحلم، غير أن الحياة قست عليها. في البداية، أخذ صاحب دكان التصوير الكريه يصوّب النظرات لأمي، لقد تحوّل إلى أحد المسلّحين بعد أن قام المتشدّدون، بغلق دكانه. كان هذا الرجل يقرفها. قالت لي أمي ما إن مات زوجها، حتى اندفع الجميع نحوها. كل واحد منهم يريد أن

يضاجعها، برضاها، أو بالرغم عنها، لذا؛ فإنها قبلت، براضي. راضي هو الأكثر فشلاً من بين الجيران. كان سكّيراً ومقامراً، وإن منعت الخمرة بعد وصول المتشدّدين إلا أن هنالك شيء آخر، فقد كان مسموحاً المتاجرة بها، كي يحصلوا على أرباح منها. لذلك كان المسلّحون يغضّون الطرف عنها سراً. فقام راضي بالمتاجرة بها مع قرى أخرى، لكنه كان يعطي أغلب الوارد للمسلّحين، لذا؛ فإنهم سكتوا عنه. هذا السماح مكّنه من الاستهتار - على الدوام - في الحياة، وفي الشرب والمقامرة، على أن تكون سراً.

جاء راضي يطلب يدها، ووافقت. قلتُ لها:

" أمي والزواج من رجل محترم؟"

قالت بنبرة شاكية:

"أين هو الرجل المحترم لم يعد موجوداً".

لقد خالفت الصورة التي وضعتها هي نفسها عن الزوج الذي تريد، ووافقت على إقامة راضي في منزلنا، بالرغم من أنه لم يكن يتفق في شيء مع صورتها للزوج النموذجي. كان ذلك الشيء هو أهون الشرور، بالنسبة إليها. في البداية، لم يكن سيئاً معها، إذا أذلّها في الليل، فإنه يتقرب منها في الصباح مثل جرو. ولكنْ؛ بعد مقتل ابنه، صار يذلّها، بعنف، ويضربها، بقسوة فاحشة.

لم يكن راضي من المسلّحين. كان عليها إما أن تتزوج أحدهم، وتنتقل للعيش في هذا السجن، هذه القاعة الكبيرة للنساء المحروسات بنساء مسلّحات، وأن تصبح حارسة على السبيات المسكينات، أو أن تتزوج من هذا السكير الذي يدفع الرشاوى للمسلّحين؛ كي يتمكّن من شرب الخمرة سراً، ولعب القمار.

***

رأيت أمي تقوده إلى الغرفة، وهي تجرّ - بمشقة بالغة - حقيبته الثقيلة، بينما كان هو يحمل على ظهره كيساً، وضع به قناني العرق. التصقتُ أنا بالجدار متخفّية، ولاحقتهما في الممر؛ حيث كان هو يسير خلف أمي، وانتبهت إلى ملامح وجهه، وإلى عينيه وهو ينظر إلى مؤخّرتها، وإلى ثوبها القطني الملتصق - بقوة - بردفيها.

كانت أمي نحيفة، ولكنْ؛ بردفين بارزتين وكبيرتين. أحسن ما رأيت في حياتي لأنوثة امرأة. كل شيء فيها دقيق وناعم، ولكن ردفيها الجميلتين المدورتين بارزتان إلى أعلى. وكانت تخفيهما تحت النقاب، لأنها كانت تخشى أن ينتبه لها أحد المسلّحين، ويجبرها على الزواج منه. حين دخلنا الحجرة، ضغطتْ أمي مفتاح الكهرباء، فبدأت رياش مروحة السقف الكبيرة بالدوران، مطلقة أزيز حديد صدئ.

منذ تلك اللحظة، تبدل روتين البيت تماماً. فقد ازداد العمل؛ لأن راضي ينام في الساعات التي يخرج فيها الآخرون لقضاء أشغالهم، ويحتلّ الحمّام عدة ساعات في اليوم، ويستهلك كميات مذهلة من الأطعمة التي تعدّها أمي. وحين تعود مع قيظ ساعة القيلولة، حين يقبع النهار خامداً تحت وهج ضوء أبيض رهيب، يكون هو قد استيقظ الآن. لذلك تأمرني أمي أن لا أحدث ضجّة طوال الصباح.

هكذا أمضى زوج أمي حياته معنا، في النهار، يستريح في الفراش، وفي المساء، يسكر، ويلعب القمار، وما بين الوقتين، يطلب من أمي أن تنجز له وجبات من الطعام خرافية.

***

كان المسلّحون يعرفون كل شيء عن راضي، وكانوا يغضّون النظر، طالما هو يزوّدهم بالمال. وبالرغم من صلاته بهم إلا أنه كان جباناً، ويخاف خوفاً شديداً منهم. وكما ينقل الناس كان يزوّد بعضهم بالشراب؛ حيث

يشربونها سراً أيضاً، ولا سيما حين يعودون ليلاً لمضاجعة السبيات المسكينات، السبيات اللواتي يجلبونهن من القرى القريبة التي يهاجمونها، وهنّ إما مسيحيات، أو أزيديات، أو زوجات مسلمين، كانوا يطلقون عليهم بالمرتدين.

وكانت هذه الغرف تكبر، بالنساء. إنه أمر بسيط، كما يقولون! فما إن يرى المسلّحون أحداً، له زوجة جميلة حتى يتّهموه، بالكفر والردة. بعدها؛ يتم قتله. ومن ثم؛ يستولون على أثاث منزله، ويحملون زوجته إلى المنزل الكبير؛ لينام معها أحد المسلّحين، ثم يبيعها لآخر. هذا ما حدث لحامد البقّال. لقد تكلّم بسوء مرة عن المسلّحين. لم يكن راضياً عن رجم الفتاة الزانية الكافرة، فجاءوا في المساء إليه. اتّهموه بالردة، حملوه إلى الساحة، شدوا وثاقه، وأطلقوا النار عليه. في اليوم التالي، أخذوا زوجته سبية، ونام المسلّحون معها، اشتروها، وباعوها، وظلت هكذا بينهم تُباع، وتُشترى.

***

زوجته اسمها نعيمة. راقبتُها مرة في ظهيرة يوم قائظ. كنتُ أسير في طرقات القرية المتربة. انتحيتُ جانباً عند نافذة بيتها؛ حيث كانت مفتوحة، لتسمح للهواء، بالدخول إلى المنزل. جاء حميد زوجها، من ورائها، بهدوء، اقترب منها. كانت جالسة على الأريكة، تخيط قميصاً. ظهر من خلفها. شبه عار، يرتدي فانيلة بيضاء، على جسمه الأسمر. اقترب منها، وهي منحنية. رفعتْ عينيها؛ لتواجهه، بابتسامة جميلة. وضع حميد يده على كتفها، ثم أنزلها، إلى صدرها. لم تتحرك. رفعت عينيها نحوه، بنظرة جائعة. لا أعرف كيف شعرتُ بيده، كأنها لامست كتفي وصدري. لمحتُ عن بعد نظرة التوله التي قام بها، ويدي نعيمة المستسلمتين، وحميمية الاثنين، وذاك التيار الذي يوحّدهما، في سر مهيب. أحسستُ، بدفقة عرق على جبيني، وتنمّل في يدي، لم أعد قادرة على التنفّس،

صار قلبي أشبه بقطٍ محصور بين أضلاعي. وأحسستُ، بتنمّل، في رؤوس أصابعي، وتحسّستُ دفقاً من الحرارة، تخرج من جوفي.

***

كان الحدث الأكبر ذلك العام في منزلنا هو وصول أحد أبناء راضي لزيارة والده.

كان شاباً وسيماً، من دون لحية، مرتدياً ملابس حديثة. يعمل طالباً، في الجامعة. حقّق معه المسلّحون، ثم تركوه؛ ليرى والده الذي رشّا المسلّحين، للسماح له بذلك.

هكذا عاش معنا أحمد، في منزلنا كل الصيف؛ حيث كان في عطلة الجامعة الصيفية. وقد تغيّر راضي، بوصول ابنه. فقد أصبح أكثر هدوءاً وأفضل من الأيام السابقة. لم يعد يضرب أمي، أو يقسو عليها. كما أني لحظتّ تبدل أمي، وهي تنظر إلى احمد ابنه. لقد لحظتُ تبدل امي يوماً بعد يوم. وقد انتبهتُ إلى علامات ذلك التبدل منذ البداية، وقبل وقت طويل من بدء الناس بالتهامس من وراء ظهرها. لقد رأيتُ أمي للمرة الأولى، وهي تزيّن نفسها حين يكون في البيت. أخذتْ أمي تتغيّر شيئاً فشيئاً. كان حلمها أن تتزوج شاباً مثل هذا الشاب، لا سكّيراً مثل والده، ولا معتوهاً مثل والدي. وقد أتاحت لي عاداتي الطويلة في التجسّس اكتشاف مخبأ زجاجة العطر التي كانت تلفّها في كيس من النايلون، وتضعها، في كيس العدس. وقد حمل لأمي سراً بعض الماكياج، كان قد جلبه لزوجة والده الجديدة.

لقد ميّزت تلك الابتسامة الفورية التي ارتسمت على وجه أمي حين جلس في الحجرة بعد أن استحم، وجلس على الأريكة، وكان شعره مبتلاً. كان يجلس - أحياناً - معنا، بغياب والده، ليروي لنا حياته في الجامعة في المدينة الكبيرة، محتفلاً بمغامراته مع النساء، والضحكة الرنانة التي تخرج من قلبه.

لقد أحسستُ، بالكراهية - في أول الأمر - تجاه أمي، لأني كنتُ أشعر أن هذا الرجل الذي احتل كل فضاء المنزل وكل اهتمامها كان من المفترض أن يكون لي. أما هي؛ فلها رجلها، هذا السكّير الذي ينام معها في الليل. وقد تحوّل الآن مثل جروٍ وديعٍ عند حضور ولده. لقد اشمأززتُ من تملّق أمي له، ومن اهتمامها، بشعرها، وبطلاء أظافرها، ووقاحة هذا النذل الذي جعلها تخدمه بهذه الصورة.

كنتُ أقول في نفسي:

"مَن هذا؛ لكي أهتم به؟ إنه مجرد طالب أفاق ضئيل الأهمية ... ابن هذا السكّير القوّاد الذي ينام مع أمي".

لم أكن أحبه أول الأمر، كنتُ أراه مبتذلاً. وسيم، ولكنْ؛ فيه أنوثة، من نوع ما. كان يغنّي بعض الأغاني في المنزل، ومع أن في غنائه شيء من الظرافة، إلا أن أغانيه تتضمن كلمات بذيئة، وتلميحات جنسية، تجعل وجهي ووجه أمي يصطبغان، بالحمرة. ماذا سيكون في المستقبل؟! سيكون سكّيراً مثل والده! إلا أن أمي قالت لي لا، إنه سيصبح موظّفاً كبيراً، في العاصمة؛ حيث لا يستطيع المسلّحون الوصول إليها.

لقد أحدث هذا الشاب في منزلنا جواً احتفالياً، فيه الكثير من المرح. وقد شهدتُ هذا النوع من الاحتفال للمرة الأولى في حياتي.

حينما خيّم الظلام، أشعلت أمي مصباح الزيت، وعلّقته على الجدار. وأحضرت لنا شوربة العدس، وفيها لحمة. قدّمتها لنا، ويداها ترتعشان، من الفرح. كنتُ أشعر بكل خلية من خلايا أمي، وهي مبتهجة بهذا الشاب الحليق اللحية والشارب. وكان وجهها محمراً، وهي تنظر إليه، كأن فيها حمى.

كنتُ أشعر، بتصنّع أمي، وضحكاتها النابعة، من القلب، شعرتُ، بأنها مشدودة إليه. طافحة بعطرها الذي وضعته، والذي اشتراه لها راضي، إلا

أنها لم تكن تضعه من قبل أبداً. وشعرتُ بأنها كانت تُبعدني كثيراً عنها، كلما اقتربتُ منها، وكانت تتضايق من وجودي معها أمامه.

***

الحدث الأكبر في تحوّلي نحوه حين شعرتُ مرة بأنه يراقبني. لقد مررتُ من أمامه، فشعرت أن عينيه كانتا تلاحقاني، وتنظران إلى مؤخّرتي. منذ تلك الليلة، صرت أراه، بصورة مختلفة. لم أعد أكرهه، ولم أعد أحقد عليه. فقد كرّمني - على الأقل - بالنظر إلى مؤخّرتي. لم أعد أشمئزّ منه، كلما رأيته، أو سمعته، يتكلم، أتذكر تلك النظرات المرتجلة، وأشعر مجدداً بالهياج، في جلدي، والاضطراب في روحي، وباحتدام محموم، لا أعرف كيف أصوغه، في كلمات.

صرت أراقبه خفية، من بعيد. وهكذا؛ بدأتُ أكتشف أشياء جديدة، لم أكن أعرفها من قبل. لقد رأيت شعر صدره، وهو يبرز من فانيلته. عنقه الجميل. انحناءة ردفيه. فخذه القوي، وهو خارج من الحمام. وهو كان يحرص أن يظهر جسده، لي ولأمي، كنتُ أشعر بتلك الانحناءة الحسية لبطنه، لشفتيه الممتلئتين، لتأنق ساقيه الطويلتين والدقيقتين. وراودتني رغبة، لا تُطاق في الاقتراب منه؛ لأحضنه. حين أراه، كنتُ أسمع صوت تنفّسه ودقات قلبه، حين كان يمرّ مني، كنتُ أستنشق رائحته الجافّة والنفّاذة، مثل رائحة الخبز الساخن.

في الليل، كنت أتخيل أني أداعب شعر صدره، ألمس عضلات فخذه، أتحسّس انحناءة أردافه، أسمع صوت حنجرته، فما إن يرفع بصره، وتلتقي عيناي، بعينيه، أركض هاربة؛ لأختبئ، في أبعد أجمة في الفناء، وأنا أرتجف. لقد هيمن على كل أفكاري، ولم يعد بإمكاني تحمّل ثبات الزمن بعيداً عنه. حينما كنتُ أخرج خارج المنزل، أشعر بأنه كابوس. وأفكّر بما يفعله هو في هذا الوقت، ومع مَن يتكلم. كنتُ أبقى في سريري غارقة

في العتمة، متعلّقة بالستارة المثقبة المسدلة، والتي تتحرك مع حركة رياش المروحة، وصوتها المعدني الصدئ في الحجرة.

***

كنتُ أطلب من أمي أن تكوي لي ثوبي حتى أرتديه، وأجلس في زاوية، في المنزل، متظاهرة، بالانشغال، ببضعة أشياء، في يدي، كروشية الحياكة، أو دمية، أو دفتر الرسم. ولكن كل عقلي وجسدي وروحي معه. حين ينظر لي، أو يتكلم معي، كنت أحتضر من الهلع والخوف، واثقة من أني سأموت من السعادة، لو لمسني، أو كلمني.

أما أمي؛ فكانت متلهفة؛ لأن يأمرها بأن تخدمه، بأي شيء، وكانت تقدم خدماتها له، في كل أمر، كان حضوره المتأجج يخلبها، وهي تتابعه، في كل مكان، وتقدم له خدماتها، في كل أمر، وتحزر رغباته؛ لتقدم له ما يحتاجه قبل أن يطلبه.

وفي يوم، كان قد خرج كل مَن كان في المنزل. خرجتْ أمي؛ لتعمل في المدينة. خرج هو مع والده؛ ليقدمه إلى أصدقائه. فعرفتُ أنها فرصة؛ لأدخل الحجرة التي يعيش فيها معنا. دخلتُ، وأغلقتُ الباب ورائي. فتحتُ حقيبته، بهدوء وحذر شديدين. رأيتُ ملابسه مكوية وموضوعة بترتيب متأنق لطالب في الجامعة. صورته بالأسود والأبيض كانت في الجيب العلوي. أخرجتُها، ويداي ترتعشان. قرّبتها من عيني. أردتُ تحسّس شفتيه ووجهه، بأصابعي. وضعتُ شفتي على شفتيه في الصورة، وأغمضت عيني. وضعتُ يدي على صدري، فانتصبت حبّتا الكرز الصغيرتان، في نهديّ، مسببتين لي ألماً.

أعدتُ الكرة أكثر من مرة.

خلعتُ ملابسي: خلعتُ جلبابي، ثم خلعتُ كالسوني. حملتُ مرآته الموضوعة بعناية بين أغراضه، مسحتُها بيدي، نظرتُ بها وجهي. أخرجتُ

قميصه، ووضعته على جسدي، كأني تحسستُ سخونة جلده. لبستُ جزمته، وتحسّستُ أصابعه التي كانت هنا. أردتُ تملكه، من خلال ملابسه. قلبتُ أغراضه، ملابسه الداخلية المتّسخة. بعدها... أخرجتُ أغراضه جميعها، من الحقيبة، ووضعتُها على الأرض. خلعتُ القميص والحذاء، واستلقيتُ في الحقيبة عارية.

لم يمرّ علي وقت طويل. فجأة سمعتُ صوت الباب الخارجي يُفتح، ويُغلق بقوة. هذا يعني أن شخصاً ما قد دخل المنزل. شعرتُ، بفزع حقيقي. رجفة سرتْ، من رأسي، إلى قدمي. نهضتُ، بسرعة. ارتديتُ جلبابي، أغلقتُ الحقيبة، وهربتُ إلى فناء المنزل مذعورة. في تلك اللحظة، أدركتُ أني نسيتُ كالسوني في حقيبته. شعرتُ، بخجل حقيقي. بألم في بطني. ربما سيفضحني.

إلا أنه لم يفعل.

في نهاية الصيف، غادرنا. كنا أنا وأمي أكثر حزناً عليه من أبيه. وما يسعدني ويجعلني مبتهجة، وربما حتى هذه اللحظة، أنه لم يترك كالسوني، في الحجرة وراءه، إنما أخذه معه، في حقيبته.

***

ظلّت أمي تلحّ على راضي أن يدعو ابنه أن يأتي مرة أخرى؛ ليزورنا. وقد دعاه فعلاً، وكنا ننتظر، بفارغ الصبر، حضوره. غير أن راضي لم يأخذ إذناً من المسلّحين هذه المرة.

وفي يوم، سمعنا اضطراباً كبيراً في منزلنا. هُرعت أمي راكضة إلى الشارع. لم يكن راضي هناك، بل بضعة نساء ورجال من الجيران يرقبون شاباً مشنوقاً ومثبتاً على نخلة هرمة. شاب نحيل، أسمر، بارز العظام. كان حافياً عارياً، ما خلا فردة واحدة من حذائه معلّقة بقدمه. لقد غادرته

الحياة، ما عدا الذباب الذي يحوم على شعره الأسود المجعد، وصوت أمي العبثي التي كانت تقف أمام الجثة أشبه بفزّاعة.

لقد قتل المسلّحون الشابّ الذي جاء لزيارة والده، مثّلوا بجثّته، قصّوا أذنيه، جدعوا أنفه. وتركوه هكذا، يتدلّى، وعلى وجهه خثارات دم وحروق جافّة. لقد رفض المسلّحون إنزاله. بقي هكذا ليومين، وهو معلّق مفتوح الساقين، وخصيتاه مسحوقتان مثل عجينة.

IV

رقدتْ صوفي بعد أن عادت إلى المنزل على الكنبة مخدّرة. الصالة شبه مضاءة. وضعتْ رأسها على طرف الأريكة المصنوعة من الجلد الأحمر. خلفها مكتبة خشبية، صُفّت بها كتب متعددة، بشكل مرتّب. على اليسار، خزانة كبيرة للملابس، بابها ما يزال مفتوحاً. على مقربة من الخزانة، طاولة ما تزال صحون العشاء عليها، لم تُغسل بعد، وقنّينة نبيذ أحمر فارغة وكؤوس. لم تخلع صوفي ملابسها منذ الصباح. دمعتها، في مآقيها لم تجفّ بعد.

شعرتْ لحظتها أنها غير قادرة على النوم. عيناها غائمتان، كأنّما فيهما نظرة متأملة. ذكّرتها بنظرة أدريان المتأملة. حينما وقفت أمامه أول مرة، على حافّة البحر الموحش، في أوستنده. كان شبه عار، ذلك الوقت، بينما كان سطح البحر ساكناً ومشعّاً. حيث ينتهي الضوء، برغوة شفّافة، تغوص في الرمل، بوشيش، كانت تحبه. لقد أحسّت صوفي الجالسة على حافّة السرير، أحسّت به، أحسّت عبر اللحظات البعيدة، بالنداوة الليّنة في يديه المبللتين، بينما كان هواء الصيف الرطب يلامس وجهه.

***

قضت ساعات المساء وحيدة حزينة عاجزة. حاولت النوم، لم تستطع. لقد أرهقها ذرع الحجرة رواحاً ومجيئاً دون أن تفعل شيئاً. شعور، لا نهاية له، بالهزيمة. هي مهزومة، وليس هنالك أية حيلة؛ لتحوّل هذه الهزيمة، إلى انتصار. لقد أمضت سنوات طويلة من عمرها، وهي تنام في الخلاء،

يلسعها الناموس، لكن هذه المضايقات لم تكن تثنيها عن عزمها، أو أملها في الحياة. هذه المرة شيء مختلف تماماً.

أخذت ترقب - بجمود - أمواجاً من مصابيح السيارات التي تنحدر في الشارع، بينما أخذت الظلمة تتراجع خلال ثوان قليلة، وبريق الأفق الأزرق يصعد، بسرعة فائقة.

ماذا تصنع؟ كل شيء في حياتها أخذ يعتم شيئاً فشيئاً.

كانت تتساءل ما الذي يجعلها أن تصارحه بكل هذه الأشياء؟! هل من المنطقي أن تفعل ذلك؟ تنتبه إلى ما قالته له في اليومين الفائتين. ماذا دهاها، لمصارحته؟! كانت تتوسل الله أن يساعدها على تحمّل هذه المشقّة. وبعد قليل، راحت إلى الثلاجة، تناولت قرصاً منوماً وكأساً من الماء. ذهبت إلى الصوفا، تمدّدت عليها، قبل أن تنام، فتحت حقيبتها، كانت محفظة أدريان معها.

***

كان أدريان يحتفظ بصورة والده في محفظته، تظهره بمظهر عربي، لا لبس فيه:

بشرة داكنة، عينان سوداوان غسقيتان، وشعر أسود، يبدو وكأنه مُسِحَ بالزيت. لم يكن له مظهر عنيف أبداً، إنما شخص خجول ومؤدّب، وكأنه واحد من الطلبة الذين يدفعون إيجاراتهم، في مواعيدها. وقد أراها أدريان مرة صورة منزل عائلة والده في لبنان، المنزل الذي أحرقته الميليشيات المعادية. منزل كبير مشيد من الحجر القديم والخشب، أمامه فسحة؛ حيث يجلس الجد والجدة، بصورة واثقة. صورة أخرى للعائلة في مطبخ المنزل. عائلة من رجال ونساء وأطفال يجلسون على المائدة، لتناول وجبة العشاء. صورة ثالثة، وهم يضحكون متجمعين في الصالة، لمشاهدة التلفاز.

كل هذه الصور هي قبل اقتحام الحي من قبل المليشيات التي لم تكتف بقتل السكان، إنما بتهجيرهم أيضاً، وإسكان عائلات أخرى محلّهم. فقد طُرد المسيحيون من حيّهم، وتمّ إسكان عائلات أخرى، وقد أُحرقَ منزلهم، وأُحرقت الكنيسة، وتحوّل أكبر منزل هناك إلى منزل أحد قادة المليشيا.

***

إذنْ؛ التحق والده غابرييل، بمليشيا مسيحية، ذلك الوقت؛ كي ينتقم لعائلته. غير أن الانتقام أغرقه، بحزن شديد، ولم ينقذه، من ألمه، فطلب منه عمّه أن يلتحق به في النرويج، وأن يترك المليشيا. وذكره من أجل تحسين سلوكه بإكرام ذكرى أبويه اللذين كانا مسيحيين طيبين في حياتيهما. وسيكونان مباركين عند الله، إذا ما كرس ابنهما الذي بقي وحيداً بعد مقتلهما لفروض الفضيلة، والعمل، بدلاً من تكرار الشر.

إلا أن والد أدريان رفض ذلك، في بداية الأمر، وتمسك بعناده، مع أنه كان كارهاً في أعماق روحه عمله في المليشيات. بعد ذلك، وحين ازدادت فظائع الحرب، لم يحتمل. ففكر، بالهرب من البلاد جميعها؛ كي يجد الطمأنينة الدائمة، فجاء، إلى أوسلو. ومن ثم؛ إلى ستوكهولم. كان يريد الاختباء وراء أي عمل، كان يريد التخلص من الذكريات التي تعذّبه. كان يريد العمل، أو العزلة، فالانتقام الذي دفعه للانخراط في عمل المليشيات لم يقدّم لروحه الخلاص، إنما الألم والعذاب المرّ حتى أخذ شيئاً فشيئاً ينشد الاعتراف لتخليص روحه ممّا لحق بها، من عذابات وأخطاء، ارتكبها.

***

كان أدريان قد رأى والده، وهو يطلق الرصاص، على صدره. هذه الصورة المؤلمة لا تفارق خياله.

وهنالك صورة فوتوغرافية للمأتم في ألبوم الصور الخاص به، رأتها

صوفي مرة في منزله؛ حيث ارتدى الأب المتوفىّ بذلته السوداء في النعش، أمام الشموع والرخام، في مشهد من الحزن والصمت والخشوع في منزله. تظهر الصورة ميتاً هادئاً عيناه مغمضتان. وأدريان واقف أمام النعش، بحيرته الرهيبة. الكل خاشع، في مكانه، يستوعب لحظة موت غابرييل جبور. الجميع حزين حزناً هادئاً، إلا أدريان كان حزنه صاخباً.

***

بعد دفن والده، تولت والدة أدريان إدارة مكتب التصدير بين لبنان وستوكهولم، فأدرك أدريان ذلك الوقت أن مصيره مرتبط على نحو ما بموت والده. لقد أثر به هذا الحادث التراجيدي تأثيراً بالغاً، ولم يكن يعرف عندها أن هذا الأمر سيؤثر على حياته، بمجملها أيضاً. فوالدته التي تسافر كثيراً إلى بيروت، على نحو خاص، أهملتْه. وبناء على وصية والده، أرسلته إلى مدرسة مسيحية داخلية.

لم يكن الأمر سهلاً، برمّته. كانت صعوبة تأقلمه مع المحيط الجديد واضحة عليه، ومع أنه حاول أن يكون تلميذاً جيداً، يحبّ الانضباط، ويخضع لصرامة قوانين المبنى الحجري، يحبّ المصلّى بتماثيله القدسية ورائحة شموعه وياسمينه، ويمضي الساعات الطوال، في الممرات الخالية والأفنية الظليلة. إلا أنه ضاق، بصخب أترابه ورائحة قاعات الدرس الحرّيفة. وكان يهرب من رقابة الراهبات، ويختبئ في غرفة المهملات، بين تماثيل دينية ومفروشات محطمة؛ لكي يعيد على نفسه قصصاً حزينة، هي قصة عائلته.

٢٤ تمّوز

أتذكر ذلك اليوم جيداً. هل تذكره أنت؟

كان يفصلنا عن بعضنا مرشّة الملح، طاحونة الفلفل الصغيرة، كأسا نبيذ، وعلبة للمحارم. مع مرور الوقت، أخذ الصمت يبتلعني. بينما الثرثرة ابتلعت المطعم كله. لم يكن بمقدورك أن تمدّ يد العون لي. شمس الصيف أراها من زجاج المطعم تصل إلى مركز المدينة؛ قبة القصر وجدرانه ذات اللون الأمغر الشاحب تلمع، بنعومة تحت الضياء.

- "هيا، لنخرج ..." قلت لي، "فالجو سيصبح جميلاً، عما قريب".

أغمضتُ عيني، مستسلمة لعطالة نادرة. لست معتادة على الراحة الدائمة.

- "هذا كثير، يا صديقي"، قلت لك ". مع ذلك، لا تبتئس! تذكّر الماضي ... ارحل معه ... سلوتك الوحيدة ... خذ حقيبتك، بيدك، وارتحل مع الأيام التي رحلت ... الشيء الحقيقي هو ما فات، لا ما سيأتي ... إنه التذكّر، يا صديقي، التذكّر هو ما يشغلني ليل نهار، مذ وطأت قدماي أوربا.."

***

شعرتُ لحظتها، بأني سقطتُ، في مصيدة كبيرة. اتسع الصمت. أخذتَ تلامسني، باذلاً ما في وسعك، لإطالة الحديث. نظرتُ إلى

أصابعك، وهي تداعب راحة يدي، تكلمت معي. سمعت كلامك همهمات. كل شيء غاب فجأة. كنت غائرة، في ملامسة جروحي، عائدة دون توقّف إلى الماضي. بعد قليل من الصمت، قلت لك:

- " شيء في داخلي يجبرني - أحياناً - أن أستعيد بيني وبين نفسي حياتي في الماضي".

سمعتني جيداً، ووضعت يدك، على يدي.

- " توقف...." . صرختُ في داخلي، وأنا أنظر، في عينيك ملياً..

شعرتُ لحظتها بأني مرتبكة، مثل شجرة ليمون، تقف وحيدة وسط الحوش، سكرى تحت شعاع شمس الصيف المأتلقة.

***

لقد كبرت وسط هذا العالم. العالم الذي لا يمكنك أن تتخيل جفافه وشحوبه. فلغة العواطف قد اضمحلّت - تماماً - في قريتنا، الكلمات المتألقة للحب التي كنا نستخدمها قد شحبت تماماً، ولم تعد على قائمة الاستعمال أبداً. لقد حلّت محلّها كلمات عنيفة، تقود إلى الموت مباشرة؛ مثل: كافر، وثني، مرتد.

اللغة العاطفية التي كانت مستخدمة بين الناس، أحالها المتشدّدون إلى رماد. مَن يجوب البلاد في جميع الاتجاهات ذلك الوقت، لا يرى في القرى المنسية، إلا البراز، وهو الإشارة الوحيدة على الحضور البشري.

مع ذلك، كنت مثل أية فتاة في الأرض، أحلم، بالحب. وهكذا، فقد عشقت في السابعة عشر من عمري. كان ذلك بعد اختفاء والدي، وبعد موت راضي مباشرة. لقد أصبحنا أمي وأنا وحيدتين، في المنزل. أصبحنا مثل أختين، هذا لا يعني أننا كنا متّحدتين، ولكني أخذت أرى أمي، بمنظار آخر. لم يعد لي في الكون من أحد غيرها. وهي تغيرت - أيضاً - معي.

أصبحت أنا نسبة لها مثل زهرة تتفتح في وجه السماء، وعليها أن تحميني، من كل ضوء ساطع، ومن كل ريح. كانت تحاول أن تكبح كل مَن له عينان عنيدتان، وهو ينظرني، في الطريق. وفي الوقت نفسه، كانت تنصحني بما أفعل، كي أجعل الرجال ينجذبون لي.

لقد كنت ملهوفة للحب، وكنت أعرف أن جسدي مثل صندوق مغلق ومختوم، فيه كنز من الرقة والمشاعر والمتع غير المنتهية. لقد عشنا، أمي وأنا، أشبه بيتيمتين، في المنزل، نأكل من ميراث بسيط، يتيح لنا العيش، من دون عمل. لم تتدخل أمي في ميولي ومشاعري، ولم تفقد سجيتها الطيبة معي، ولكنها بقيت تستخدم ذات اللغة معي، لصياغة مواعظها غير النافعة.

وفي يوم، شعرت بأن لحظة الحب قد حانت. لقد عشقتُ أحد المسلّحين. اسمه رياض. جاء مرة إلى منزلنا معزياً، بموت راضي زوج أمي. هو الوحيد الذي جاء إلى منزلنا بين المسلّحين المتشددين. ذلك لأن راضي السكّير، بالنسبة للمتشدّدين، لا يجوز الترحّم عليه. وطلبوا أن ندفنه دون أية مراسيم.

جلس الشاب أمام أمي، وعيناه مصوبتان نحوي. كنتُ رأيته عدة مرات، على منصة وسط الساحة، وهو يحمل سلاحه. شاب، يقف - على الدوام - وراء أحد رؤسائه.

قبل ظهور المتشدّدين في مدينتنا، كنتُ أعرفه، كان يمر من أمام دارنا، وهو يحمل حقيبة الكتب على ظهره، ويرتدي ملابس حسنة، سترة زرقاء قصيرة، تنحدر ياقتها العريضة على كتفه، وبنطلوناً من نفس اللون. كما أنه يبتسم، ويحيي الناس، في كل مكان. في العطلة الصيفية، كان يعمل أعمالاً مختلفة، فهو إما يبيع سكاكر اليانسون على الأطفال، وإما يحمل كيساً، ويدور فيه بين المنازل ليبيع المفرقعات الملونة. كما أنه اشتهر

ببيع نوع من الأقلام الفسفورية التي تضيء في الظلام. أما بعد العمل؛ فكان غالباً ما ينقش بعض الرسوم المزركشة على الجدران.

أي أنه من قريتنا، لم يكن من المسلّحين الغرباء الذين احتلّوا القرية والمدينة التي جوارنا. ولكن العمل مع المسلّحين كان يقدم له نوعاً من الحماية، فالتحق بهم. مع أنه تغيّر كثيراً عما كان عليه في السابق، شكلياً على الأقل، أما من الناحية الشخصية؛ فقد احتفظ كثيراً ببراءته.

أقصد شكلياً، على صعيد ملابسه مثلاً: رمى البنطلون والقميص الذين كان يرتديهما سابقاً، وأخذ يرتدي الجلباب، ويضع على رأسه طاقية غريبة. وأطلق لحيته، إلا أنها نمت خفيفة متفرقة الشعرات على وجه أبيض شاحب؛ حيث لم يكن عمره ذلك الوقت سوى عشرين عاماً.

قصته مع المسلّحين غريبة بعض الشيء، مثل كل شيء في حياته، فرياض لم يكن عنيفاً، ولم يخض أية معركة شتائم، أو سباب مع أقرانه، ولكن الكل يعرف أنه شخص غريب الأطوار، ويقوم بأشياء طفولية، بالرغم من تجاوزه سن المراهقة. وحتى بعد أن احتل المتشدّدون مدينتنا، فهو لم يلتحق بهم مثل سائر الذين التحقوا بهم. إنما بقي بعيداً عنهم، غير مبال أو مكترث بهم، كأنهم غير موجودين، بالمرة. أما نظراته الساهمة؛ فتدلك مباشرة: أن هذا الشخص حالم، أو أنه يعيش في عالم آخر، لا ينتمي إلى هذا العالم الذي ننتمي إليه.

مرة كان قد خرج في الليل من منزله ذي النوافذ المفتوحة في الصيف. مع أن المسلّحين منعوا الخروج ليلاً، بشكل قاطع. أخذ مكاناً بعيداً نسبياً عن منزله، في مكان يسمح لكل سكان القرية أن يروا ما يفعل من شبابيكهم. وأخذ يرسم بقلم الفسفور على لوحات من الكارتون المقوى أشكالاً لقطط وحيوانات جميلة، وبالألوان، ثم وضعها على الرصيف، ليرى كل مَن ينظر إليها كيف تضيء في الليل عندما يسقط ضوء القمر عليها. شيئاً فشيئاً،

تحولت هذه اللعبة إلى حديث القرية كلها، فكل البنات والصبيان من عمرنا يخرجون فوق السطوح، أو من خلال النوافذ؛ ليروا ألعابه الفسفوررية التي يقوم بها. وسرعان ما صار هو الأكثر شعبية في القرية. لقد برز هكذا من الفراغ، بسبب براءته الطفلية، وانتشر صيته في أنحاء المدينة. وفي يوم، صنع طائرة ورقية في الهواء، ولوّنها بالأقلام الفسفورية، فصارت تأتلق، في السماء مثل نيزك مذنب. فعرف المسلّحون، بألعابه، واكتشفوا هذه الرسوم الملونة من الفسفور في كل مكان في القرية، فاعتبروا مَن قام بهذا الأمر هو أحد مروّجي الدعايات ضدهم، فقرّروا معاقبته. لماذا فكّروا بهذا الأمر على هذا النحو؟ لا أحد يعرف.

فجأة، وصلت أعداد كبيرة من سيارات المسلّحين. سدّوا الطريق. راحوا يهاجمون المنازل، بالأخص، منازل آخر الشارع تلك التي تطل نوافذها على الطريق. ثم أوقفوا بعض الصبية الصغار، واستجوبوهم، فعرفوا أن رياض هو مَن قام بعمل هذه الرسوم. توقفوا أمام المنزل، وربما شاهدوا أضواء الأقلام الفسفورية، وهي تومض. توقفوا قليلاً؛ ليروا ما سيحدث، لم يكن هنالك سوى بضعة دقائق. فرياض الذي يقطن في منزل كبير نسبياً، بطابقين مع أمه، المرأة الجميلة، التي كان زوجها يعمل تاجراً في السوق، قد أنهى قيلولته للتو، وخرج على عتبة بابه، مرتدياً بنطلوناً من الجينز وتي شيرتاً أحمر، وهذه الملابس قد حرّمها المسلّحون أصلاً. لكن رياض كان في عالم آخر، لم يستجب لهذه التغيرات التي حدثت في القرية، ولم يكن معنياً إلا بأقلامه وألوانه.

ما إن خرج حتى قفزوا فوقه، كان من بينهم رجل ضخم، بوجه كريه، قد شد وثاقه. وهكذا أخذوا، يضربونه، بالعصي، على ظهره، على ذراعيه، على رأسه. كان ينزف، من أنفه، ومن جمجمته، ذرعاه الموثوقتان تنزفان. لكنه كان لا يزال واقفاً، يدور حول نفسه، وهو يهمهم. بعد ذلك، ضربه المسلّحون على ساقيه، فوقع على الأرض. وهنا تابعوا ضربه، بضربات

عصيهم، بقوة شديدة حتى خيّل لي أنني أسمع أصوات تكسير عظام. كانوا يشتمونه، وهم يضربون. وكان أحدهم يركله - بقوة - على بطنه، وعلى وجهه.

أخيراً، غادروا المكان بعد أن تركوه ممدّداً على الرصيف، وهو ينزف، من كل مكان من جسمه، تركوه فاقداً للوعي، وهو يئنّ. أما نحن الأصغر سناً؛ فقد بكينا عليه جميعاً، لأنه هو الوحيد الذي لوّن حياتنا التي أحالها المتشدّدون إلى سواد قاتم.

***

اختفى رياض في منزله أكثر من شهر. واختفت معه الرسوم الملونة التي كانت تضيء في الليالي الحالكة السواد. لم نعد نراه، ولا نرى رسومه. وبعد أن ظهر أول مرة، ظهر جالساً على عتبة دارهم، وهو يضع الضماد على رأسه ويديه. وبعد شهرين، ربما شفي تماماً. وذهب للمسلّحين عارضاً خدماته عليهم، وبما أنه غير نافع، لا بالعنف، ولا بالمعارك، فقد استخدموه؛ ليخط لهم اللافتات، ويكتب لهم الفتاوى والأوامر الصادرة. إلا أنه بقي هو ذاته، بالرغم من التغيير الكبير الذي حصل له على صعيد ملابسه، الجلباب، والطاقية الغريبة التي يرتديها، واللحية التي نبتت، بصورة مضحكة.

***

جلس رياض على الأريكة متظاهراً بالحزن أمام أمي. ذكّرتني هيئته حينما كان محنياً على رسومه في الطريق، وهو يلون بأقلامه الفسفورية الورق المقوى، بينما تبرز من العتمة ألوان وأجسام الحيوانات المضيئة. كلما رسم حيواناً، صرخ الأطفال من منازلهم، وصفقوا مبتهجين، بهذه الأشكال التي تبرز من العتمة، ومن الحياة التي أحالها المتشدّدون إلى عدم.

كان شاباً، بملامح بهية، وقامة رشيقة. كتفاه عريضتان، وفي عينيه نظرة رحيبة طليقة.

كنت أنظر له خلسة، يفتح عينيه، فتتسرب ابتسامته كالماء من بين شفتيه. ولخجلي، أضع يدي على فمي؛ كي أحبس ضحكة تقفز رغماً عني.

كنت أرتدي مئزري الأحمر التي تمزّقت أطرافه، فلممتها تحت قدمي؛ كي أخفيها عن نظراته. بينما كان يرسل لي وهو يتكلم مع أمي، إشارات رهيفة من عينيه.

لحظتها، شعرتُ، بعاطفة، نحوه. شعرتُ، بحنان دافق، يغمر كل جسدي، بسببه. إلا أن أمي قطعت هذه الصورة العاطفية جداً، بطلبها مني أن أقدم له الشاي. فركضتُ سريعاً إلى المطبخ. قلتُ في نفسي:

"أما عليك أنت أن تصنعي الشاي، يا أمي، وتتركيني وحدي معه؟"

***

تلبّكتُ، وأنا أصنع الشاي له.

وضعتُ الماء في الكتلي، من دون شاي. أشعلت النار. أحرقتُ أصبعي. انتبهتُ أن الماء من دون شاي. وضعتُ شاياً. انتبهتُ كان كثيراً. أزدتُ الماء. فاض الكتلي.

أوه ... يا لتلبّكي، واضطرابي ... رميته كله، في المغسلة.

أعدتُ الكرة. وضعت كمية من الشاي كافية، وصببتُ الماء، إلى حد معقول. وضعته على الطبّاخ، وعدتُ مسرعة؛ لأجلس جنب أمي، ملتصقة بها، وأنا أنظر نحوه. وهو من جانبه، كان يشعر، باحترام عميق، مختلط بالتقدير، تجاه أمي، يتكلم معها، بوقار، لكنه يبتسم، من وقت إلى وقت، لي.

***

عرفتُ - فيما بعد منه - أنه يشعر أن الحكمة تأتي - على الدوام - من النساء، فوالده التاجر المعروف الذي مرض مرضاً غريباً، ومات، لم يترك لأمه أي شيء. إلا أن سيدة الدار لم تستسلم لهذا القدر. إنما أخذت تعمل في السوق، كبائعة للخضروات، تذهب في الصباح الباكر، ولا تعود إلا مساء. وبعملها هذا لم تحرر نفسها من الفقر فقط، إنما حرّرت ابنها رياض أيضاً. حرّرته من العمل والضنك والتعب. فلم يعد مجبراً على البحث عن عمل، أو إعالتها، أو أي شيء. وحتى عمله مع المسلّحين، فما كان الغرض منه المال، إنما ذهب معهم؛ كي يأمن شرهم، كي يتفادى المشاكل معهم. ولم يكن ذلك في سبيل الحصول منهم، على مال، أو على غنائم، فهذا الشيء، كما ذكر لي فيما بعد، لم يفكّر به من قبل مطلقاً.

ما إن نهض رياض، وغادر منزلنا، شعرتْ أمي، بالتعب، وأرادت أن تستريح في الحجرة الأخرى، لكنها نظرت لي، وقالت - بخبث - إنها لمحت - بطرف عينها - إعجابي به. حاولت الإنكار، ولكن كل شيء كان واضحاً. بعدها؛ حاولتُ أن ألفتَ نظرها إلى شيء مهم آخر، قلت لها:

" ألا ترين أنه لم يشترط وجودنا منقّبتين، إنما جلس معنا، كما لو كنا قبل سيطرة المتشدّدين، وكما في الماضي، نتكلم، ونتمازح مع الأولاد، ونضحك".

- "أنت محقة .. أتمنى أن لا يكون عمله معهم قد أفسده، أو سيفسده، في المستقبل".

- "لا أظن ذلك!"

***

مرت ثلاثة أيام بعدها، وأنا في تلهّف، لسماع أخباره. لم أعرف وقتها كيف يمكنني أن أعاود الكلام معه. لقد كنتُ منسحرة، بهذه اللحظات التي مرت وهو في منزلنا مع أمي. لا بد أن يكون جاء، بسببي، ما الذي يدعه أن يفكر في زيارتنا؟

لم أكن مصدقة فعلاً أنه جاء - فقط - من أجل أن يعزّي أمي، بسبب موت راضي. كنتُ في داخلي، أريد أن يكون قد جاء، بسببي، ولكنْ؛ كيف أعرف؟

ومع ذلك، دبت الشكوك من جهة أخرى، في داخلي، ربما هكذا، جاء فقط، فهو معروف بألعابه الطفلية. معروف أنه يقوم بأشياء ليست وراءها أية دوافع. أن يكون مرّ بالمنزل، وجاءته نزوة من نزواته التي لا يمكن لعاقل تفسيرها. مثل تلك النزوة التي جعلته يوماً يرسم حيوانات مختلفة، بالأقلام الفسفورية الملونة. إنه هكذا! وكل الذين يعرفونه يتحدثون عنه، في قريتنا هكذا. يقولون إنه يقوم بهذه الأشياء - على الأغلب - بسبب براءته الطفلية، ولا شيء آخر وراءها، أبداً. ولكنْ؛ من أين لي أن أعرف مقاصده؟

مع ذلك، وجدت طريقة للخروج من المنزل، وهي التسوق، ولكنْ؛ في الحقيقة، لم يكن غرضي التسوق مطلقاً، إنما كانت حجة، أو عذراً، للاتصال به.

- "أمي، أريد أن أذهب للسوق بدلاً عنك؟"

- "لا، لن تذهبي، أنا أخاف عليك".

- "ماما؟ ممّن تخافين".

- "أنت شابة، وأخشى عليك ... الدنيا ليست، بأمان".

- "أنت، عماذا تتحدثين؟! كيف سيعرفونني، وأنا تحت النقاب؟!"

- "سيعرفون، أكيد يعرفون ... مشية الشابة ليست كمشية العجوز ".

- "وماذا سيفعلون؟ حتى لو عرفوا. هنالك مئات الفتيات الشابات اللواتي يسرن، في الشوارع، لست أنا وحدي الشابة".

- "أنت لا تدركين المخاطر التي تحيط بك ... اسكتي".

- "ماما، لا تعذبيني، أقول لك إني سأذهب، بسرعة، وأعود، وحقك، لن ألفت انتباه أحد".

- "والله، يا ابنتي، أخاف عليك".

- "لا تكوني هكذا، يا أمي، الأمر لا يستحق".

- "لا... لا...".

- "لا تصري هكذا، يا أمي ... أريد أن أذهب قليلاً خارج المنزل؛ لأني - ببساطة - زهقت من جلوسي كل الوقت هنا".

في تلك اللحظة، صمتتْ، فعرفتُ أنها لانت قليلاً. ولم أستسلم أنا، أخذت ألحّ عليها:

- " يالله، يا أمي، لا تكوني قاسية علي".

- "حسن، اذهبي، ولكنْ؛ عودي، بسرعة".

- "طبعاً... طبعاً".

- "ولكنْ عليك أن تعرفي إن تأخرت أنت، فسأموت أنا بالقلب".

- "لن أتأخر ..".

***

خرجتُ من المنزل، بقصد التسوق نحو الساعة الحادية عشرة، أو عند منتصف النهار، لا أتذكر الساعة بالضبط. ولكنْ؛ أتذكر أني مررتُ في تلك الساعة من أمام منزله، ويا لحزني، حينما لم أجده واقفاً عند الباب، أو في الشارع. حينها، لم أذهب مباشرة إلى السوق، إنما بقيتُ أبحثُ عنه في شوارع القرية، علّني أعثر عليه مصادفة، ولكنْ؛ من دون جدوى.

عندها ذهبت إلى السوق. جلبتُ الأشياء التي طلبتها أمي، وأنا حزينة جداً. وأثناء عودتي، قررت المرور به في المنزل. قلتُ سأمر عليه في منزله، وأسأل عنه. كان ذلك قراراً، اتخذته مع نفسي، بالرغم من تهوره. قلتُ في نفسي، سأفعل هذا، وليكن، ما يكن.

سأطلب منه قلماً ملوناً من هذه الأقلام الفسفورية الجميلة التي يملكها، والتي اشتراها له والده من العاصمة قبل وفاته. سأصطنع شيئاً ما. سأعثر على عذر، بالتأكيد. كنت شبه متأكدة بأن زيارته لنا كانت من أجلي، وليس من أجل التعزية.

شيء في داخلي كان يحدّثني عن هذا الشيء. كنتُ شبه متأكدة، من هذا الأمر. ذلك أن نظراته وابتساماته لي، وهو يتكلم مع أمي، لم تكن خالية أبداً. لم تكن هكذا من دون سبب. أنا أعرف، ويمكنني أن أقدّر عمقها في قلبي.

لقد سرتُ في شارعهم، بأقدام ثابتة، لا تلين. وقبل الوصول إلى منزله، لمحته من بعيد جالساً على عتبة الدار. رفعتُ نقابي عن وجهي؛ ليعرفني. حينما رآني، ارتبك. أنزلتُ نقابي، وتقدمت نحوه. نهض من مكانه مبتسماً وملوحاً، لي، بيده. لكنه لم يتمكن من الكلام معي. أنا من جانبي، فرحت جداً، ابتهجتُ، لابتسامته، ولتلويحة يده. لقد اختصر علي العثور على عذر، في التقرب منه، والكلام معه. تقدمت منه، وتوقفت مقابل داره، جعلت مسافة خمسة أمتار عن الباب، وتوقفت. هُرع نحوي مبتسماً، وصافحني. بقي هكذا مبتسماً، من دون كلمة.

- "هكذا من دون كلمة". قلت له".

تلعثم. بقي واقفاً يحاول أن يتكلم. يبحث عن الكلمات، فلا يجدها.

- "لا أعرف، ولكن الكلمات أمامك تهرب من رأسي".

- "لماذا؟"

- "لا أعرف ... لا أجد الكلمة التي أريد أن أقولها...".

- "طيب، اكتب لي رسالة".

- "سأكتب لك رسالة".

تركته، وذهبت.

***

في اليوم التالي، كررتُ طلبي لأمي أن أذهب إلى السوق. قالت إننا لا نحتاج شيئاً، قلت لها، ولكني أحتاج، يا أمي، أحتاج أن أشتري بعض الأزرار لقميصي التي قطعت قبل يومين.

- "يمكنك أن تذهبي، في وقت آخر، لا يمكنك أن تذهبي كل يوم".

- "ولكني أريد أن أذهب اليوم، يا أمي".

سمحتْ لي أمي، بالذهاب، إلى السوق، ولكني لم أذهب، إنما هُرعت إلى منزله. وجدته جالساً عند مدخل الباب، وهو يأكل الفستق. حين رآني، وضع صحن الفستق جانباً، وهُرع نحوي. وقفت أمامه، وأول شيء سألته عنه هي الرسالة. قال إنه لم يكتب الرسالة لأنه أمضى الوقت يفكر، بما يكتب. وقال إنه سيكتبها قريباً، وسيجلبها لي بنفسه. إلا أني حزنت.

تركته وقلبي مثقل، بالحزن، ذلك أنه لم يكتب الرسالة أولاً، كما وعدني، وثانياً عليّ أن أنتظره، وربما سأنتظر طويلاً، وربما لن يكتبها. حين عدتُ إلى المنزل، اندهشتْ أمي من عودتي مبكرة، وسألتني: "لمَ لم أذهب إلى السوق؟". قلت لها بأني غيّرتُ رأيي، ولم تكن لدي القدرة على الكلام، ولا الرغبة بذلك.

إلا أن أمي لم تصدق. مع أنها رأتني حزينة ومغتمة، لم تسألني عن أي شيء. وبدلاً عن ذلك، تركتني، وخرجت من الغرفة. فقلت في نفسي حسن فعلت. فليس لدي أية رغبة بالحديث عن أي شيء. لو سألتني، سأجد نفسي في ورطة حقيقية. ومن دون طعام، ذهبتُ إلى الحجرة، ونمت. وما أن حل المساء حتى وجدت مظروفاً مقذوفاً من تحت الباب، ففرحت به جداً.

فتحته بيدين مرتجفتين، كانت رسالة حب، كما توقعت. أول رسالة حب أقرؤها في حياتي. أول كلام جميل، يخصني شخصياً، أسمعه من رجل. قال لي فيها إنه يحبني، ويريد أن يخطبني، من أمي، وبعد يومين، كنت تكلمت مع أمي قلت لها:

- "أتعلمين أنه كتب لي؟"

"أجل، لقد رأيتُ الرسالة".

- "كيف رأيتِها؟ أتتجسّسين عليّ؟"

- "لا، لكنك تركتيها في مكان، الغرض منه أن أراها".

- "آه، صحيح، أنت ملعونة ... ولكنْ؛ قولي لي: ما رأيك به؟"

- "الأمر أمرك ... إذا عجبك، سأكون سعيدة به".

***

جاء لخطبتي بعد أسبوعين من تبادل الرسائل بيننا. أمي وافقت. انتظر أن يأخذ الموافقة من قائده في مجموعة المسلّحين. ولكنْ؛ لا جواب. أخذ يذوي من اليأس. وفي يوم، حمل بندقيته على كتفه، وخرج بحثاً عن القائد. اقتفى آثاره في هذه الجغرافية كلها إلى أن وجده تحت مظلة، وهو يعذب شخصاً من مدينة أخرى، جاء؛ ليزور أقربائه في مدينتنا، فشكوا به

أن يكون جاسوساً. فوقف أمامه مباعداً مابين ساقيه، ووضع سلاحه على الأرض وطلب منه متوسلاً أن يأتي معه. التقط القائد جاكتته، وارتداها، ترك السجين لشخص آخر، ألقى اليشماغ على كتفيه، وصعد، بصمت، إلى سيارته. قادها نحو مركز المدينة. لم يتبادلا ولا إيماءة واحدة خلال الطريق كله. وبعد يومين، حصلنا على أمر، بالزواج.

***

لقد عشنا بعد الزواج في منزل أمه. وهو منزل جميل ومؤثث، بشكل جيد. كانت أيامي هناك سعيدة، فأمه التي تعمل في بيع الخضروات في السوق تطبخ لنا أطباقاً شهية من الخضرة المتنوعة. كانت مبتهجة، بزواج ابنها الطفل. وكانت تحب أن ترانا سوية، على الدوام. تراقبنا، بحب، ونحن نجلس على أريكة في الصالة متلاصقين. يمسك هو بيده الكارتون المقوى، ويرسم لي بأقلامه الفسفورية صور الحيوانات التي يحبها، بطة، كلب، قطة، فيل، جمل، زرافة ...

بالرغم من كل حالة الحزن والقهر التي تهيمن على المدينة، لكني شعرتُ بالراحة والحرية معه. كنا نعمل كل شيء معاً، نذهب إلى مركز المدينة؛ لنتسوق. نزرع بعض النباتات في الحديقة الخلفية. نرعى الدجاجات معاً. كل شيء كان قد مرّ، بصورة هادئة، إلا أن ذلك لم يستمر طويلاً.

الحدث الأول الذي أربك حياتنا. هو كلبه الذي كان يربّيه في المنزل.

كلب صغير كان يربيه رياض في الحديقة قبل ظهور المسلّحين. كلب وديع أبيض، لا يؤذي أحداً. كان يتسلّى - أحياناً - في المساء، فيلعب معه قليلاً في الحديقة.

في يوم، جاءه أحد المسلّحين مهنئاً إياه، بزواجه، فلمح الكلب باسطاً ذرعيه قرب الباب. فلم يرتح هذا الرجل لهذا المشهد. وحين غادر، ترك

ملاحظة غير مفهومة. إلا أنه بعد أيام أدركنا أنه هو الذي وشى للمسلّحين بقصة الكلب. إذ طلب المسلحون من رياض أن يأتي إلى المقر، بشكل عاجل. وقد ذهب فعلاً، كان يعتقد أنهم يطلبون منه أن يخط لهم لافتة، أو أن يكتب تعليمات جديدة. وحين عاد، عاد حزيناً جداً، وغاضباً. سألته ما به إلا أنه لم يكلمني. حاولت معه، إلا أنه رفض في البداية، رفض أن يأكل، وطلب أن ينام. وحين استيقظ من النوم، سألته مرة أخرى. استسلم لي، وقال إن المسلحين طلبوا منه أن يقتل الكلب؛ لأن تربية الكلاب حرام. لم أجهش في البكاء.

إلا أنه لم يستطع إطلاق الرصاص على كلبه الذي أحبه. بقي أياماً، لا يستطيع الكلام. بعدها وجد وسيلة تنقذه منهم؛ إذ طلب من أحد الجيران أن يقتله مكانه. وفي لحظة التنفيذ، كان قد وضع رأسه تحت الوسائد؛ كي لا يسمع صوت الكلب، وهو يموت. وبقي ثلاثة أيام يبكي، ولا يكلم أحداً.

***

مرت الأشهر الأولى، بسلام، كل شيء كان ينعم، بالهدوء المطلق، والحياة معه كانت وادعةً جداً. كنا نجلس من الصباح حتى المساء في صالة واسعة، في منزل أمه، على أريكة جميلة وواسعة، نحدّق في نافذة كبيرة، تطل على الحديقة. هنالك نخلة، وشجرة زيتون وأصص ريحان. كنا نعيش الربيع الجميل، كما لو كنا في إجازة. نرقب الشمس والغيم والمطر وقوس قزح. كنت أحلّق من الفرح أحياناً، لأننا ننام أحياناً هناك متعانقين، في الصباح نمارس الحب، في الظهيرة نأكل، بعدها ننام بعمق حتى المساء. لقد نسينا الموت في المدينة، والمسلّحين والقتل الذي يزرعونه، في كل مكان. نسينا أين نحن. الأشياء التي يهيم بها، ويحب أن يعيش في صحبتها هي الألوان، كان يرسم ويلوّن ما يخالجه، أشياء تقع أسماؤها أجمل وقع، ويتردد صداها كالنقر على الطبل.

كان يقضي معظم وقته معي، وفي الأيام التي كان المسلّحون يطلبونه فيها، فإنه يذهب، كي يخطّ لهم اللافتات، أو ليكتب لهم التعليمات، بخطه الجميل، وسرعان ما يعود إلى المنزل. فهو لا يذهب إلى المسلّحين إلا حينما يحتاجونه. يطلبون منه أحياناً أن يفعل شيئاً لهم، فيغيب، ثم سرعان ما يعود لمكانه. كان الوحيد من بينهم يضحك، ويلعب الرياضة عن طريق التعلق بدعامة خشبية متدلية من واجهة البيت.

***

السعادة لا تستمر طويلاً، إنها مثل الشمس لا بد أن تختفي، ويحل الظلام محلّها.

في يوم، عادت أمه من السوق متعبة، كانت أقدامها تؤلمها. نامت في الظهيرة كالمعتاد كي تستيقظ بعد الظهيرة؛ لتعد لنا الشاي، إلا أنها لم تستيقظ. ذهبنا؛ لنوقظها، كانت تتكلم، بصعوبة. قالت إنها مريضة. لكنْ؛ في الواقع، كانت مريضة جداً. لم نكن نعرف مقدار مرضها، كنا تصوّرناه تعباً عارضاً، وسيزول بعد أن ترتاح. لكن الأمر كان أكبر من ذلك بكثير. دون أن نعلم ذلك.

وقفنا عند رأسها. كانت محمومة، وترتجف. شعر هو، بالخوف. جسّ نبضها، وشحب وجهه. قلتُ له لا تخش شيئاً، يحدث لأمي هذا الشيء كثيراً، ومن ثم؛ تعود لوضعها. لم يعد هنالك طبيب، لا في القرية، ولا في المدينة. المعالج الوحيد هو مشعوذ في الجامع، مَن يذهب إليه. يعود بحال أسوأ مما كان عليه. تركناها؛ لترتاح، وذهبنا؛ لننام، إلا أنه لم يستطع النوم. نهض في الليل، وذهب إليها. بعدها، عاد إلي، قال لي إنه خائف. كنت نعسانة، قلت له:

- "تعال، نام، وفي الصباح، ستكون بحال أفضل".

إلا أنه لم يفعل. ذهب إليها، وبعد ساعة، سمعت صرخته. فعرفت أنها فارقت الحياة.

***

كانت صدمة كبيرة لنا، أولاً لأن المرض لم يمهلها طويلاً، ربما كانت مريضة من دون أن نعرف. كما أننا كنا نعتمد عليها في كل شيء، وبالتالي؛ الحياة بعدها لم تعد كما كانت قبل موتها. لم أكن أعرف أن سعادتي كانت مرتبطة بوجودها، ذلك أن رياض تغيّر بعد موت أمه تغيراً كلياً. أمضى الأيام الأولى بعد وفاتها صامتاً صمتاً مطبقاً. حزيناً كل الحزن، بل إني لم أر شخصاً حزيناً على ميت مثله. الشيء الثاني أننا اكتشفنا العرش الخاوي الذي كنا نجلس فوقه.

كانت أمه تقوم، بكل شيء، في الواقع، أما رياض؛ لم يكن سوى طفل، لا يعرف أن يعمل أي شيء. السؤال الأول الذي واجهناه هو: من أين نأكل؟ فهو لا يعمل أي شيء، وهذا العمل مع المسلّحين لا يتقاضى عليه أي ثمن. وحتى لو أراد أن يعمل، ماذا يعمل؟ لقد أغلق المسلّحون كل الأعمال في المدينة ما عدا القتال، ورياض ليس مقاتلاً، ولا يعرف عمل أي شيء حربي.

هكذا دخلنا في مرحلة جديدة. الأيام الأولى، كنت أجلب له قليلاً من المال من أمي. لكن هذا غير معقول، فأمي لا تملك مالاً كثيراً، المال لديها قليل، وتخشى أن ينفد، وبالتالي ماذا تصنع؟

هكذا بدأت حياتنا تتغيّر. أصبح رياض شخصاً آخر. أصبح أكثر شراسة، من قبل. صامت، وإذا تكلم، فإنه يتكلم مع نفسه. أصبح عصبياً، ينفجر لأدنى كلمة، يسمعها مني. لم يعد يطيقني حين أكلمه. في الليل يعود طفلاً صغيراً، يطلق الصرخات والهمهمات، وينادي أمه لنجدته.

بتّ لا أعرفه. لا أفهمه، وفي كل يوم، أفهمه أقلّ. يبدو ساهياً على الدوام، كما لو أنه يفكر في شيء آخر. أو في شخص آخر، مَن يدري؟!

كنت أخشى أن يفاجئني بشيء، فحياتي لم تعد تحتمل المفاجآت. حاولت التقرب منه، إلا أنه كان يبتعد عني. عندما أبادر، وأكلمه، يتظاهر بأنه لا يسمع، كمن لا يرغب في الأمر. كأنما هذه هي النهاية التي يجب أن تصل إليها علاقتنا. لم يعد يصغي لي، بل كما لو أنه يصغي إلى أحد آخر.

بعد مدة وجيزة، أخذ يتغيب عن المنزل طويلاً. يذهب عند المسلّحين ويمضي اليوم كله معهم. أحياناً يأتي أحد المسلّحين معه، وهو صامت، يصحبه، ويذهبان معاً. لقد حدست عند ذاك الوقت موته. عرفت أن يومه قريب.

وفي يوم، عاد إلى المنزل مساء، وجهه المتوتر يقول أشياء كثيرة. وجهه الصامت يحمل أسراراً غامضة.

ذهبت إلى المطبخ؛ لأعد الطعام له. جاء ورائي، وجلس على الكرسي قبالتي. كنت أحدثه إلا أنه كان ساهماً، لم يكن يصغ لي. فعرفت أنه يخبّئ شيئاً ... كان يريد أن يقول لي سراً. تركت الرز على الطبّاخ، وجلست قبالته، نظرت في عينيه، وسألته:

- "ما بك؟"

لم يقل شيئاً، إلا أنه أخرج من جيبه رزمة من المال، ووضعها على الطاولة.

- "مال؟" قلت له "هل سرقت؟".

ابتسم، وقال بصوت هادئ:

- "لا، لم أسرق".

- "من أين لك المال، إذن".

سكت.

كررتُ عليه سؤالي:

- "من أين لك المال، إذن؟ قل لي".

- "من المجاهدين!"

- "مِنْ مَنْ؟" قلت له، باستنكار كامل.

- "اخفضي صوتك".

- "قل لي مِنْ مَنْ؟"

- "من المجاهدين ... من المجاهدين!"

- "لماذا؟"

- "سأذهب أنفّذ عملية غداً...".

قالها كما لو قال إنه يود أن يذهب إلى السوق. صمتُّ لحظات أمامه، كما لو كنت ساهمة. كنت أعرفه، لم يكن متحمّساً في حياته لشيء. لم يكن متديّناً أبداً. كان يائساً. فجأة شعرت بحزن وإشفاق عليه. شعرت بحزن عميق كاد أن يشق صدري. إلا أنه لم يكن مبالياً، ... شعرتُ بأن علي أن أصرخ. أن أبكي. أن أتوسل به، ألا يذهب. أن أقول له أرجوك لا تذهب، لا نريد المال. وقد انهمرت الدموع، من عيني، بالفعل. لقد انفجرت في البكاء. رغبتُ في مساعدته. لقد أحسست تلك اللحظة بنوع من الدفء الحميم في جسدي نحوه. شعرت أني امرأة، ولدي رغبة جامحة في لمسه، في ضمه بين ذراعي، بتمرير يدي على جسده كله. لقد انهمرت دمعة ساخنة على خدي. إلا أنه استنكر بكائي مبتسماً وقال:

- "اسكتي ... غدا سينتظرني سبعون حورية عذراء على باب الجنة".

- "ماذا؟"

- "سبعون حورية عذراء ستكون بانتظاري غداً". قالها بصوت واثق.

- "حورية؟" قلتها بتكهّم كامل.

- "نعم. حورية" وأخذ يبلع ريقه. ثم أردف "سبعون حورية".

- "... سبعون حورية".

- "نعم" قالها بثقة وابتهاج "سبعون حورية".

في تلك اللحظة، توقف حزني وإشفاقي عليه ... جلست على الكرسي قبالته ... شعرت بكل شيء، وقد برد في عروقي. شعرت أن حزني عليه تبخّر. شعرت بأن إشفاقي عليه ذاب. لم أكن أشعر بأية عاطفة نحوه، كل شيء توقف، كل شيء اختفى. هذا الذي يريد أن يموت غداً، لديه أمل واحد هو أنه سيجد سبعين امرأة عذراء على باب الفردوس الذي وعده به الرب. كان علي أصرخ في وجهه، وأقول له:

"سبعون عذراء، يا ابن القحبة ... تريد أن تضاجع سبعين عذراء؟ وأنت معي لا تستطيع أن تفعلها مرتين ..." سبعون، يا ابن القحبة، هل سيعطونك فياغرا مقدّسة؟ ماذا ستلتهم؛ لتضاجع سبعين عذراء؟! ألهذا، أنت اليوم مبتسم؟ مَن خدعك، يا حمار؟!..."

***

خرج زوجي، ولم يعد. بعد يومين، كنتُ استدعيتُ إلى مقر المسلّحين، لأمر عاجل. عرفتُ حينها أنه مات. جلست حينذاك مسندة ظهري على الحائط، وانتظرتهم؛ ليتلوا الخبر لي. كان المسلّحون يدخلون الفناء، ويخرجون دون توقف. كانوا فرحين أن زوجي قام، بعملية انتحارية.

- "انتحر زوجك، في سوق مدينة قريبة. قتل الكافرين هناك".

كان أغلب المقتولين هم من الباعة المتجولين، بأسمالهم المثقلة مثل الحمير. الباعة الذين يضعون حزم بضائعهم تحت القناطر. قتل باعة خضار، باعة تمور، وشباناً ينقلون حمولات غريبة، تتوازن فوق دراجاتهم الهوائية: علب ألعاب بلاستيكية، شرائط موسيقى، ساعات، نظارات سوداء. كنت أعرف أكثرهم ممّن كانوا يبسطون سلعهم على الأرض، ونشتري منهم أقلام حبر، قوالب صابون.

لم أتخيل أبداً أن الكافرين الذي استهدفهم زوجي هم هؤلاء الباعة الجوالون.

كنت أعرف ماذا سيقولون عنه. فالذين واسوني قالوا لي ببساطة إنه سيذهب إلى الجنة، وعليّ أن أبتهج لذلك، وأن أسأل الله أن ألتحق أنا أيضاً بالجنة ...

كنت أريد أن أصرخ في وجوههم:

لا أريد لا أريد...

لقد مللت رؤية الرعب في عيون الآخرين. تعبت من دخول المزبلة البشرية تحت أقواس النصر والرايات. لقد سئمت من رؤية الرجال يهربون، والنساء الحوامل يجهضن، والصغار يبكون.

إلا أني خفت. لقد كانوا يمجّدون الجريمة والعنف. كانوا مهووسين بالسيطرة والانتصار. وتحول كل فرد صغير من هذه القرية إلى طاغية. لقد كسبوا، بالقوة والسلطة، خضوع الناس، والكل كان يشتري بالكلمات اللازمة مصيره.

مَن يقول "لا"، عليه أن يدفع ثمناً باهظاً.

كنت قد كُلفت بأعمال كثيرة، لكن أياً منها لم يكن بمثل هذه الصعوبة. فلم أجد الشجاعة أمامهم للرفض، لقد خفت، خفت أن يطلق عليّ أحد المسلّحين رصاصة ما بين عيني، أو أن يحدث ما هو أسوأ من ذلك.

قلت بيني وبين نفسي: " نعم، سأسأل الله أن ألتحق بالجنة، ولكنْ: ليس معه ... سألتحق بجنة أخرى، سألتحق، بجنتي أنا، لا بجنته".

***

حينما وصلت بعد سنوات، إلى أوربا، وعرفت أن الحورية في أوربا هي امرأة، نصفها الأسفل سمكة ... أشفقتُ، على رياض. كان يعجبني أن أقول له راحتْ عليك، يا رياض ... ماذا ستصنع، بسبعين امرأة، نصفها الأسفل سمكة؟ ستضاجع مَن في الفردوس...؟

آه، لو كنا جعلنا الحورية نصفها سمكة، كما في أوربا! لماذا لم يصل خيالنا إلى هذا الحد؟ لماذا لم يصل خيالنا إلى صنع الحورية من نصفين نصف سمكة ونصف آخر بشري، لو كنا فعلنا ذلك، لما أصبح مجاهد واحد، في بلدي ...

إنهم يجاهدون، من أجل النصف الأسفل، من المرأة، لا من أجل النصف الأعلى الذي يبقى مغطّى غير مكشوف، إن الجهاد من أجل الجزء الأسفل فقط.

٧

مشت صوفي بعد أن خرجت من المستشفى بين المروج، في البارك القريب من ساحة فلاجيه. كان خرير الماء يأتيها من الساقية التي تصبّ، في بحيرة صغيرة، يسبح فيها البطّ. شجيرات صغيرة مبتلّة، تحيط بالغدير من الجهتين، ينتهي الطريق تحت نظرها، بكنيسة كبيرة وقديمة وسلسلة من البارات أمام موقف الترام.

قررتْ صوفي هذا اليوم أن تبيت في منزل إدريان، لا في منزلها. هكذا اتخذت في الصباح هذا القرار. لم تعد تحتمل. كانت تريد أن تعرف كل شيء عنه. فكلما كانت تعترف له أكثر عن حياتها عندما تزوره في المستشفى كانت تأتيها الرغبة الجارفة أن تعرف عن حياته أكثر حينما تخرج منه.

***

قررت إذن أن تستجمع كل شجاعتها وتذهب إلى منزله؛ لتتعرف على حياته كاملة. كانت متأكدة أن كل ما تريد أن تعرفه عن أدريان موجود في منزله. ولأن جميع زياراتها الماضية له كانت بحضوره، لذا؛ لم تتمكن من رؤية أو معرفة كل شيء.

كانت تعرف أن مكتبته لا تحوي إلا على الكتب الخاصة بالحرب الأهلية اللبنانية. كما أن لديه العديد من الأفلام الوثائقية عن هذه الحرب، كأقراص وأشرطة فيديو، وهنالك أشياء كثيرة تخصّ هذه الحرب التي دفعت فيها عائلته ثمناً باهظاً. كما كانت تعرف - أيضاً - أن هنالك العديد

من ألبومات الصور الخاصة بعائلة والده، في لبنان، وهناك مدوّنات وتذكارات وأشياء كثيرة، كانت تخصّ والده.

وهذه الأشياء جميعها قد نقلها أدريان إلى شقته، في بروكسل. حتى أصبحت هذه الشقة - بالنسبة له - ملاذاً ومكاناً، للعزلة. كان يريد أن يعيش فيها ذكريات والده وحده. ولهذا الأمر دلالة خاصة، ذلك أنه فسّر - فيما بعد - هذا الأمر، لصوفي، على أنه نوع من الهروب من أمه التي شعر أنها تركته بعد انتحار والده، وأدخلته إلى مدرسة داخلية.

ولكن صوفي فسّرت هذا الهروب - أيضاً - على أنه هروب من زوجته وابنته، وهذا هو - في الواقع - ما كان يهمّ صوفي، وما كانت تريد معرفته.

***

أخذت الباص أولاً، وذهبت إلى منطقة الصون جيل. السيارات كانت تسير ببطء في الشارع، بسبب الازدحام. في الخلف، إلى اليسار، كانت هالك مجموعة من المطاعم والبارات، تشكل منطقة حيوية، في بروكسل. إنه البارفي دو صون جيل. ثم إلى اليمين محلات لبيع الفواكه. في الأفق، سحاب، طيور، وأشياء جميلة. في الساحة المبلّطة الكبيرة نساء ورجال، يجلسون أمام البارات، يشربون البيرة، ويقطعون شرائح الجبنة ولحم البورك الطازج. هنالك الكثير من العازفين هذا المساء، في الساحة.

في العمق، عند بار صغير، اعتادت الذهاب إليه مع أدريان، يقف الشبّان، ويتحدثون. شعرت صوفي أنها منجذبة - بشكل كامل - إلى هذا الفضاء، إلى الشباب الذين يضحكون، ويتبادلون المزاح. لكنها، من دون مزاج أيضاً.

عبرت صوفي الساحة، وسارت في جادة واترلو بثبات، شعرت أن التفرّج على المحلات لم يعد مجدياً. رفعت رأسها، وسارت، بثبات وتصميم،

من دون أن تلتفت لأحد، أو تنتبه للمحلات التي تمرّ بها. كانت تشعر بأنها بحاجة إلى نوع من الصفاء الداخلي، الصفاء الذي كأنها - من خلاله - تناجي في أعماقها أدريان. تناجي هذا الكائن الغريب البري، الشاب الاسكندنافي الشديد الحياء. والذي هو - من جهة أخرى - لم يكن ينقصه الحب، ولا الألفة، ولا السلام أبداً.

غير أنها شعرت بأنها - على نحو ما - مقصرة أيضاً تجاهه. ذلك أنها، طوال علاقتهما، تركته منغمراً، في عزلة محكمة. ساهماً، يبحث في داخله، عن سر، من أسرار الروح، وانحلال العالم، ويرنو إلى مملكة سرمدية، من دون نزاعات، ولا حروب. تركته خائفاً، من مصيره، خائفاً، من تاريخه، وتاريخ عائلته، ولم تمد له يدها؛ كي تساعده على الخلاص، من هذه التركة الثقيلة.

***

كانت تعرف، أن الناس الذين عاشوا وولدوا في هذه المنطقة، وهي منهم، بحاجة إلى قدرات سحرية، للتخلص من كمية العنف والعفن الذي تلقّوه. وحتى أولادهم الذين عاشوا في مكان آخر، فإنهم لم ينجوا من هذا العفن.

وتكاد صوفي ألا تنسى حياتها الماضية أبداً، بل تتذكر، كيف اختزنت - بكل أسف - أسرارها، عالمها، عالم والدها ووالدتها وزوجها، عالم المتطرّفين الذي ما يزال حتى الآن يحاصر روحها المرهقة.

وربما كان أدريان مثلها أيضاً، كان بحاجة إلى يد ساحر، تمتد له؛ كي تنقذه ممّا هو فيه؛ لتنقذه من تركة والده ومصيره التراجيدي المؤلم. فهو ربما مثلها، كان يريد الاختفاء عن هذا العالم، هكذا كانت صوفي عندما كانت طفلة، وبسبب العنف الذي يحيط بها، كانت تتمنى الاختفاء عن هذا العالم، عن هذه الحياة والبشر المحيطين بها. بل إن أعظم أمنياتها

كان امتلاك قدرات خارقة، تمكّنها من الاختفاء عن العيون. إنها الأمنية التي لازمتها في حياتها طويلاً. وهكذا كان أدريان، يمارس السحر والتخفّي عن طريق العزلة التي يضربها على نفسه. عن طريق التكتّم والنسيان، كان يدرّب نفسه على الاختفاء الحقيقي، وتغييب جسده عن الناس.

هكذا تخفّت فاطمة بصورة صوفي البلجيكية، إنها لوحة من لوحات الهروب، من الذات. وهكذا أنكر أدريان أن يكون لبنانياً ابن غابريل جبّور.

***

لزمن طويل لم يعرف أدريان مَن يكون. لقد نجح في أن يغدو شخصاً آخر. وحتى القصص والحكايات التي كان يخترعها، كانت هي طريقته، بالانكفاء والابتعاد عن هذا العالم. أما شقّته في بروكسل؛ فهي تعكس طريقته التي اختارها للابتعاد عن كل ما يذكره بحقيقته. وهذه الشقة هي - من جهة أخرى – مستودع أحلامه ورغباته السرية وحزنه المرير الذي عاناه.

ما كان ينشده ذلك الوقت بهذه العزلة هو الحصول على الخلاص. الخلاص من واقع، يهرب منه. واقع، لا يمتّ له بصلة. أو بالأحرى، واقع معاد له. واقع موجود على نحو مريع ، لا يستطيع الفكاك منه. هو يعرف أن في هذا العالم الذي نعيش فيه أشياء كثر جميلة وجذابة. أشياء أعظم أهمية من قصته الشخصية، تستدعي انتباهه واهتمامه. لكنه لا يستطيع الاقتراب منها، لأنه ضعيف خائف مرتجف.

لم يكن مثل صوفي. كانت صوفي أقوى منه، لم تكن تستسلم تحت أي ظرف من الظروف، إلى هذا العالم، ولم تكن تخش من مواجهته. لأنه عالم، لا يتكون من حياة كريمة، إنما من فضلات الحياة، فلابد لها - إذن - من رفضه؛ لتبرهن أنها أقوى منه. لذلك بقيت صوفي غريبة عن محيطها، رافضة لبيع نفسها للقوانين العامة والقيم البالية. وكانت تؤمن بأنها كلما

ازداد وعيها، كلما تحررت من وضعها، وكلما هربت منه كلما انغمرت في الأزمات واليأس. لذلك كانت تريد أن تتعرف على كل شيء، كانت تريد أن تواجه التناقضات التقليدية الكائنة في العالم المحيط بها. وكل العوائق التي واجهتها لم تثنها، من مواصلة البحث، عن مكان لائق وآمن لها.

أما أدريان؛ فكان منذ طفولته يعيش في هذا التناقض، ببساطة؛ لأنه يقع بين ثقافتين، فحين كان طفلاً، كان يسخر من الكتب التي كان يقرؤها، الكتب التي تعد الشرق هو الجنة التي أضاعها الإنسان الأوروبي، كان يدرك أن هذا الشرق البعيد والمشمس هو سبب نكبته وحزنه. هذا الشرق قد فقد براءته وعذريته ونبله، إنه امتداد للعصور المظلمة، للعصور الوسطى؛ بحروبها الدموية، لذلك كان يهرب إلى عوالم أكثر حرية وطواعية هو عالم الخيال، وعندما يعود من عالم الخيال، يجد العالم مختلفاً.

***

يسار المنزل يصعد تل معشوشب إلى الأعلى. ينتهي إلى بارك كبير، حديقة جميلة أشبه بغابة. حول المنزل تضيق الأشجار الصنوبرية مجال الرؤية، ولكن صوفي ترى - بدقة - البالكونة الجميلة لشقّته. كان أحد الجيران واجهها، وهي تفتح الباب. سلّم عليها بود. كان قد رآها يوماً مع أدريان يصعدان المصعد معاً.

دخلتْ إلى الشقة، هبّتْ نحوها رائحة أليفة. خلعتْ حذاءها، وسارت على الأرضية. قدماها الحافيتان تتحسّسان الأرضية الباردة.

جلستْ على الآريكة، وكأنها ترى الشقّة للمرّة الأولى. في الماضي لم تكن تبحث عن شيء، لكن الأمر مختلف هذه المرة. كانت تريد أن تبحث في الشقّة، بصورة عفوية، تبحث في ركام الصور والملفّات والذكريات، عن علامة، أو قرينة، تدلّها على حقيقة غائبة، في حياة أدريان. وكانت تعرف أنها دخلت، في هذا المجال الحيوي.

الآن هي بين ركام كبير أشياء متنوعة، ألبومات صور، وثائق، أفلام، ملفّات، دفاتر مذكرات، رسائل، وأشياء كثيرة، يحتفظ بها أدريان عن والده وعن عائلة والده.

***

انتقلتْ إلى المكتبة. دخلتْ - بسرعة - إلى الغرفة. أطفأت الضوء عند المدخل. لكنها أصيبت، بالرعب. غالباً ما يخطر في بالها فكرة أن يباغتها أحد هنا.

نهضتْ من مكانها، ألقت نظرة على الصالة، أغلقت الباب ثانية. أسندتْ ظهرها إلى الباب. بقيتْ جامدة للحظات، تتنفّس، بقوة. لم تدخل هذه الحجرة أبداً. مرة كانت تريد أن تدخلها، فانتابها الخجل أن تسأله ذلك. شعرتْ أن فكرة الهروب عند أدريان هي مرادف طبيعي، للنسيان.

نوافذ الحجرة مغلقة، بإحكام. عالم صغير، ينزوي فيه أدريان عن الحياة. رائحة الشمع والكتب القديمة، تغرق صوفي، بنوع من القلق. شعرت بأن ما تشعر به الآن لا شبيه له في كل حياتها الماضية.

في تلك الليلة، لا شيء كان مشابهاً، لما تشعر به. الحجرة هي كل ممتلكات والده. ذكرياته وعالمه القديم الذي دفن نفسه فيه. وقد شعرتْ صوفي، بالحقد، ينبعث ثانية، من أعماق هذا المكان. هي ذاتها لا تعرف لماذا شعرت، بشكل مضطرب، وربما من دون أن تعرف، نوعاً من هذا الحقد المخمّر الذي أذكى - بقوّة - رغبة والد أدريان، بالانتقام.

وفي خضمّ تلك الأحاسيس الحاقدة، كان كل ما طُوي، للأبد، بدا لصوفي كأنه بُعث من الماضي من جديد.

لقد وجدتْ صوفي نفسها، في حالة من التأثّر والغيظ والقلق، بسبب

المشاعر العنيفة التي كانت تعتمل، بداخلها، بدون جدوى. ربما، وبكل بساطة؛ لأن صوفي - وفي حالة صحو مفاجئ - سبرت لا جدوى هذا الحقد في هذا المكان.

ماذا عسى الذي قتلت عائلته أن يفعل؟ لا شيء، لاشيء يُذكر، لا شيء على أية حال. ومن الممكن - أيضاً - أن يصل الحقد - فعلاً - إلى هذه المرحلة من الكبرياء والعناد.

استدارت صوفي نحو الدولاب القديم المصنوع من خشب الجوز، وفتحته، فأحدث باب الدولاب صريراً، وأخذت صوفي تنظر - بفضول - إلى الملابس المعلّقة:

أثواب بطل المليشيا القديمة. وفي أعلى الرفّ، كانت هناك علبة من الكارتون، فيها طي الملابس التي كان يرتديها أبوه يوم انتحاره ما يزال الدم عليها.

ببطء، وكما لو كانت صوفي تستسلم لطقس معين، جذبت العلبة، وفتحتها، لامستْ صوفي بيديها القميص المدمّى والمثقوب. ثم قلبت الأغراض، في العلبة، ارتاعتْ، وثبتْ إلى الوراء، بقوة، بكت، ثم وضعت الملابس في مكانها، وهربت.

***

في الصالة، لم تتمالك نفسها من تقليب ألبومات الصور.

في واحدة من الصور، تعرّفت على أدريان طفلاً، وهو في زيارة إلى لبنان. كان يقف بين أفراد عائلة كبيرة. إنه إدريان، لا غير. الصورة تعود إلى ثمانينات القرن الماضي. المكان في لبنان دون شك. لا تعرف إن كانت في الأشرفية عند عمة والده؟ أم في الدامور؟ أم في مكان آخر من بيروت؟.

كان له من العمر حوالي ثلاثة أعوام. يرتدي سروالاً قصيراً أبيض وتي

شيرت مزيناً بصورة شخصية تويتي الكارتونية الصفراء. يقف أمام منزل، لا تعرف منزل من، أمامه حديقة صغيرة، اجتاحتها الأعشاب الضارّة. يقف مع زمرة من الأطفال من أقاربه. والده يقف - أيضاً -في الصورة، يقف بمظهره الشاحب. بمظهره السقيم، كأنه يحدق إلى جهة أخرى لا ينظر نحوها أدريان.

يظهر - أيضاً – في خلفية الصورة شخص غريب، قميصه مفتوح عند صدره، فيظهر الشعر الأسود الكثيف، أما شعر رأسه فطويل يشبه شعر فتاة. يحمل علم القوات اللبنانية.

***

صورة أخرى صورة قديمة لمنزل العائلة. الطفلة هناك. مَن هي؟

ربما هي إيلين عمّته! فتاة جميلة، بشعر أسود، وعينين ذكيتين. كتب على الصورة بقلم الحبر، صورة أختي الشهيدة إيلين أمام منزلنا.

هل هذا خطّ والده؟ ربما. تعود الصورة إلى منتصف السبعينيات.

٢٥ تمّوز

كنتُ انتظرتكَ، في مقهى صغير، في بروكسل مرة. كان ذلك، في مساء شتوي بارد. تأخرتَ عليّ قليلاً، فشعرتُ، بالوحدة. اتصلتُ بك، من دون جدوى. حاولتُ أكثر من مرة، إلا أن تلفونك لا يرنّ. حاولتُ. إلا أني - بعد عدة محاولات - شعرتُ، بالأسى واليأس معاً.

دخلتْ فتاة شابة جميلة إلى المقهى. رمتْ جسدها على الكرسي القريب مني. اكتسحتْني رائحتها الفتية القوية. حاولتْ أن تكلمني. تظاهرتُ بأني لا أسمع. إلا أني بين حين وحين، أخذتُ أتلصص، بطرف عيني، إليها. شاهدتها، وهي تتابع حركة شاب، يجلس أمامنا. نشرتْ شعرها الطويل طليقاً من العقدة فوق رأسها، فراح يتمايل، من جانب إلى آخر.

بقيتُ أتبعهم. كنتُ أتهرّب من الحزن الذي غمرني، بمتابعة حركات الناس في المقهى. الرجال يتكلمون فيما بينهم كثيراً. أحاول وأنا من بعيد أن أتخيل موضوع الحديث الذي يدور فيما بينهم. أتساءل عن اسم كل واحد منهم، وأحاول أن أجد صورة مطابقة له لأحد آخر في ذهني. أحاول أن أخترع لكل واحد مهم قصة. أحاول أن أتعرف عليك في وجوه الرجال الجالسين هناك، فلا أعثر على شبه. كم أنت مختلف عنهم!

كانت الأغنية رومانسية. تتحدث عن حبيب، يقول إنه آت، إنه في الطريق، لكنه لا يصل. ليس صعباً أن أجد نفسي في هذه الأغنية الحزينة.

شعرتُ بأني فريسة للعواطف والنزعات التي تحرمني من الهدوء والإصغاء إلى العالم.

استمرت الأغنية بإيقاعها الهادئ وصوت المغنية الحزين الذي يكرر اللازمة ذاتها. كأن هذه الأغنية لا تنتهي. أغنية أخرى، بالصوت ذاته. هل كانت الأغنية نفسها؟ أم المطربة نفسها؟

لقد وقعتُ كلياً تحت تأثير الأصوات القادمة من المقهى. لم أعد قادرةً على ملاحظة ما يحدث حولي. كانت الشابة تمدّ قدمها أمامي. حاولتُ تجاهلها. شعرتُ، كما لو أن أحداً يجرّ شعري، يضربني على وجهي، يقرص خدي. فاجأتني الضجة، رائحة الأجساد وغموض اللحظة، من دون أن أتهيأ لها حقاً.

فجأة دخلتَ أنت. بدخولك، تغيّر كل شيء. لم أسألكَ أين كنتَ. لم أذكر لكَ أياً من الكلمات التي هيأتُها، في بداية الأمر، للومكَ وتقريعكَ. كنتُ مبتهجة إلى الحد الذي وصلتُ فيه إلى حافة البكاء.

أحضر لك الكلمات كل مرة، وحينما أراكَ، أنساها كلها. أقول لك ماذا أردت أن أقول لك، لكني نسيتُ. إلا مرة واحدة. كانت ذكرى وفاة والدتي. كنت أريد أن أشرح لك الأمر، إلا أني عجزتُ. كنتُ كما لو أني أرقص حافية على صخور ناتئة.

***

كنتَ تتكلّم معي. أنا أصرخ. أطلب منك أن تتوقّف عن الكلام، ولكنْ: من دون صوت.

كنتَ تحكي لي أشياء كثيرة، بينما في ذهني ذلك اليوم صورة واحدة، صورة لا تفارق خيالي، صورة أمي، وهي تتقلّص. صورتها، وهي أمامي، تضمحلّ يوماً بعد يوم. نعم، أقول تتقلّص، فهذه المفردة الوحيدة التي

تليق، بما رأيته فيها ذلك اليوم. ذلك أني كنتُ أرى حجمها يصغر كل يوم. حتى شعرت أن هذه المرأة الطويلة القوام التي كانت تكبرني كثيراً، ستصبح، في يوم طفلتي. كان جسدي يكبر، وجسد والدتي يصغر. ينعدم، يتهدّم، يتلاشى.

***

في يوم، استيقظت قبلها، في الصباح. مررتُ بها، وهي ممدّدة، في الفراش، لمحت وجهها شاحباً شاحباً جداً. حاولتُ الكلام معها. حاولتُ إنطاقها، إضحاكها، مسّدتُ شعرها، مسستُ يدها. ابتسمتْ، بصورة متضايقة، ولكنها لم تنطق حرفاً واحداً. هل كانت تصرخ بي أن أصمت من دون أن يخرج الصوت منها، كما فعلت أنا مرةً معك.

قلتُ في نفسي ربما تريد هذه المرأة أن تحكم على نفسها، بالموت. تريد أن يكون القرار منها، لا من غيرها. لقد حكم عليها الجميع، بالموت، إلا أنها قاومت. أرادوا دفنها، وهي حية، إلا أنها بقيت رغماً عن الجميع. رغماً عن جميع مَن أراد طمسها، أو تغييبها. اليوم تريد هي أن تحكم على نفسها، بذلك. مَن يعرف؟ هذا قرارها. قرارها الذي شعرت أنا به ذلك اليوم جلياً. أدركته دون أن تنطق هي به. شعرت به في داخلي. أحسست أن هذه المرأة تريد أن تغادر الحياة سريعاً. سوف تغادرها، من دون أن تلتفت إليها. إنها لا تريد أن تعيش طويلاً. تريد أن تترك كل شيء وراءها. لم يعد لها فيها أي شيء تخشى عليه، أو تريد الاحتفاظ به.

هكذا كان شعوري عنها. هو شعور لكنه واضح في داخلي، لا لبس فيه. بقي معي لحظات، حاولت مقاومته، تجاوزه، وتكذيبه، ولكنه كان أقوى مني. إنه إحساس داخلي، يخصّ علاقتي، بأمي. علاقتي بها، كما لو كنا جسداً واحداً، أشعر، بما تشعر، وهي تشعر بما أشعر. هكذا كنتُ عرفتها. عرفتها جيداً. عرفتُ كل حركة، من حركاتها، كل تلميح، كل شعور،

إنها لم تعد تريد البقاء على هذه الأرض. ربما لم يعد لها أي شيء، في هذا الكون؛ كي تبقى من أجله.

سألت نفسي، وأنا أعدّ لها إفطارها، ألا أستحقّ أن تبقى، من أجلي؟ لكني لم أجرؤ أن أسألها.

ربما شعرت هذه المرأة أنها قدّمت الكثير. لم يعد هنالك ما تقدمه.

***

نعم، كانت أمي تتقلّص يومياً أمامي. كانت تذبل. تنكمش. أمي لا تريد أن تموت، كما يموت الآخرون. أمي تريد أن تصغر، تصغر حتى تختفي. تريد أن تتلاشى في هذا العالم. أن تذوب في هوائه وترابه ومائه. وقد عرفت ذلك اليوم هو موعد رحيلها، لقد حدستُه. استشعرتُه في داخلي. كما أني أدركتُه في اللحظة التي وقعتْ عيني في عينها. عرفت أن هذه المرأة راحلة هذا اليوم. أن الساعة التي هربت منها طوال طفولتي، بل طوال حياتي، قد دنت، أو بالأحرى حلّت. هذه المرأة في طريقها إلى الرحيل. ستعبر إلى عالم آخر، وهذه هي آخر اللحظات لي معها. علي أن أستعدّ لهذه اللحظة.

هل كنت حقاً مستعدة؟ لم يكن الأمر سهلاً أبداً.

تلك اللحظة التي أتكلم عنها الآن، قد ذهبت غير أني إلى الآن أعيش ارتجافها. يمكنك أن تتخيل كيف كنت في ذلك الزمان أعيشها. وهذا هو الفرق. كنت أعيشها خائفة، مرتاعة. لم يكن الأمر سهلاً أبداً، لم يكن سهلاً مفارقتها. لذا؛ ومن أول حركة قادمة منها عرفت أنها راحلة، عرفت أن ساعاتها في الحياة أصبحت معدودة.

***

نهضت من فراشي، وتقدمت نحوها. تململت هي في سريرها بعد

أن شعرت أني اقتربت منها. فتحت عينيها، كما لو قد استيقظت، ولكنها شبه فاقدة لوعيها. أخذت تنظرني، وتطيل النظر إلى وجهي. كانت عيناها خابيتين، من دون تلك الالتماعة التي تميّزها. مددت يدي إلى يدها، كانت ترتعش. كنت أريد أن أقول لها إني إلى جانبها. وقد نجحت - جزئياً - بذلك. شعرت أنها ارتاحت لملمس يدي، فهدأ خوفها. ابتسمت لي ابتسامة ذابلة، حاولت أن تتكلم، إلا أن صوتها خانها. صمتت برهة. هبطت دمعة على خدها. مسحت دمعتها، بيدي. فأمالت خدها إلى يدي، وغرقت في النوم ثانية.

***

كنت جلست إلى جوارها، ونمت أنا أيضاً. لا أعرف كم نمت. ذلك أني استيقظت على صوت خفيض قادم منها. حاولت فكّ رموزه، لكنني لم أستطع. قرّبت وجهي من وجهها، سمعتُها تهذي. شعرت أنها محمومة. ناولتها شيئاً من الماء، فشربت. رشفة واحدة فقط أعادت إليها وعيها. نظرت لها. كانت متعبة، منهكة، لكنها لم تُخف ابتسامتها عن شفتيها أبداً. نظرت لي بعينين وادعتين، خلعت لي قلبي. لا أعرف لماذا استبدّت بي في تلك اللحظة رغبة أن أسألها، لم واجهت كل هاته المعاملة القاسية في حياتها، وسكتِّ. وبدلاً من أتكلم أنا، تكلمت هي. طلبت مني أن أصبّ على وجهها بعضاً من الماء. صببته. كانت خائفة، قبضت على يدها التي ترتعش. عرفت أنها مرتاعة من الموت.

- " أنت ترتجفين، يا أمي ... محمومة؟ أم خائفة؟"

شعرت من لمستي لها، أنها محمومة. ولكنها خائفة أيضاً. هل كانت خائفة من الموت؟ أي موت أسوأ من الحياة التي عاشتها؟

***

الأيام التي تلتها، لم تتحرك أمي، من الفراش. كانت تنتظر الموت



هناك مستسلمة. لا شيء يحرّك يومها، لا أمل لها بأي شيء. لم يعد في القرية طبيب. بقي مشعوذون يريدون أن يقرؤوا عليها آيات من القرآن وأدعية. ولكني سئمت من وجوههم الكريهة، ومن أعينهم الشبقة التي كانوا ينظرون بها. فطردتهم كلهم.

في يوم، كان اشتدّ عليها مرضها. كانت الآلام من جهة رأسها اليمنى. ارتعبت. ولكي أهرب من هذا المشهد، ذهبت إلى السوق؛ كي أجلب لها طعاماً تحبه. غير أن قدمي كانتا ترتجفان أثناء عودتي. شعرت أن شيئاً سيحدث في غيابي.

من بعيد، رأيت بعض النساء يتجمّعن، على باب منزلنا. سمعت صوت بكاء نساء، في البيت. أما أمي؛ فقد كانت ممددة دون حراك، في مكانها... انحنيتُ عليها. قربت وجهي، من وجهها، كما لو كنت أنظر إلى نفسي. مددت يدي، بخوف، إلى وجهها، كما كنت أفعل حينما كنت طفلة. لمستُ جبينها، ما يزال دافئاً. قلت في نفسي:

- " لماذا يبكون، ما تزال حية! إنها لن تموت، ستعيش هذه المرأة! ستعيش حتماً."

ولكنْ؛ بعد لحظات، مددت يدي إلى خدّيها، بحنان كبير، كما كنت أفعل حينما أكون خائفة في الليل! كان خداها باردين، كالثلج ... مسست يدها، كانت باردة شاحبة، تسقط وحدها. رفعتها، سقطت من يدي ... اضطربت، شعرت، بالخوف، شعرت، بالحيرة أيضاً، ولسبب غامض أيضاً، قرّبتُ وجهي، من وجهها! جلست راكعة، كمَن أتفحّصها ... شعرتُ أنها لا تتنفّس.

توقّفت قليلاً. "أمي لا تتنفّس ... هل يعني أنها رحلت ... هل يعني أنها فقدت الحياة؟"

نظرت لها، من بين الجفنين الباردتين، بانت العين غائمة وساكنة. لقد فقدت بريقها الذي كنت أعرفها به...

هذه اللحظة تغيّر كل شيء. لا أعرف لماذا ولا أعرف كيف. إلى هذه اللحظة لا أعرف ما الذي جرى حقاً لي. لقد أدركت أن أمي رحلت. هكذا فقدتها. وأني لن أستطيع استعادتها بعد أبداً. وهذه اللحظة التي كنت أخشاها قد حلّت. لكني هذه المرة لم أخف كما كنت طفلة ... لقد شعرت أن الخوف غادرني ... ربما كان خوفي فيما مضى على أمي، لا على نفسي ... ربما... ذلك لأن اللحظة الوحيدة التي تشعرني بالرعب هي فقداني لأمي ... لم يكن لي أحد في هذا العالم غير أمي، ولا رعب لي إلا أن أراها راحلة ... وها هي قد رحلت. كل دفاعي عنها؛ كي تبقى في الحياة قد انتهى. فجأة شعرت بقوة ما... قوة كبيرة حلّت، في جسدي، بل إن موتها منحني طاقة كبيرة. أشعرني بسعادة خفية، بحرية غير متوقّعة. قوة، بما يكفي أن لا تنهمر، من عيني دمعة واحدة.

يا لهذه المرأة التي كانت كريمة علي حتى في موتها. شعرت بأني أنطلق إلى السماء، لم يعد لي في هذه الأرض ما أخاف عليه.

تلك اللحظة أدركت أنها ماتت! ماتت تلك المرأة التي يروي وجهها كل القصص إلا قصتها هي. يروي تاريخ كل العالم إلا تاريخها. كنت أتساءل: لماذا حجبت أمي تاريخها؛ كي تظهر تواريخ الآخرين وحكاياتهم؟

لقد عرفت موتها في هاتين العينين اللتين ما عادتا تومضان أبداً، في الوجه الذي لم يشك عن نفسه أبداً. وسمعت صوتها قادماً من بعيد. صوتها قادم من عالم موتها البعيد. يقول لي كلمات، لم أعد أفهمها. عالمها الثاني لم يعد مفهوماً، بالنسبة لي. مثل شجرة فقدت جذرها، فقدت جذري، بهذه الأرض. وهكذا قررت أن أغادر هذا المكان. لم يعد هنالك ما يربطني به. شعرت بأني غريبة، عن كل ما يحيط بي.

***

أصبحت بعد موتها أكثر حرية. لم أعد أطيق المنزل، كنت أذهب



إلى السوق كل يوم تقريباً، أتسلى بالشباب الذين يلاحقونني. لا أرتدي الخمار، كما يجب. أشعر أن كل الرجال كانوا يريدون مضاجعتي، أشعر أني أصبحت سيدة خيالاتهم الاستمنائية.

في يوم، كنت استيقظت على إثر ضوضاء في المنزل. كنت أتميّز، بنوم خفيف. وبعد لحظة، تساءلت إن كنت أحلم، أو أن خطوات رجل ما أحدثت اضطراباً في تلك الليلة. اتّكأت على مرفقي، وأخذت أسترق السمع وراء النافذة. لم تكن هنالك سوى ريح تهبّ، فترجّ باب المنزل. عدت إلى النوم مجدداً. غير أني سمعت بعدها أصواتاً واضحةً، لذلك ارتعبت لفكرة أن أحد الرجال يحوم حولي في القرية. في الأسفل، وفي الجانب الخاص بمكان البقرة، سمعت صفق الباب، فاستبدّ بي القلق، من جديد. كنت حسّاسة، وكان إيقاع حياتي بعد موت أمي وأبي وزوجي بطيئاً، وأضحت حياة المنزل مضجرة، وأنا أتيه بعزلتي التي تُغرقها مخاوفي، والتي تعيد في داخلي رعب الطفولة القديم من كل شيء قادم من الخارج. فشعرت لحظتها بأني ضعيفة ومنكسرة، وأن هذا الشعور سيستغلّونه أبشع الاستغلال، لإذلالي ومضاجعتي، والتناوب عليّ، من شخص إلى آخر، كل هذا انتقاماً لاحتقاري لهم، ولعنادي.

نهضت من مكاني، متضايقة. وضعت الإزار على كتفي، وفتحت النافذة. رأيت رجلاً يسير، بشكل بطيء، حاملاً سلاحه، وقد ابتلعه ظلام الشارع شيئاً فشيئاً. كان يسلك طريقاً، يؤدي إلى مقر المسلّحين، في مركز القرية. كان يسير، بهدوء، كي لا يثير انتباه أحد. من جديد، بلغني أصوات رجال آخرين ينتظرونه. سمعت محرك السيارة التي غادرت بهم.

انطلقتُ إلى الباب؛ كي أتأكد من حقيقة الأمر. لم يكن هناك سوى ضوء خافت، في الممر الطويل؛ حيث كانت تفوح منه رائحة أليفة، وأما مصباح المنزل؛ فقد كان مطفأ تماماً. وهكذا كنت أتلمس طريقي من خلال النور الضعيف المنتشر في المكان، حتى وصلت الباب؛ حيث عثرت على رسالة مرمية من وراء الشق.

حملت الرسالة التي كان مظروفها مفتوحاً، وعليها ختم المسلّحين. في البداية، قرأتها، بسرعة، فلم أفهم منها شيئاً. كنت فاقدة لأعصابي. كانوا قد كتبوا آية من القرآن، شممت منها رائحة تهديد لي. ومن ثم؛ طلب من رئيسهم أن أقابله في الساعة السابعة مساء، في الخميس القادم. لقد استبد بي لحظتها شعور بالتيه والبؤس والانكسار وسط هذه القرية الصغيرة التي يخيم عليه الصمت والقبح. خالجتني الرغبة في البكاء. غير أني تماسكت. خالجتني الرغبة بالهرب تحت جنح الليل والآن. لكني تريثت. تساءلت:

- "ماذا أفعل هنا، في هذا المكان؟! ما مصير حياتي المهددة، وروحي المعرضة للخطر باستمرار؟!". سرت بضع خطوات في الممر، وأدرت مقبض الباب.

- "آه، أين أنت، يا أمي؛ كي أضمك، وألتحم بك، كما كنت صغيرة". قلت، بصوت خفيض.

ذهبت، وأطفأت مصباح الغرفة؛ حيث كان مشتعلاً، ويرمي نوره على النافذة.

ارتجفت لفكرة كنت سمعتها منذ زمن بعيد من راضي زوج أمي. أن في المدينة مهرباً، يمكنه بمبلغ من المال أن يقود أي شخص راغب، بالهرب، إلى أوربا. قلت لم لا؟! كانت هذه الفكرة الوحيدة التي آنستني ظاهرياً، وجعلتني متيقّظة حتى الصباح.

قلت سأذهب غداً إلى المدينة، أركب أول باص ذاهب هناك، وأحاول أن أرتب كل شيء قبل موعدي مع رئيس المسلّحين.

في الصباح، كنت طرقت باباً مصدعاً، ذا لون قرمزي في شارع شبه مهجور في المدينة. قلت في نفسي وقتها:

"هكذا يختار المهرّبون منازلهم؛ كي لا يلتفت لهم أحد".

بعد دقائق، وجدت نفسي أمامه. إنه المهرّب. شاب، قمحي اللون، شعره مجعّد كثيف السواد، يتكلم معي، ويدخن بعصبية، بالكاد ينظر في وجهي...

***

هكذا بدأت رحلتي إلى أوربا، يا صديقي، على إيقاع صوت هذا الشاب:

- "سأنقلك إلى أوربا... اعتمدي علي، نقلت العشرات، أوصلتهم هناك ... اعتمدي عليّ ... إنه طريق أمين، أنا رجل متزوج، وعندي ابنة، أنا شخص يخاف الله، ولست مثل الآخرين، اعتمدي علي".

كان يتكلم على وقع أنفاسي التي تصعد وتهبط من الفرح...

يده موضوعة فوق صدره عند موضع القلب، هكذا يتكلم معي، باب منزله مفتوح. زوجته تمرّ من عند فتحة الباب، تبدو قدماها الصغيرتان، وهي ترتدي حذاء خفيفاً، شابّة، في العشرين، من عمرها. شعرها أسود شديد السواد. شعر طويل، يغطي أكتافها العريضة. تمسك بيدها الممسحة، تصغي إلى كلامنا، وتتظاهر أنها تمسح البلاط. تتحرك أمامي، وهي تمسح، وتبتسم لي بين آن وآن ... تحرّك ممسحتها، بصمت، بحركة مماثلة لتهادي الكتفين على وقع أنفاس زوجها الذي يتكلم معي.

ما بقي في ذاكرتي فستانها الأحمر الطويل الذي يغطي كامل جسدها، بينما تظهر زهور صغيرة تطرز أسفل الفستان، ومن آن وأخر تُهرع لتهدئة طفلتها التي تبكي في الحجرة الأخرى، وتأتي راكضة؛ لتسمع حديثي مع زوجها، وتبتسم لي من بعيد...

في العمق، كان هنالك قرآن مفتوح موضوع فوق وسادة من الساتان القرمزي.

***

- أوربا... أوربا... أوربا...

بعد سنوات من العيش في أوربا، سألت نفسي:

- ماذا كانت تعني لي أوربا ذلك الوقت؟

- لا شيء ... وكل شيء أيضاً.

أتذكر المهرب، وهو يتحرك أمامي، وسيجارته في فمه. كان يذكر لي البلدان التي سنمر بها:

- "سنهرب إلى إيران، ومن إيران، إلى تركيا، سنذهب في منزل شخص، اسمه ألماز..

- "ما اسمه؟..." أنا أسأله.

- "ألماز" هو يقول مبتسماً.

- "يا للاسم الجميل".

يواصل الكلام:

- "في الصباح، تأتي شاحنة الفواكه، ستدخلين في أحد الصناديق هناك".

- "في شاحنة الفواكه؟" أقاطعه.

- "نعم، في شاحنة فواكه، سنعبر أوربا".

- "يا للجمال ... يا للحظ ... هنا لا أحد يأكل الفواكه غير المسلّحين".

يواصل الكلام:

- "ستعبر بك الشاحنة، إلى اليونان، من اليونان، إلى بلغاريا، ومن هناك، سندخل ألمانيا، ومن ألمانيا، سنذهب إلى بلجيكا...".

كم جميل أن نعبر كل هذه البلدان في شاحنة الفواكه .. جميل أنك تسافر مع التفاح والبرتقال والجوافة التركية إلى أوربا، لا شيء! غير أنك ستأكل الفاكهة حينما تجوع! وتتنفَّس كل هذه العطور الرائعة، وأنت تخترق الآفاق، وتعبر كل أوربا ... كم كان الحلم جميلاً! ... كم كان الخيال رائعاً! يا صديقي ... كان الشاب أمامي بهيّ الوجه، يتحرك رأسه المنهك من هذه الجهة إلى الجهة الأُخرى. جرح صغير غائر بعمق عند زاوية فمه اليسرى، أهدابه الطويلة ترسم ظلاً على خديه، وهو يتكلم مثل شخص حائر حيرة قلقة. كنت أتكلم معه، بينما شفتاه المكتنزتان الجافتان بفعل التدخين ترددان، بهدوء وبطء نفس الكلمات:

- "صدقيني، ستكونين، بأمان، أنا رجل لا يحب المال، ماذا أفعل به؟! أنا هكذا أصنع الخير للآخرين، أحب أن أرى الآخرين سعداء، أنا لست مثل المهرّبين الآخرين، صدقيني أنا متزوج، وعندي طفلة، ستكونين، بأمان، صدقيني .... أنا رجل يخاف الله، انظري هنالك القرآن مفتوح على الدوام ... أنا رجل يخاف الله، لست مثل الآخرين ... الآخرون لا يخافون الله .... أنت تعرفين امرأة وحيدة مثلك ورجل في طريق طويل، ليس هنالك أمان مع الآخرين ... صدقيني الأمان معي ... اجلبي المال غداً، أو بعد غد، وأعطيه إلى زوجتي، أنا لا أمسك المال، بيدي، أنا لا أحبه ... ماذا نفعل به؟!... إنه قذارة، أنا مضطر لأخذه؛ لأن لي زوجة وطفلة يريدان أن يأكلا ... إنها الحياة ... أما أنا ... فأنا لا أنتظر من هذه الدنيا إلا رضا الله وسعادة الآخرين ... صدقيني هذا ما أريده في هذه الحياة ...".

كان يتكلم معي، والسيجارة في يده، يضعها مرة في فمه، ومرة تهبط بها يده إلى الأسفل.

حين عدت إلى منزلي، كاد الفرح يقتلني ... كم جميل أن نسافر في الخيال! إنه لا يكلّفنا شيئاً، إننا يمكننا أن نعبر كل هذه المسافات دون أن نبذل جهداً، دون أن ننزف قطرة عرق واحدة ... كنت أتخيل أننا سنسافر

سفرة سعيدة. سنرحل كما لو كنا نسافر على الورق، لا على هذه الأرض المملوءة باللعنات. نسافر بهدوء ... بهدوء مثلما نغفو بهدوء، ومن ثم؛ نحلم. شيء لا يكلّفنا ثمناً باهظاً...

كنت أضطجع على الصوفا، وأتكلم مع نفسي. أنظر إلى السقف، أشعر بأن قلبي يكاد أن يقفز من صدري، أنا سأسافر بعد أيام. فاطمة ستكون في أوربا بعد أيام. تسافر في شاحنة الفواكه. لم يخطر في بالي، لا شرطة، ولا مجرمون، ولا مهرّبون، ولا شيء من هذا...

سأسافر، كما لو أضع يدي على الخريطة، وأنا أقول سأقفز من هذا المكان إلى هذا المكان. شيء لا يكلّف أي شيء. الشيء الوحيد الذي علي أن أدفعه هو أن أرهن منزل أمي بعشرة آلاف دولار، وأعطيها للمهرّب. هو لا يحب المال، لا يريد أن يلمسه. سأعطيه إلى زوجته. وهكذا سأكون، بأمان. بأمان حتماً. سأحلق هناك، في البعيد الجميل ...

***

ولكن الأمر لم يكن كما حلمت. الأحلام شيء، وهذا العالم الذي نعيش فيه شيء آخر. إنه عالم مملوء، باللعنات.

فما إن وصلنا، إلى مكان بعيد، ومظلم. قال لي سننام هنا. كنت منهكة من التعب والخوف. وكان علينا أن نختبئ من كشّافات الضوء التي تطلقها الشرطة، على الحدود. انتبذنا إلى مكان في الغابة منعزلٍ تقريباً. وفي لحظة، شعرت أن المهرّب ينظرني بعينين مختلفتين. أشعرتني، بالخوف. ثم بدأ يتقرّب نحوي، بشكل حاد، ووقح. ثم بدأ يمدّ يده، بصورة فجة. حاولتُ الابتعاد، ولكنْ؛.. أين أبتعد؟

في البداية، كان يحاول، بطريقة، تخلو من العدوانية، حينما رآني حازمة اتجاهه تغيّر فجأة. فجأة لم يعد ذلك الشاب الوادع الذي يتكلم معي. لقد نبتت له أنياب وأظافر مثل ذئب. لقد تحوّل فجأة إلى حيوان. تحوّل إلى وحش.

كنت أرى في البعد زوجته الشابة في المنزل، وهي تدعو له بالسلامة، تمسك قارورة عطرها، أو مسبحتها السوداء، وتجلس مع طفلته عند عتبة الباب. كنت أرى أشعة الشمس، وهي تخترق ستائر منزله ذات اللونين الأزرق والأصفر. زوجته تستمر في تحريك حبات مسبحتها، بينما هو فوقي يواصل تنفّسه العالي وحشرجة صوته.

***

في المكان البارد المروع، في المكان المخيف؛ حيث تلاحقنا دوريات الشرطة على الحدود، وقطعان الكلاب التي تتشمّم روائحنا، من مكان إلى مكان. في ذلك المكان غير الآمن أبداً؛ حيث الجوع، والموت يتهددنا؛ حيث اللصوص وقطاع الطرق والمجرمون الذين يقطعون علينا الطريق، وعلينا أن نتخفّى منهم أيضاً، في كل هذا الوضع الشاذ والغريب والخطير. يفكر المهرب بشيء آخر.

كنت أتساءل:

من أين للرجل هذا القدرة على نسيان العالم والموت والأخطار والتفكير بقضيبه...؟!

كيف يمكن هذا، أن كل العالم لا يستطيع قهر هذا العضو الصغير؟!

الرجل يحمل معه حيواناً صغيراً، لا يُروَّض أبداً، يحمل معه حيواناً، لا يمكن قهره، ولا تدجينه. إنه منفلت، من كل منطق، من كل تفكير .. يتبجّح الرجل بأن تفكيره على الدوام تفكير منطقي، أليس كذلك؟ ولكن هذا المنطق - في الحقيقة - سيتوقف، بل يتوقف معه كل تفكير، ومَن يفكر بالنيابة عنه هو عضوه الصغير الذي يحمله معه.

***

كنت أتمدد على الأرض، وأصرخ. توقف، توقف، أرجوك، توقف.

VI

في المساء، خرجت صوفي، من المستشفى، في ذات الوقت، من كل يوم تقريباً. الوقت الذي تأتي فيه الممرضة لتنظيفه. حملتْ حقيبتها، وخرجت. استدارت متابعة طريقها. اخترقت ممراً صغيراً. مرّت من دكان نيو هاوس لبيع الشوكلاتة البلجيكية. المكان ذاته الذي كانت تشتري منه الشوكولاتة عند مجيئه عندها.

رأت مجموعة من الفتيات يتكئن على حاجز حديدي، في الشارع، إحداهن معصوبة الرأس، ترتدي ملابس ضيقة. بجوارها فتاة أخرى أكبر سناً، كنّ يضحكن، ويمزحن، مع شابين قريبين منهنّ، ابتسمت لهذا المشهد. وتمنّت أن تعود مع إدريان يوماً؛ ليمزحا أمام الناس، كما كانا يفعلان، فيما مضى.

أصبحت في آفنيو أنسباك مرة أخرى. توقفت منتظرة إشارة المرور الخضراء. سارت مع مجموعة من العابرين أمام اللابورس، كانت هنالك مظاهرة، بمناسبة الربيع العربي، قرأت لافتة مكتوباً عليها "الحرية للعرب". بضع خطوات، ثم دخلت شارع أنسارات.

كانت الشمس قد تراجعت، وتحصّنت خلف العمارات، ما خلا بضعة لمسات داميات تتشبث بما تبقّى من السحب. أما المدينة؛ فقد اختفت في العتمة الزاحفة. بينما بدأت أصوات الموسيقى وأصوات رواد المقاهي والحانات بالظهور.

وقفت صوفي في باب حانة اللكوك Le coq، حزينة، وهي تتأمل



جمرة سيجارتها، بعد أن انتهت من التدخين، أطلقت تنهدة، ودخلت

جلست وحيدة، وقد تركت فكرها يسرح بعيداً، بعد أن ثبتت بصرها في زاوية من المقهى محاولة تجنّب نظرات الزبائن. بضجر، أغمضت عينيها، محاولة تجنّب رؤية ما يحيط بها. حين رآها النادل، اقترب منها، قالت له إنها تريد كأس بيرة وطبقاً من الجبنة.

انسحب من المكان، تفحّص ساعته، ومسح خديه النديين بالمنديل، وأخذ يعدّ لها الطبق.

***

قررت صوفي العودة إلى منزل أدريان، هنالك العديد من الأشياء التي كانت ترغب برؤيتها، بالأمس كانت قد عرفت سر هذا الانتقام الكبير الذي لفّ حياة والده. عرفت الحكاية كاملة من الأوراق ومن الرسائل ومن مجموعة كبيرة من الوثائق والصور الموجودة في شقته.

عرفت أن مليشيات من المسلمين قامت أثناء الحرب الأهلية اللبنانية بحملة عقابية ضد بلدته المسيحية. دخل أكثر من مائتي مسلّح، يرتدون الأقنعة؛ ليجعلوا من الحي عبرة لمن اعتبر، وليصفّوا عشرين مسلّحاً من قوات المسيحيين الذين كانوا في المدينة. أطلق المسلّحون الرصاص على نوافذ المنازل، حطّموا بوابة الكنيسة، سحقوا الأب الذي اعترض سبيلهم، دخلوا إلى المذبح، وأضرموا النار فيه. اقتلعوا الأشجار التي زرعتها بعض سيدات الحي في الساحة، ثم واصلوا العدو، بصخب حربي، من أجل قتل المدنيين العزّل في منازلهم، وحملهم بالقوة على الرحيل عن الحي، وجلب سكان من أقربائهم فيه.

كان جد أدريان في منزله، ولكن ابنه غابرييل، والد أدريان، كان عند عمته في الأشرفية. حبس الرجل العجوز زوجته وبناته في الحجرة الأخيرة

المنزل، وأقلت الكلاب في الفناء. في تلك اللحظة، أحس بالأسف، ما أحس به مرات كثيرة في حياته؛ لأنه لم ينجب أبناء ذكوراً يساعدونه ـ حمل السلاح. أحس أنه عجوز جداً، ولكنه لا يستطيع الآن لوم أحد، ؤقت أخذ ينفد، وهو يرى من النافذة الوميض الرهيب المنبعث من سلّحين الذين يبدّدون، بالذخيرة ظلمة الليل. وكان يعرف أنه سيموت، ـل في منزله دون أن يرحل عنه.

***

أصيب الجد، برصاصة في بطنه، زاغ بصره، وكأنه لا يكاد يميّز الرجال الأشباح التي تتسلق أسوار الحديقة. لكن القدرة على الإدراك لم ـه، فجرجر نفسه إلى الباب؛ حيث تعرفت كلابه على رائحته رغم ـرق والدم النازف، من بطنه. أدخل المفتاح في القفل، ثم سقط على ـض. وحين جاءت المليشيات المسلّحة، أمعنوا في ضربه بالرصاص ـ أن يجهزوا على العائلة كلها.

***

بعد يوم أو يومين، طلب غابرييل والد أدريان من المليشيا التي احتلّت ـي أن يدخل، ويدفن عائلته. فسمحوا له على أن يغادر قبل حلول ـساء.

دخل المنزل. وجد أمه مقتولة في الفناء، والده ممزقاً، بالرصاص، ـيقتاه قتلن في الحجرة الخلفية، بعد أن طعنّ عدة طعنات، في ـلن والصدر. ولكن الثالثة، إيلين الصغرى، شقيقته الأحبّ إلى قلبه، ـجدها. بحث عنها مثل المجنون في المنزل، ولم يجدها. كان يهذي، ـو يبحث عنها.

أخيراً؛ وجدها في الحديقة الخلفية بفستانها الوردي، والشرائط الوردية

التي شدت بها ضفيرتها. كانت أشبه بالنائمة وسط بركة من الدم، وقد سمع غابرييل آخر الحشرجات، وقد خمدت، في حنجرتها.

احتضنها ساعة. وبالرغم من كل هذا العنف، تمكن من النهوض والسير على قدميه حتى نافورة الحديقة التي كانت محاطة بأزهار صغيرة، ولم تعد الآن سوى بركة راكدة وسط الأنقاض. حمل شقيقته التي لم يبق على جسدها من ثوبها سوى مزق صغيرة، نزعها عنها، بتثاقل؛ ليعريها ثم غطسها، في الماء البارد. كان شعاع الشمس يأتي من بين أشجار الأرز؛ ليكشف المياه التي تصطبغ باللون الوردي، وهي تغسل الدم الذي تدفق من أخته.

لقد حلم ذلك اليوم بأن ملاكاً ما، متوّجاً بالياسمين قد حمل شقيقته ورحل بها. لقد خرج من الحي المسيحي في بيروت ثملاً بالعنف، ومتوتر الأعصاب، بينما أشرق يوم الأحد رصاصياً شاحباً ومصبوغاً بوميض الحريق في هذا الجزء من المدينة. كان الصمت سيد الموقف. إلا أنه لم يصمت طويلاً. فبعد أن ترك بيت العائلة المخرّب بالحزن والدموع، ذهب إلى منزل عمته، في الأشرفية. فكّ حزامه، وجلس على الأريكة، ثم أجهش بالبكاء. جلس مدفوعاً بالانتقام متأملاً تقدم النهار؛ ليذهب في الليل؛ ليوشم صليباً على ذراع يده اليمنى واسم أخته إيلين على ذراع يده اليسرى. في اليوم التالي، حمل سلاحاً، وانخرط في ميلشيات مسيحية.

***

لقد أمضى الأعوام الأولى بعد مقتل عائلته وسط دوي البارود. كان مبرر القتل لديه هو الانتقام، لم يكن له خصوم من قبل، لا من المسلمين، ولا من الفلسطينيين، ولم يكن معتاداً على العنف، ولكنه ما عاد يحتمل الهدنة. أخذ يعيش على العنف، أخذ يجوب البلاد في كل الاتجاهات مقاتلاً ضد أعداء المسيحيين، مرئيين حين يكون ثمة وجود لهؤلاء الأعداء، وضد الأشباح حين يتوجّب عليه اختراع أعداء وهميين.

لقد شعر، كما لو أن مهمته الوحيدة في هذه الحياة هي الانتقام، لصورة الصبية ذات الثوب الوردي المتوجة بالياسمين، التي تحملت بصمت كل أنواع البشاعات في تلك الليلة القاتمة؛ حيث كان الهواء يعبق برائحة البارود، ورآها بعد ذلك، وهي في الوضع الذي كانت عليه في اللحظة الأخيرة، ملقاة على الأرض، ومغطّاة، كيفما اتفق بأسمالها الملوثة بالدم غارقة في موتها، لم ترحل عن عينيه أبداً. بل بقي يراها في تلك الحالة، كلما حاول النوم، في كل ليلة من ليالي حياته المتبقّية.

لم تسمح له هذه الصورة أن يبتعد عنها. لقد احتلّته تماماً. جاء يوم، لم يعد قادراً فيه على تحمل المزيد. فأدرك أن هذا الكابوس لن يتركه ينعم بالسلام إلا بعد موته.

***

في ساعة مبكرة من الصباح، استيقظت صوفي في شقة أدريان. كانت ترتجف من الأسى والخوف والغضب. فتحت النوافذ؛ لتشم الهواء. لم يكن هناك أحد في الشارع الواسع. مسافة كبيرة تبعدها عن أدريان الذي يرقد الآن في المستشفى. وهنالك امتداد ساكن تحت سماء زرقاء بغيوم خفيفة، طائران في الفضاء يحلّقان. تعرف أنهما حران في البعد الفسيح. ترقبهما، وهما يطيران. وفي المدى ليس هنالك سوى رجل واحد، يقف عند الكشك؛ ليشتري الصحف والسجائر. يعود بخطى متسارعة. يفتح باب سيارته، ويصعد. يدير المحرك، ويغادر إلى جهة أخرى.

٢٦ تمّوز

استيقظْ، يا صديقي. أرجوك، استيقظْ هذا الصباح. اشرب معي فنجان القهوة، ودعْ وجهك، يلوّنه مطر تمّوز، تمّوز الكسول الذي يطلي وريقات الشجر، بلون مبهج. استيقظْ، يا صديقي، وتعال معي، كما كنا في السابق، نبحث عن سر نمو الأعشاب على الأرض، فنحرّكها، بأقدامنا، هاربين من النظر إلى الناس باحثين عن سر اللبلاب، سر الربيع الذي يعيد اللون إلى الوريقات الصُّفر، سر الفجر الذي يلوّنه شعاع شمس الصباح حين تنحسر الغيوم فجأة عن السماء.

قلت لي مرة: تعالي، سأغني لك أغنية جديدة.

قلت لك غنِّ ...

فغنّيت لي أغنية ... وهي الوحيدة التي تعرفها، باللغة العربية، من والدك.

تعال، أنت هذه المرة معي، وسأغني لك، بالعربية ... سأغني لك عن النجوم المتفجرة بالضوء، عن أصوات الينابيع المتدفّقة من الأرض. عن بزوغ البراعم الجديدة في الصخور. عن تساقط الأوراق الصفر، بينما يترنّم المساء، بأغاريد البلابل. تعال، سأغني لك أغنية عن خيوط الفجر، وهي تنسج نفسها في الأفق الداجي، سأغني لك عن حزننا. حزن أحلامنا المنكسرة.

سأغني لك، عن بروكسل، المدينة التي تحبها. والتي قطنتها أنا، من خمس سنوات.

سألتني مرة:

- "هل تحبين بروكسل؟".

- "لقد غدت عالماً بعد أن تعرّفت فيها عليك".

- "وقبل أن تعرفيني؟" سألتني هكذا، وانتظرت الجواب مني.

- "أحببتها أيضاً".

***

حين وصولي إلى بروكسل، كان الجو جميلاً جداً. في اليوم التالي لوصولي، كنت مشيت طول النهار، في شوارع المدينة القديمة، من دون هدف. لم يكن معي سوى عنوان "البتي شاتو"، وهو كامب اللاجئين الذي كنت أقطنه ذلك الوقت. كان العنوان مكتوباً، بخط، لا أفهمه، على مغلف.

أمضيتُ الأشهر الأولى في المدينة في التسكع في شوارعها صباحاً ومساءً. شعرت، بصعوبة، في التأقلم، في البداية، في مخيم اللاجئين. فهو ثكنة شهيرة، واحدة من المواقع التاريخية والعسكرية الأكثر شهرة، في بروكسل، يقال إنه أخذ اسمه "لو بتي شاتو" من منزل حجري ضخم. قطنته - فيما مضى - العديد من الأسر البرجوازية، حتى تم شرائه من الحكومة النمساوية، لإيواء حامية عسكرية. ثم تحوّل إلى مكان لتجنيد الجيش البلجيكي. ثم تحوّل إلى مركز لإيواء اللاجئين.

***

أول يوم لوصولي إلى هذا المخيم أو الكامب، أكلت الخبز والشوكولاته، فشعرت بشيئين معاً: الأمان والامتلاء.

جلست أمام الكابينة، تحيط بي سحابة من الطيور. شعرت بأني حرة. شعرت بأني جرو صغير، أطلقوا حريته، فأخذ يستمتع، بألعاب طائشة. شعرت، بأني طليقة، وأني أعيش يومي، ولا أفكر بالغد مطلقاً. ذلك أني كنت - فيما مضى - خائفة - على الدوام - من الغد، فكنت أحشو حقيبتي القماش، بالخبز، وبأي طعام، يصير أمامي. لدي خوف دائم من أن لا أحصل على طعامي، أو ألا أحصل على مأوى.

ولكني - للمرة الأولى - شعرت أني تحررتُ، ورميتُ، بقطعة الخبز التي اختزنتها للطيور. ركضتُ على الرصيف، من دون هدف، لقد صرتُ - فجأة - فتاة مراهقة. في الصباح، رميت النقاب، بالمزبلة القريبة، وخرجت. شعرت أني حرة، لم أعد أفكر من أين آتي، بالطعام، أو أين أنام ...

***

حين سرت في شوارع بروكسل، أدهشتني واجهات البنايات، الأسطح الحجرية الملونة، وزحام السيارات. لفت انتباهي العدد الكبير من الحمائم والعجائز في الجادات الواسعة التي تحفّها أشجار الدلب. كنت أسير على الأرصفة طوال الوقت مندهشة كيف يمكن أن يكون في هذه المدن الأوربية الكثير من العرب والأفارقة، بينما لا يوجد في مدننا أجانب؟!. كنت فكرت ذلك اليوم أن يكون لي صديق أشقر، أسير معه يداً بيد. بينما ينظر الناس بإعجاب إلى التناقض المظهري بيننا. شكلي الأسمر الصحراوي، ومظهره الأشقر الاسكندنافي، والملابس الأنيقة التي يرتديها.

كنت أسير في الشوارع، والناس تنظرني، باستغراب، بسبب أسمالي الواسعة جداً. بسبب قمصاني المختلفة الألوان التي ألبسها الواحدة فوق الأخرى، أو من شعري المجعد الأسود، ووجهي العربي النحاسي. لم أكن أملك شيئاً، ليس في يدي سوى حقيبة من القماش الرخيص، تحوي على مذياع قديم، سرقتُهُ من المهرب الذي اغتصبني، على ورق

كلينكس، قلم روج وجدته في الكامب، مبرّد للأظافر، قلم كحل، وعلى كتاب، اسمه كيف تتعلم اللغة الفرنسية في خمسة أيام، من دون معلم، وهو كتاب شهير، تراه على الأرصفة في كل مدن الشرق.

***

أتذكر الحجرة الأولى التي استأجرتها في بروكسل بعد حصولي على اللجوء مباشرة. كان شعوري عظيماً. شعور فتاة، ستقطن للمرة الأولى، مستقلةً، في حياتها. هذه الفكرة أنقذتني من نفوري الطبيعي، من العيش مع آخرين، في فضاء واحد. ومنحتني غبطة، أستشعرها، كلما أتذكرها حتى هذه اللحظة. لقد كانت هي سعادتي القصوى التي أحسها ما تزال طرية في روحي، لم تذبل أبداً حتى بعد مرور كل هذه الأعوام.

حين دخل المشرف على الكامب، وأخذ يحدق، بالوجوه، باحثاً عني، انتابني نوع من الحزن. فكرت ربما رفضوا لجوئي، كان فكّي الأسفل يرتجف، بشكل لا إرادي.

مدّ يده، وناولني الظرف.

- "ما هذا؟"

ابتسم، وقال:

- "لقد حصلت على اللجوء، هنا، في بلجيكا".

كدت أسقط على الأرض. كاد أن يغمى علي. كان كلامه الجافّ الذي تلفظ به، وابتسامته الحادة، جعلتني أشك أن يكون الأمر هو حصولي على اللجوء في أوربا. جاءت اللحظة الحاسمة إذن. هكذا تغيّرت الحياة، في نظري، يا صديقي، لقد حصلت على ورقة اللجوء. كنت في الرواق. نظرت إلى المساعدة البلجيكية الشقراء التي أمامي. كانت إلى جانبها مترجمة أفريقية. سألتها:

- " متى يمكنني أن أغادر؟".

- "متى ما تحصلي على شقة".

- "سأحصل عليها اليوم".

- "ليس الأمر سهلاً".

- "حسن، سأحاول".

لم يكن الأمر سهلاً. غير أن الفتاة الأفريقية وعدت، بمساعدتي. لقد تكلمت معي، بوضوح، وبصوت رقيق جداً:

- "إن الأمر ليس سهلاً، صدقيني، ولكنْ؛ لا جدوى من الاستسلام، عليك أن تبحثي، وتحاولي".

لم يزد شعوري هذا الأمر إلا إصراراً على إيجاد منزل لي.

- "علي الخروج من هذا المكان، بأسرع وقت ممكن، والالتحاق، بالحياة."

ذهبت لاستكمال أوراقي، من إدارة مركز اللجوء. كان المدير جالساً مع مترجمة في مكتبه، يدقّق بأوراقي وخصلات شعره الأشقر متدلّية على جبهته. ابتسم لي، وهو يمسح صدغه. قال لي:

- "أنت حصلت على اللجوء، في بلجيكا...".

- "نعم، وأنا سعيدة جداً، بذلك".

- "عليك أن تحصلي على سكن".

- "سأفعل كل ما بوسعي".

- "عليك أن تتعلمي اللغة، وتجدي عملاً".

- "صدقني، سيكون كل ذلك سريعاً، وسريعاً جداً".

خرجت من حجرته سريعة منفعلة، حتى إني لم أر صديقتي الأفريقية الواقفة أمام الباب، بانتظاري. مررتُ، من جانبها، من دون أن أراها. صاحت بي، توقفتُ، التفتُّ، وجدتها متفاجئة، من إهمالي لها. اعتذرتُ، بسرعة، وقد عزوتُ السبب إلى الدموع التي في عيني، والتي جعلتني، لا أراها جيداً. لحقتُ بها. مكالمة هاتفية مع مالك لشقة في بروكسل، أعطت الكثير من الأمل. غير أننا لم نستطع الذهاب، بسبب إضراب عمال السكة الحديدية.

في اليوم التالي، ذهبنا إلى حي سكاربيك؛ حيث اتصلت صديقتي الإفريقية، بمالك الشقة.

سرنا بضعة خطوات في جادة "دو أكت" التي يقطنها الكثير من الأتراك والأفارقة والمهاجرين من أوربا الشرقية. عبرنا رصيفاً، يقوم بعض العمال، بإصلاحه، فسرت على بلاط الآجر الملون الذي أحدث صوتاً صلداً تحت خطواتي. كان المالك ينتظرنا، في محطة الباص، يحمل في يده مظلّته. رجل في الخمسين من عمره. اقتربنا منه، وحييناه. فقادنا إلى منزل مطل على الشارع، منزل من طوابق ثلاثة، أمامه العديد من المطاعم والمحلات، شارع صاخب يذكر بالشوارع، في مدن الشرق. شعرتُ لحظتها بأني لا أستطيع الوقوف من الفرح. خفة في قلبي لشعوري بأني سأعيش للمرة الأولى في حياتي مستقلة وحرة. سأعيش لنفسي، وليس لأحد آخر.

***

فتح مالك المنزل الباب، ودخلنا- الإفريقية وأنا- بهدوء وراءه. دخلنا من دون أن نحدث أي ضوضاء. نزلنا الدرج. المنزل هو مجموعة من الشقق. الاستوديو الذي نزوره يقع في الأسفل. أشبه، بقبو، له شباك، يطل على الشارع. استبدّ بي حب جامح وغامض لهذا المكان، ومن الوهلة الأولى.

لا أعرف لماذا؟! قلت في نفسي وقتها ربما أعاد لي بعض الأجواء التي ألفتها في طفولتي. فقد فاحت في وجهي، وأنا أعبر الباب رائحة الخزامى المعتّقة، ذات الطابع الخاص، والأكثر برية، والتي كان يطيب لأمي أن تعطّر بها فراشها. ضغط المالك، بيده، على زر التيار الكهربائي الذي بحث عنه للحظات، فاشتعل الضوء. انبثق الضوء من مصباح معلّق في السقف، وقد نثر زركشة من الأنوار.

- "ما هو رأيك؟"

لم أكن أرغب بقول "لا أبداً". كانت لدي رغبة أن أقبل بأي شيء.

التفت لي صديقتي الأفريقية، وقالت إذا لم تعجبك، يمكننا أن نذهب إلى شقة أخرى.

كدتُ أضحك.

- "كيف لا تعجبني؟ هل عشت يوماً في مكان أحسن من هذا؟ كيف لا تعجبني".

- "تريدينها إذن؟"

- "نعم، نعم، أريدها".

كنت أوافق على كل شيء. لا أريد التأخير.

***

كانت الشقة مؤلفة من غرفة واحدة، تشبه العلبة الصغيرة. تقع على مقربة من ساحة لتجمّع الترامات، في جادة دو أكت التي تنتهي بـ"أفنيو دو روجيه". شعرت، بالسعادة، شعرتُ، بالأمان. ذلك أني نمتُ هادئة وادعة، للمرة الأولى، نمت نوم الطفل، دون فزع، دون خوف، دون كوابيس.

كان جدار غرفة النوم مغطّى بلون وردي شاحب، وأمامي مدفأة في الزاوية قرب الطبّاخ، لها إطار خشبي، بلون قاتم، أسود تقريباً. كنتُ أراه جميلاً جداً، ولا سيما أن الجدار الذي يعلوها كان مغطّى بورق أزرق مورد. وعند الباب، انتصبت مرآة كبيرة، مثل تلك التي نراها في محلات الملابس، ذلك أن الفتاة التركية التي كانت قطنت هذا الاستوديو قبلي كانت تعمل في متجر للملابس، يملكه مغربي، يقع متجره، في ساحة مادو، في السان جوس.

وعلى الأرضية، سجادة شرقية قديمة، إلا أنها نظيفة، أما فوق المغسلة؛ فكان هنالك إعلان لشركة سياحية تركية، تعلن تخفيضات على أسعارها للسفر إلى تركيا في الصيف. لم أفهم هذا الإعلان إلا بعد ستة أشهر، ذلك لأني لم أكن أقرأ الفرنسية.

في اليوم الأول الذي سكنت فيه، كنتُ خلعت ملابسي، ورميتُها على السرير، وذهبتُ إلى الحمام، وحين عدتُ، وقفتُ، بالمصادفة أمام المرآة... آه !

صدّقني، هذه هي المرة الأولى التي أرى فيها جسدي كاملاً. نعم، لقد كانت هذه هي المرة الأولى التي أنظر إلى نفسي، في مرآة، بهذا الحجم. في الماضي، كنت أنظر لوجهي في مرآة صغيرة، لم يكن لنا في منزلنا الريفي، سوى مرآة صغيرة معلّقة، بشكل مائل، على الحائط، مرآة، تُظهر الوجه فقط ... مرآة مبقّعة، لا يظهر الوجه، بسبب قدمها، إلا بصعوبة بالغة.

لكنني الآن أنظر إلى جسدي كاملاً ... جسدي كله ... من الرأس إلى القدم، مرآة جديدة وواضحة ... مرآة ناعمة وملساء، وتُظهرني، بشكل رائع ...

- ياه، هل هذه أنا؟!... هل هذه فاطمة؟!... أوه، كم أنت جميلة، يا بنت!

حين نظرتُ إلى جسدي، كنتُ، كما لو كنتُ أنظر لجسد آخر غير

جسدي، كما لو كنتُ أنظر لامرأة أخرى، امرأة غيري، امرأة، لا تسكن جسدي ... لم أكن أنا مَن ينظر إلى نفسه، ولا هي أنا في المرآة ... شيء مذهل أن ترى المرأة نفسها متكاملة من الشعر إلى الأقدام، نعم، إنها المرة الأولى التي أرى فيها المرأة التي عليها أنا في المرآة ... كم تشبهني هذه المرأة، ولا تشبهني أيضاً... كم هي أنا، وليست أنا... كم جميل أن أنظر إلى الصدر النابض، وتكوّرات البطن المشدودة، والعانة السوداء بين الفخذين ...

لقد سقطتُ، بغرام نفسي. أحببتُ جسدي، سقطتُ بغرام هذه المرأة التي أراها للمرة الأولى في المرآة. كنتُ أظن أن النساء جميلات جميعهنّ إلا أنا. فجأة، عرفت الحقيقة، أنا أيضاً جميلة. لي جسد جذاب، أليس هذا ما يريده الآخرون؟!... أليس الجسد هو ما يثير الآخرين، ويجذبهم، ويجعلهم يحبونني؟ بل يجعلهم يعبدونني. نعم، أنا - أيضاً - لي ما أفتخر به، ولست عاراً على أحد.

أين كنت؟ في أية ظلمة، كنت أعيش. في أيّ مخبأ، كانت حياتي؟ أنا مثل أية امرأة أخرى ... أنا أيضاً، أحب أن يراني الآخرون جميلة، أحب أن يروني مثيرة، جذابة، محبوبة. أليس من الطبيعي أن أرى نفسي هكذا؟! من أين جاءت كراهيتنا لأجسادنا؟! لماذا نكره أنفسنا؟! لماذا كان علي أن أخبّئ جسدي مثل عورة؟! لماذا أخفيه مثل خطأ؟! ألم يخلقه الله؟! أليس كل ما خلقه الله جميلاً؟

* * *

في الطابق العلوي للحجرة التي أسكنها يقطن مجموعة من الطلاب، يقيمون حفلات أيام عطل الأسبوع. كنت أحب الاستماع لهذا الصخب المحمّل بكثير من وعود الحب. وكم كنت أشتهي أن أكون بينهم، ولكنْ؛ لم يكن ذلك ممكناً.

القاطنان الآخران هما سيدتان واحدة هولندية السيدة هولنشتات والأخرى السيدة ديبوا، وهي بلجيكية عجوز طيبة. وفي الأسفل، أنا؛ حيث عشت عامين في هذا المكان، وغالباً ما كان الجرس يرنّ، ويسأل بعض الأشخاص عن "جانيت كورنيه ... كنت أعتقد أنها تسكن هنا".

وغالبا ما تأتيني رسائل من الإدارة المحلية باسم السيد غريس، أو من بنك البلفوس لمدام أنغوس، أو من التأمين الصحي لجانيت رحيمي. كل هؤلاء، وربما آخرون، عاشوا في هذه الشقة، ثم رحلوا، و لم يتركوا أثراً وراءهم. و لم أكن أعرف عنهم شيئاً، وكذلك بقية الموجودين في المبنى، مع أن بعضهم يعيش هنا، من سنوات، مضت.

***

في الأسبوع الأول من سكني في المكان، كنتُ سجّلتُ في مدرسة قريبة لتعلّم اللغتين الفرنسية والفلامانية، وكنتُ أذهب كل أيام الأسبوع عدا عطلتي السبت والأحد. في البداية، لم يكن الأمر سهلاً. كنتُ أعود كل يوم إلى المنزل باكية؛ إذ إنني لا أفهم شيئاً من هاتين اللغتين، ووجدتهما صعبتين، للغاية. أجلس هناك، أتطلع في الوجوه دون أن أفهم كلمة واحدة. أعود إلى المنزل مسرعة، أرتمي على السرير، وأنخرط في البكاء. لأني أشعر باليأس من فهم كلمة واحدة. ما تعلّمته، بالأمس، نسيته اليوم، وما أتعلمه اليوم، أنساه غداً، حتى غدا عقلي مثل صفيحة فارغة.

ولكني كنت مصرّة، مصرّة على تعلم هاتين اللغين حتى أدخل هذا المجتمع، ولا أعيش مثل حيوان عجوز مهمل متروك، في حقل. قلت لنفسي لا خيار لي. أستمر في لعبة التذكر والنسيان حتى أتمكّن منها، هناك أناس لا يبلغون ذكائي، تعلّموها، وعاشوا بها. ماذا ينقصني؟ سأصرّ حتى أتعلمها.

وهكذا كنتُ أشعر بتحسّن يوماً بعد يوم، وكل يوم أتعلم فيه كلمة جديدة، أشعر، بفرح غامر ما بعده فرح. كل يوم أقول كلمة جديدة، أو ألفظها، بشكل حسن، أشعر، بسعادة بالغة. كنت أتحسن شيئاً فشيئاً، وأعرف أني أتحسن، وكان هذا يدفعني للمزيد، بل للتخلص حتى من اللكنة التي رافقت تعلّمي. كنت مولعة بسؤال واحد:

- ما نوع لكنتي؟ هل هي تشبه لكنة الأفارقة الذين يتكلّمون الفرنسية؟ أم المغاربة؟ أم سكان أوربا الشرقية؟ أم العرب؟

- "لماذا تشغلي عقلك، يا بنية، بهذه الأسئلة...؟" صديقتي الإفريقية قالت لي.

- "أريد أن أعرف فقط. لا أريد أن يعرف أحد من أين أنا، أو يكتشفني ويحزرني من لهجتي.."

- "وما الضير؟"

- "لا أعرف ... ولكنْ؛ لا أريد أن يعرف أحد أنّ لي أصلاً عربياً".

- "لماذا؟"

- "هكذا، لدي شعور يحفّزني أن أفعل هذا".

***

أتذكر تلك الأيام، كما لو كنت أطوي صفحة متهرئة، في كتاب قديم. أعود في المساء، أضع كتلي الشاي على الطبّاخ، وأجلس على السرير، أنظر، بملل، إلى الحائط الواسع. أشعر، بالحجرة التي أقطنها ساكنة، من دون صوت. بعد زمن قصير من العزلة، شعرت، فجأة أن الحياة قد خمدت. شعرتُ، بأني أعيش مثل كلبة حزينة، جالسة في مكاني، من دون شكوى. مندسّة في حجرتي المربّعة، لا أنظر إلا إلى أحذية العابرين

من شقتي. ليس هنالك سوى نافذة عريضة، في الأعلى، بموازاة الرصيف مباشرة، ولم أكن أنظر من المارة سوى أقدامهم. بل كنت أحصي عدد الأحذية التي تمرّ، وأعرف الناس الذين يمرون من أحذيتهم ...

أوه صاحب الجزمة السوداء لم يمرّ هذا اليوم ... إنه يسير، بثبات، كما لو كان عسكرياً متقاعداً... أوه، أعرف تلك المرأة العجوز التي تمرّ، بصورة بطيئة، وترتدي حذاء من القماش ... لماذا لم تمر منذ أيام؟! هل ماتت هذه المسكينة؟!... آه، كم يعجبني أن أسأل هذه الفتاة، من أين اشترت هذا الحذاء الأحمر، لقد بحثت عنه في السوق، ولم أجده؟...

هكذا أمضيت الأشهر الأولى من سكني في هذا النزل. ولكنْ؛ بعدها تعلمت حيلة جديدة لتمضية الوقت، أخذت أهرع في أيام رمي الأثاث؛ كي أجمع ما يرميه البلجيكيون، وأضعه، في حجرتي. كنت أجمع كل شيء، طاولة إحدى أقدامها مكسورة، فأقوم، بإصلاحها. سكاكين مطبخ، ملعقات، شوكات، طناجر، ستائر، قطع صفيح، جزمة، كتب فرنسية وفلامانية، روايات تجسّس، كتب تاريخية، ألبومات للزهور والخمور، أطالس جغرافية.

بل تخاصمت كثيراً مع الغجر الرومان الذين يأتون، بسيارتهم، ويجمعون الأثاث وأدوات المنزل لبيعها في سوق الأحد. كانت شاحناتهم تجوب الشوارع مثل حيوانات ضخمة. يحملون أطنان الأثاث والأغراض المنزلية إلى منازلهم، ومن ثم؛ يبسطونها على الأرض أيام الآحاد لبيعها. بينما يعود البلجيكيون لشرائها منهم، مرة أخرى. كنت أسخر من البلجيكيين الذين يرمون حاجاتهم في الشارع، وبعد ذلك يأتون لشرائها من المهاجرين، كنت أقول:

"إن البلجيكيين حينما يفعلون هذا، فإنهم كما لو يشترون برازهم".

***

كنت متحمّسة كل شهر وسعيدة لفكرة أني سأعثر على شيء جديد في المرة القادمة. وهكذا أصبح هذا اليوم الذي أخرج فيه مبكّرة، أي منذ الفجر ألمّ الأثاث، أجمل يوم في الشهر. لقد أصبح هو اليوم الوحيد الذي له معنى في حياتي وقتذاك. كنت أحسب له حساباً، بينما أقضي الأيام التالية، وأنا أصلّح وأعدّل في الأثاث الذي أحصل عليه. حتى خطرت لي فكرة أن أبسّط أنا أيضاً في الشارع لبيع هذه الأغراض المستعملة في سوق الجمعة. وهو سوق، يحدث مرة واحدة، في الأسبوع، من الصباح إلى الساعة الثانية ظهراً.

حملتُ أغراضي من الساعة السادسة صباحاً، أخذتُ مكاناً جيداً، ووضعتُ أغراضي التي انتقيتُها انتقاء على مدى أشهر، وعملتُ على إصلاحها أياماً وأياماً. بل أنا منذ أشهر ليس لي سوى دقّ المسامير والغسل والتلميع. ما كاد أن ينتهي السوق حتى بعت الأغراض كلها. كنت في غاية السعادة، لقد شعرت أني أجمع مبلغاً جيداً، وهكذا سأستغني شيئاً فشيئاً عن المساعدات الاجتماعية التي أحصل عليها.

***

لقد عدت إلى المنزل كتاجرة ذلك اليوم، ومن فرحي، قررت أن أعزم نفسي على مطعم جيد، كنت أمر منه على مدى أشهر دون أن أتمكّن من دخوله. ذلك أن المساعدات التي أحصل عليها، بالكاد تكفيني، لشراء غذاء متواضع من المحلات الرخيصة. ولكنْ؛ هذه المرة، جلست في مطعم، وصرت أقرأ المنيو، وأطلب التحلية. شعور رائع لهذه التاجرة الجديدة التي حلّت على سوق الأحد، في بلجيكا.

لم يكن يخطر في بالي المشاكل التي سأواجهها في عملي الجديد، أبداً، تصورت أني سأعيش في هذا العالم، كما أنا، ولا يتدخل الآخرون في حياتي. بل سأقضي حياتي هنا بسلام دون أن أؤذي أحداً، أو يؤذيني

أحد. ولكني كنت مبالغة في التقدير، ربما، لم يكن الأمر بهذه السهولة أبداً، فقد بدأت المشاكل منذ الأسبوع الثاني.

في البداية، كانت هنالك مشكلة على المكان، فقد جئت صباحاً، ووضعت أغراضي في المكان الذي كنت عليه في الأسبوع الماضي، إلا أن شخصاً جاء، وأزاح أغراضي أمام عيني، قال إن هذا المكان مكانه، وإنه لم يأت في الأسبوع الماضي، هذا لا يعني أني أستولي على المكان، وهكذا حشرت نفسي بين مجموعة من الرومانيين والألبانيين.

في البداية، جاءت بائعة رومانية عجوز، وطلبت أن تشتري جميع أغراضي بثمن بخس جداً، فرفضت، لا أريد بيع أغراضي، بأي ثمن، ثم أني سعيدة هنا أن أبيع أغراضي، وأنا جالسة على كرسي، وأتكلم مع الزبائن، أشعر للمرة الأولى أني على علاقة بالناس. لا أريد أن أقبض الثمن هكذا، وأعود للمنزل، ماذا أصنع هناك؟ هكذا قلت للعجوز، إلا أنها نظرت لي بغضب، وقالت لي، إن لم تجدي ما تفعليه، اذهبي، وضاجعي الكلاب. وغادرت.

بلعتها. شعرت، بالإهانة، ولكنْ؛ عملت نفسي لا أسمع.

المرة الأخرى جاء مجموعة من الألبانيين الباعة القريبين مني، وطلبوا صرافة عشرين يورو. فأعطيتهم. إلا أنهم أخذوا مني المبلغ، ولم يعطوني قطعة العشرين. وحين طالبتهم بها، سخروا مني. قالوا لقد أعطيناك إياها، ولكني لم أستلمها، ضحكوا مني. قال لي أحدهم ربما وضعتيها في مؤخرتك، ونسيتيها.

جننت. ما هذا التعدي؟

عدت إلى عملي، ذلك أن مجموعة من الزبائن قد جاءوا ليشتروا شيئاً، إلا أن أحد الألبانيين جاء ورائي. لقد تبعني. رأيته، ولكني تظاهرت بأني لا أراه. كان شاباً طويلاً، وجهه وسيم، وجسمه رياضي، ولكنه في غرور دائم.

كنت أكرهه جداً، فقد كان أشبه بالكلب، حينما ينظرني، فإنه يفعل ذلك بنظرات لها معنى مخجل.

وقف خلفي مباشرة، وما إن ذهب الزبائن، انحنيت كي ألمّ الملعقات والسكاكين، فمد يده إلى مؤخرتي. كنت استشطت غضباً، حقاً. التفتُّ إليه وصفعته على وجهه. فأمسكني من يدي، وأراد أن يلويها، حاولت أن أمسكه من خناقه، إلا أنه رماني أرضاً، هويتُ، ولكني حملت طنجرة ثقيلة، نهضتُ، وضربتُه بها، على رأسه، فسقط على الأثاث، هو ونظارته السوداء.

لقد تجمع جميع الناس هناك للتفرج على هذا العراك، وكانوا يسألون لماذا هذه المعركة، كان الألبان والرومان من أصحابه يقولون إنها عاهرة، وهذا الشاب يريد تأديبها. فصرت أصرخ عليهم مثل مجنونة. فنهض هو من مكانه، ولكمني على وجهي، ثم أمسكني من جاكتتي، وقطع أزرارها، فهويت على رأسه بزوج الأحذية التي وجدتها في ساحة فلاجيه، وكانت جديدة، وفيها العديد من السيور، وهكذا أفلتني، وكان وجهه مليئاً، بالدم.

***

لقد شعرت يومها بالإهانة والإذلال، حين عدت إلى المنزل، بكيت، بحرقة وألم. وقد ذهبت إلى الشرطة؛ كي أشتكيه، ولكن الأمر كان بائساً جداً. لم تفعل الشرطة ما ينبغي. كانوا يتعاملون مع الأمر، كما لو أنها معركة بين مهاجرين. معركة لا تخصّهم، شلة من الأوباش يتصارعون على ما يرميه البلجيكيون، من منازلهم.

شعرتُ بالأسى. بالانحدار التام. بل بقيت في المنزل شهراً كاملاً من دون أن أخرج إلا للسوق، وبأقل الحاجات، وأعود للمنزل. كان الجو بارداً، بعواصف وأمطار شديد، وحينما كنت أخرج، أشعر أن كل الناس تنظر نحوي، باحتقار شديد. وهنالك العديد من الشبان من أبناء المهاجرين يحاولون التحرش بي. مرة وقف أحدهم، وأخرج عضوه المختون أمامي، فهربت دون أن أنطق بكلمة.

لقد شعرت أن هذا المكان لم يعد مكاناً ملائماً لي. لقد أصبحت غريبة، تائهة، حتى إنني لم أشعر برغبة بالصراخ في وجه مَن يزعجني، كما في الماضي. أصبحت مثل بقرة عجوز. وكنت أشعر أن الكثير من العرب والأفارقة حينما أمر أمامهم، يقومون بحركات بذيئة، باتجاهي. كانوا يتلفّظون، بسخافات، لا أعرف ما هي. غالباً ما كان يثير هذا حنقي. وكنت شعرت في تلك الفترة أنه ما من مكان هادئ في هذا العالم، لامرأة، ولا أي مكان منعزل، يمكنها أن تلجأ إليه، ومع أني أعيش في تجويف، في مغارة، في بقعة منسية، ولكنْ؛ لم يتركني أحد، بحالي، من دون إشارة بذيئة، براز، أو تلصص.

***

في تلك الأيام السود، جاءتني الرغبة الحقيقية؛ كي أنهي حياتي. لقد قررت أن أنتحر. لم يعد لي في هذه الحياة أي شيء. الشيء الوحيد الذي جعلني أستمر بها هو الكرامة، ولكن كرامتي قد هُدرت هنا في السوق. لم يعد أحد ينظرني، باحترام، أو على الأقل، كإنسان. ما معنى بقائي بهذه الحياة، أنا وحيدة؟! لحظات، وأكون قد غادرت هذا الألم الذي يثقل لي قلبي!

اشتريتُ موسى، وقفتُ أمام المغسلة، نظرت في وجهي، في المرآة، وشاهدت كم كنت تعيسة وبائسة. كان وجهي مهدّماً، بقعة زرقاء تحت عيني من السهر. شحوب حتى كأن الدم قد هرب من وجهي تماماً، هبطتْ دموعي من عيني، بينما الموس يمزّق شرياني.

***

لحسن حظي، أو لسوء حظي، لا أعرف، كنت نسيت إغلاق باب شقتي. وهكذا عدت إلى السرير، وغرقت في دمي ودموعي. غير أن السيدة ديبوا، جارتي العجوز هي التي شعرت بأن شيئاً ما يحدث،

ليس على ما يرام، في منزلي. لقد سمعت صوتاً غريباً، وهي تمر من باب حجرتي الموارب، فدفعت الباب؛ لتسأل عني إن كنت بخير، أو لا! فوجدتني ممددة، وغارقة في بركة الدم، على السرير من حولي، فارتبكت حين رأتني. بينما لم يكن لدي القدرة على الكلام معها، كنت أشبه بفاقدة لوعيي، كنت أرى وأسمع كل شي حولي، ولكني لم أكن قادرة على فعل أي شيء، لا الكلام ولا الحركة. حينها اتصلت السيدة ديبو بالإسعاف، وأنقذتني.

لا تلمني، كنت يائسة مهدّمة، فأردت الموت والخلاص، كان مقدار الألم الداخلي كبيراً، كنت أشتهي أن يمزّقني ذئب، بأنيابه، أو أن تدوسني عجلات قطار، كنت أريد موتاً بشعاً، يعادل هذا الألم الذي أثقل قلبي. ليس هنالك من ألم أكبر من ألم الإهانة والكرامة المهدورة، لامرأة أبداً. كرامة المرأة هي الشيء الوحيد الذي يجعلها تستمرّ في الحياة، هدرها وإهانتها يعني موتها، ببساطة.

هكذا عشت تلك الأيام، أياماً سوداء. ولكنها مرت، وعدت، بسرعة كبيرة. لم يكن الأمر سهلاً، ولكني استطعت تجاوز هذه المرحلة، إلى مرحلة أخرى.

***

نعم، لقد تجاوزت محنتي. وكنت أبحث عن سبب مأساتي. فأدركت أن سبب مأساتي هو أني أعيش في هذا العالم كلاجئة غريبة ووحيدة أيضاً. المهاجرون الذين جاءوا للعمل هنا، لهم عائلاتهم، وشبكة علاقاتهم، وأعمالهم. بينما يأتي اللاجئ، بسبب الحروب والكوارث وحيداً، دون عمل، دون علاقات، المرأة على نحو خاص. العمال المهاجرون أكثر استقراراً، وأكثر غنى، لذا؛ فهم لا ينظرون باحترام للاجئين القادمين بسبب الحروب والأخطار. فالأخيرون فقراء، وحيدون، يعيشون على المساعدات، لا يعرفون

اللغة. وهكذا تنظر طبقة المهاجرين العاملين إلى اللاجئين باحتقار دائم. للمرأة، على نحو خاص، فهم يعتبرونها عاهرة، أو عاهرة كامنة، لذلك؛ فهم يحاولون الإيقاع بها قدر الإمكان.

العمال المهاجرون لا يحترمون إلا الساكن الأصلي، هم يكرهونه، ولكنهم لا يحتقرونه. يشعرون بدونيّتهم أمامه، ينظرون إليه، بإعجاب شديد، ولكنهم لا يحبونه. أما اللاجيء فهو في الدرك الأسفل من هذا التقسيم.

وهكذا قررت أن أغيّر هويتي، أن أغيّر حياتي، برمّتها. الشيء الأول الذي قررت تغييره هو اسمي، لم أعد فاطمة العربية، إنما صوفي البلجيكية. اسم وجدته في الصحيفة.

كنت قرأت صحيفة لو سوار البلجيكية ذلك المساء كاملة. وكتبت كل اسم، عثرت عليه فيها على ورقة في دفتري. وهكذا اخترت اسمي صوفي، ثم عرجت على اسم لعائلة بارزة دومونت Dumont، ووضعته كاسم لعائلتي. فرددت مع نفسي أنا صوفي دومونت، فشعرت بالفرح والانتشاء.

قلت لنفسي الأسماء أقدار، كان قدري مع اسمي فاطمة سيئاً، هكذا علي أن استبدله، باسم آخر، عله يجلب الحظ لي. الاسم البلجيكي الجديد سيمنحني حياة جديدة، سينكر كل أصل سابق لي، وينفيه. سيجعل مني امرأة محترمة. سيرغم الآخرين على احترامي.

كما أنني قررت مغادرة هذا المكان الذي لا يعيش فيه إلا المهاجرون، لذا؛ عليّ إيجاد عمل ثابت، بصورة سريعة، سيمكّنني من كراء أو شراء شقة، في مكان محترم. في مكان، لا يقطنه المهاجرون، إنما البرجوازيون المحترمون.

هكذا قررت ذلك الوقت. لم يكن هذا الأمر أمنية فقط، إنما كان فعلاً أيضاً. ذلك أن الاسم الجديد ما إن انطبع على بطاقتي حتى منحني قوة

جديدة. شعرت أن هذا الاسم له طاقة أخرى غير الطاقة الواطئة التي كان عليها اسمي القديم. بل إن مجرد لفظ اسمي الجديد، قد منحني قوة فائضة، قوة مضافة، تأتيني، من مكان ما، وتضاف لجسدي وإرادتي، وأن هذه القوة قادرة على رد أي اعتداء عني.

***

مع الاسم الجديد تغيّر كل شيء في حياتي.

لقد انتهى عملي، في السوق، ولم أعد أرغب، في جمع أي شيء، والشقة التي قطنتها، وأحببتها، وكنت أعتقد أنها أفضل مكان، في العالم، قد تغيّرت في نظري فجأة. صرت أكرهها، وأمقتها. لقد تبدّلت مشاعري كلياً نحوها.

في البداية، كنت أحب هذا اللون الوردي المبهر، لون الجدار الفاقع، خشب الجوز الذي يحيط الموقد، الستائر الزرق. السرير الموضوع تحت النافذة. الطاولة التي اشتريتها؛ كي أكتب عليها، أو أقرأ عليها كدسة الأوراق التي تأتيني، من الإدارة المحلية، أو من الشرطة.

كانت هي غرفة معيشة، ومطبخ، وهنالك سرير، يُستخدم للنوم، كما للاستلقاء والاسترخاء.

لكنْ؛ بعد أن غيّرت اسمي، صرت أنظر للحجرة هذه على أنها حجرة لاجئة فقيرة، حجرة بشعة، تليق بفاطمة التي رميتها خلفي. بتلك الفتاة التي اغتصبت من قبل المهرب الخائن، والتي أهانها الألباني الكلب، وضربها في الشارع على وجهها. لتلك اللاجئة التي يحتقرها ويذلّها المهاجرون، ولا تريد أن تسمع الشرطة البلجيكية شكواها. حجرة بشعة، كئيبة، رطبة.

لكنْ؛كيف تغيّرت في نظري بهذه الصورة السريعة؟

كان لتعرفي على جارتي البلجيكية والهولندية أكبر الأثر علي، بدخولي لشقتيهما، تغيّرت نظرتي لشقتي. بفضلهما، عرفت شيئاً فشيئاً أن هذه الشقة التي أقطنها هي الأكثر بشاعة ودمامة، في كل بروكسل، بل في كل بلجيكا أيضاً.

ما هذا الشريط بلون وردي هابط من أعلى السقف إلى أسفل؟! ما هذا الرف الدميم الموضوع على المغسلة؟! ما هذه المدفأة المصنوعة من حديد؟! بدأت أرى فيها بشاعة النتوءات السود والطلاء البشع الذي يغطيها. فاشتريت مدفأة أخرى، وجعلتها أمام القديمة؛ لكي تختبئ القديمة وراءها، ولا يظهر منها شيء. أخذت أشعر بأني أقل الناس مكانة. أخذت أشمئزّ من ورق الجدران العبثي، من صورة الإعلان التركي الذي أخذ يتجعّد. من الشكل المربع والمصمت للحجرة.

أصبحت أشعر أن الجدار لم يعد مريحاً للنظر، وأن الشقة كلها على وشك الانهيار. كيف لم أر الجدار المجاور للحمام، جدار مرطوب، عليه فقاعات منتفخة صغيرة، على امتداد قدمين، وربما أكثر. حاولت استبدال ورق الجدران، حاولت طلاء الحائط، حاولت أخفي التشوّهات، شعرتُ، بالاستياء واليأس، يا إلهي، أريد أن أكون مثل تلك البلجيكيات الجميلات، وهن يعشن في بيوت جميلة وراقية. ولكنْ؛ كيف؟

***

حين أدخل إلى شقة جارتي البلجيكية العجوز، وهي سيدة جميلة المظهر، تتكلم، بشكل وقور محبب ومحترم، كثيراً ما أساعدها، في حمل أغراضها حين تكون خارجة من السوق، فأدخل معها شقتها. أنبهر بالترتيب الذي عليه صالونها، السقف مسطّح أملس، بلا نتوءات، ولا وجود لورق جدران يتجعّد على الحائط، ليست شقة دميمة مثل شقتي، أو لها مظهر، وكأنها على وشك الانهيار.

مرات عديدة دعتني السيدة الهولندية التي تقطن أعلى شقتي، للدخول إلى شقتها. كانت امرأة جميلة، تعيش، برفقة زوجها، كانت مهووسة، بترك ملاحظات على السلم، تناشد القاطنين أن يلتزموا، بالهدوء ونظافة السلم. كان زوجها يعمل في البريد، وكل يوم في المساء، أسمع صرير سرير الحب يئنّ فوق رأسي. كأن السقف الذي يفصلنا أجوف، أسمعها، وهي تسير إلى الحمام، أسمع استيقاظها كل صباح، أشعر بغبطتها، وهي تعد الفطور، أسمع رنين الأكواب والملاعق، أنتبه لصوتها، وهي تأخذ الدوش، أسمع وشيش الماء، وهو يجري كأنه يجري في آذاني.

كل يوم أتساءل ماذا ينقصني - يا ربّ - لأكون مثلهم؟!

***

غير أن التحول جاء. لقد حصلت - أخيراً - على عمل ثابت، وبراتب شهري. عمل في شركة تركية للتنظيف. تستخدم عشرات النساء، من كل الجنسيات، مغربيات، تركيات، ألبانيات، بوسنيات، وصربيات، لتنظيف الشركات، نعمل في الصباح الباكر حتى بداية عمل الموظفين ... ونعود بعد نهاية أعمالهم أيضاً.. العمل تارة في الليل، وتارة في الصباح ... أخذت أعمل، بجدّ. أتكلم، بشكل هادئ ... من أول راتب، اشتريت ملابس جميلة. كما أني انتقلتُ في السكن إلى شقة واسعة ومريحة، بالقرب من السابلون، في الميل بروكسل، في شارع، فيه العديد من المقاهي والمطاعم والمحلات الراقية.

أصبحت أتعلم كيف أضع المكياج الخفيف؛ كي أذهب للعمل. كيف أشتري شطائر بخسة الثمن؛ لكي أدّخر لشراء شقة. أصبحت أتعلم الحياة شيئاً فشيئاً، ولم تكن من دون استثناءات، فكنت أذهب - أحياناً - إلى المطاعم الراقية مرتين أو ثلاث في الشهر، في لويز، أو في أوكل، دون أن أطلب القهوة، أو صحن التحلية.

ثمة رجال كانوا يدعونني للطعام، فأبتسم لهم، كنت آكل معهم، وأعلم أني لن أدفع في نهاية السهرة. كانت شقتي جميلة، أمامها مربع من العشب الأخضر، وكان يمكنني حين أغدو في سريري، أن أرى السماء الزرقاء في الصيف، والتي تتحول إلى بنفسجية.

***

رئيس عملي بوسني عمره ثلاثون عاماً، وهو شاب وسيم ومهذب، في غاية التهذيب، لم نسمع منه كلمة نابية واحدة، وهو المسؤول عن تشغيل النساء. كان راضياً جداً عني، لم تكن بيننا علاقة، ذلك أن له صديقة بوسنية جميلة، من بلده. ولكنه في يوم ونحن نتحدث معاً، قال إنه يريد التغيير. عرفتُ مقصده، ولكني لم أقل شيئاً. لم أجبه عن هذه الفقرة من حديثه، مع أنني عرفت مقصده. لم أقل له إني أحبه، ولم يقل لي هو ذلك. لم يكن بيننا أي شيء سوى أنه يحترمني جداً. كان يدافع عني إذا ما حدثت مشكلة، ويسمح لي مرات حين أنهي عملي أن أجلس في حجرة التدخين، أدخن، وأثرثر، مع النساء ...

مرة اتصل بي بالتلفون، ولم أجبه. كان يريد أن يخبرني عن تغيير موعد وردية عملي ... قلت له إن موبايلي عاطل، فعرض علي أن يأخذه لصديقه مصلح الموبايلات، وسيصلحه لي مجاناً، فأعطيته له.

هكذا كل ما كان بيننا، وحين أعاده لي، شكرته ... وفي الليلة ذاتها، كتب لي رسالة نصّيّة على الموبايل، يعرض علي أن نتعشى معاً... قلت له نعم ... سأفكر في الأمر. غير أنه لم يصدق ذلك، فأرسل لي في اليوم ذاته أغنية داليدا مجرد كلام paroles paroles ... ليقول لي إن ما قلته له هو مجرد كلام، أما الحقيقة؛ فأنا لا أريد الخروج معه.

هذا كل ما حدث بيننا.

غير أن النساء اللواتي كنت أعمل معهنّ، أشعن أني نمت معه. لكن هذا غير صحيح، ولكني سمحت له مرة أن يقبلني من فمي. كان ذلك في نهاية العمل بعد أن أخذت النساء، بتغيير ملابسهن، ولكني لم أنم معه أبداً...

VII

دخلت صوفي شقة أدريان بعد عودتها من المستشفى. فتحت الباب، بالمفتاح، ودخلت الصالة. أنارت المصباح، فانتشر الضوء الباهر على قطع الأثاث المرتبة ترتيباً جيداً. وضعت حقيبتها على الكرسي، ودخلت المطبخ، أعدّت لنفسها فنجان قهوة. ثم عادت إلى الصالة؛ كي تجلس على الأريكة، وتبدأ بتقليب الألبومات وقراءة الرسائل والصحف القديمة الخاصة بالحرب الأهلية اللبنانية، وقد راعها أن ترى أن كل مجزرة كانت تقود إلى مجزرة أخرى.

حينما كانت تأتي إلى هذا المكان، كانت - على الدوام - برفقة أدريان، لذا؛ لم يكن ممكناً لها أن ترى كل شيء. كانت تأتي - في الغالب - في الليل، معاً حينما يكونان في سهرة، يطلب منها أن تأتي معه إلى منزله، مع أنهما تعوّدا أن يكونا - على الدوام - في منزلها.

هذه المرة الأمر مختلف، لقد شعرت، بحرية أكبر، شعرت أنها تكتشف كل ما كان مخبوءاً عنها. كان الفضول يستعر فيها، فتبحث، في كل مكان، عن أي شيء، مهما كان صغيراً؛ لتعرف الحقيقة، حقيقة حياته. لم يكن الأمر يشكّل لها حرجاً، كونها تطّلع على أوراق أدريان الخاصة به، أبداً، كانت تشعر أنها يمكنها - من خلال معرفة هذه الأسرار - مساعدته، أو على الأقل، يكون لها القدرة على تفهّمه، ومن ثم؛ ستكون علاقتها به مبنية على أساس صحيح. فهذا الغموض غير المفهوم أتعبها. جعلها مرهقة، لا تعرف ماذا تصنع، ولا تدرك حتى أين هي في هذا الوضع الملتبس، برمّته.

***

دخلت مكتبه، جلست على الأريكة، لقد قامت بذلك بصورة عاطفيه حقاً. فهي تعرف هذا المكان جيداً، بل كانت تحبه. أكثر مكان في الشقه حميمية، بالنسبة لها. هنا مارست الحب معه مرة، وقضيا الوقت، في اللمس الرقيق الذي يُنسي، ويهدّئ النيران المستعرة. من هنا، ينظران عبر الشباك الواطئ، تتأجج ألوان الحديقة في البارك تحت أشعة الشمس الساطعة. من هنا، يعدّان الزهور التي تظهر قبل أن تُقطف. كانا جالسين هنا مرة حين صارحها بأنه يواجه مصاعب مالية، فساعدته على دفع إيجار بضعة شهور للشقة. هنا خطّطا قبل أسابيع للرحيل نحو سيسيليا، في إيطاليا، بالسيارة. وفي يوم كانا نائمين هنا، وفي منتصف الليل قررا أن يخرجا للتجول، في بارات الحي؛ كي يشربا، ويدخّنا، وقد عادا إلى المنزل متأخّرين، مع أن عليهما - في الصباح - الاستيقاظ مبكراً.

***

على الرفّ، بضعة أشرطة فيديو، اختارت واحداً، اسمه مقابلات مع أفراد من مليشيات الحرب الأهلية اللبنانية. المخرجة ألمانية، اسمها وصورتها على الشريط. السكوتش الموضوع عليه قديم. الصورة في الجانب الآخر مرعبة، صورة لمجزرة. لكن ما أغراها في هذا الشريط أن صورة الشخص الذي تمت المقابلة معه ملصقة على الغلاف. شعرت أن صورته مألوفة لديها.

وضعت صوفي شريط الفيديو، بالجهاز، وجلست قبالة التلفزيون.

كان الفيلم يقدم مقتطفات لأحداث الغزو الإسرائيلي للبنان في العام ١٩٨٢. فلسطينيون، مليشيات مسيحية، أحزاب لبنانية. صراع دموي مع موسيقى معبّرة أشبه بحشرجة شخص يموت. كان الفيلم عبارة عن كابوس، أشبه بوحش مخنوق، مع صوت طبول؛ ليظهر - بعدها - شخص، يتكلم عن اقتحامه مع مجموعة من أفراد المليشيا أحد الأحياء، في بيروت.

الشخص يتكلم، بصورة مرتبكة. لم يكن منضبطاً. لم يكن محرجاً، ولكن عينيه تراوغان. لم يكن خائفاً، إنما كان قلقاً. أخذ - في البداية - يتحدث عن نفسه كيف انتظم إلى هذه المليشيا التي اقتحمت الحي: فقد كان في مجموعة مؤلفة من أربعة وعشرين رجلاً، ذهبوا، باتجاهين متعاكسين، كانت مهمتهم واضحة: القتل، ثم القتل، ثم التنكيل والتعذيب والاغتصاب قبل القتل! اقتلوا كل كائن حي، يتحرك: كبيراً، أو صغيراً، ذكراً، أو أنثى، إنساناً، أو حيواناً!

كان الرجل المرتبك، بقميصه الأبيض وعينيه الحمراوين، يعترف طوعاً. كان يتكلم، بصورة متلعثمة، في البداية. ثم أخذ صوته يصفو. أخذ يعترف، بكل التفاصيل، تفاصيل قتله لعائلة كاملة. كان يتكلم، بصراحة شديدة، ربما من أجل تفريغ الذاكرة من شحنة مرعبة من الصور والأحداث والتداعيات.

قال إن عمليات القتل تواصلت ثلاثة أيام، بلا انقطاع، كانوا يقتلون المدنيين جميعهم نساءً ورجالاً وأطفالاً. وفي اليوم الثاني، أردوا جمع الجثث ومحو آثار المجزرة، بتغطية الجثث المتراكمة في طبقات بأكياس النيلون، وبالمواد الكيماوية الخاصة. لكن الجثث كانت كثيرة، يصعب إخفاؤها جميعها. كانت الكامرة تعرض الجثث النافقة المنتفخة التي يتجمع عليها الذباب.

الرجل يعترف، ويعترف ... كان كلامه أشبه بعلاج للتنفيس عن الكتمان والاحتقان وهواجس القتل المحشورة في ذاكرته، قال إنه يريد أن يهرب من صورة البنت الصغيرة التي أراد قتلها، وقد اختفت في المنزل الذي قتل فيه جميع عائلتها. صورة البنت الصغيرة ظلّت تلاحقه. تلاحقه حتى الآن. لا يريد شيئاً الآن سوى أن يهرب، من كابوسها. يريد الهروب من شبحها الذي يلاحقه. في مقطع آخر، كان يحاول أن يحمي نفسه، بالستارة التي بجانبه.

يتوقف كل شيء، في الفيلم. ثم يظهر الشخص ذاته، وهو يتكلم، من مصحة في السويد. تركّز الكاميرا على وجهه ويديه.

كنا مسلّحين بكواتم الصوت والبنادق العادية. يعني كلاشينكوف ... معنا بعض القنابل اليدوية. أصحابي كان معن سكاكين وبلطات.

بالنسبى، لئلي، أنا كان معي كلاشينكوف بلغاري، ومعي دوبل مخزن، ومغطّى بالسكوتش.

قتلت أول واحد، صادفني في المخيم ... قوّست عليه، بالصدر، وبعدين، قوّست عليه، بالراس، كنت اتغمست بالعرق.

مشيت شي عشرين متر، ودخلت بيت واحد معتّر. الباب حديدية لونها زرقة ومكتوب عليها رقم ١٢.

ضربت الباب، بإجري، ودخلت. كان الشاب متلقح قدام التلفزيون على الكنباية، ويتفرج على فيلم عربي.

صمت ...

قوّسته بالصدر، وبعدين، بالراس.

صمت...

أخوه دخل علينا، كان شايل قنينة مية، جايبها من الثلاجة، قوّست عليه كمان، بالصدر، وبعدها قوّستو، بعينو.

صمت ...

البنت الصغيرة كانت في الممر، شافتني، اطّلعت بعيني، شافتني، لما قوّست الاثنين. ردت أقوسها، صرخت، وهربت. تركتها...

قلت: "وين تروح؟ خلي أخلص على الباقين، وارجع لها، البيت صغير، وين تروح؟"

دخلت الغرفة التانية، كان نايم فيها الأب والأم على الأرض، الأب صحا مفزوع من مكانه، فقوّسته، فسقط على الأم اللي راحت تتلوّى وتتوسّل أن أتركها، إلا أني قوّستها، براسها، وهي تحت الشرشف، فنفط الدم من الشرشف الأبيض. طلع علي ...

صمت ....

رحت على الغرفة التالتة، ادور على البنت الصغيرة. بس ما شفتها.

الغرفة كان فيها كراكيب كتير، فيها دولاب ملابس، وفوق الدولاب صورة لبو عمار، قوّست على الصورة.

دوّرت الدولاب عالبنت الصغيرة ما لقيتها. ما كان ممكن اتركها، هي بقد إختي إيلين يللي قتلتها المليشيات اللي هون ...

كان لازم آخذ بتار إختي. لازم آخذ بتار إختي ايلين من هل البنت الصغيرة.

دوّرت الحمام، ما لقيتها، رجعت على الغرفة يللي فيها إخواتها، دوّرت تحت الكنباية، ما لقيتها.

صاح علي عماد والبير زمايلي في المليشيا

- يالله، ما خلصت؟!

- خلصت.

شو عندك جوّه

- جيت.

طلعت من البيت، ومشيت معون شي ثلاثين متر. قلت لهم:

"فيه بنت صغيرة، ما قوّستها بعد ... أنا راجع لها".

ورجعت على البيت. دخلت بشويش. سمعت صوتها عم تبكي رحت أدوّر على مصدر الصوت، دخلت الغرفة، سكتت.

رحت أدوّر أدوّر، ما خليت مكان ما دوّرتو، ما لقيتها، مثل فص ملح وذاب.

صمت ....

وين هالبنت؟! وين راحت؟! وين صارت؟! ما أعرف!!.

رجع علي عماد والبير، قالوا:

"يالله، ما خلصت؟"

طلعت من البيت. ليه ما قوّستها أول ما كانت في الممر. راحت علي.

نظرتها وهي تَطّلع في عيني، صوتها، وهي تبكي، علقت، براسي، لهلق ما طلعت من راسي.

أنا هربت، من لبنان، واشتغلت، وجمّعت مصاري، وهاي البنت ما تطلع من راسي. في البداية، كانت تجيني كل شهر، بعدين كل أسبوع، بعدها صارت تجيني كل يوم.

اليوم في راسي، في الليل، وفي النهار، هاي البنت ما تطلع من راسي ... علقت، براسي، وما تريد تطلع من راسي ...

صمت ....

ليه ما قوّستها، من كانت في الممر؟! راحت علي.

قطع ...

فتاة سمراء، بشعر أسود، بملامح بسيطة وهادئة، ترتدي بنطلوناً من الجينز وقميصاً أبيض.

دخل البيت، كان لابس على وشو قناع أسود، وقوّس أخوي محمد، وبعدين قوّس أخوي شادي. أنا كنت في الممر رايحة مشان أنام مع أمي وأبوي، في الغرفة. اطّلع فيّ، صرنا أنا وهو عين بعين. هربت أنا. وخبّيت حالي تحت الحرام عند إجر أمي. هو دخل الغرفة تبعنا. قوّس أبوي، وبعدين قوّس أمي، وراح يدوّر في الغرفة اللي جنبنا. أنا ما تحركت من مكاني أبد. أنا عرفت إنو بيدوّر علي، ضبّيت حالي، وخرست، حتى نفسي قطعته. بعد شوي، طلع من البيت. تنفّست. بقيت بمحلّي، ما تحرّكت، بس صرت إبكي، إبكي. ورة شوي ... ما بعرف كم وقت مرّ، حسّيت انو رجع علي. سكتت. ظلّ يدوّر في البيت، ما لقاني... ظلّ شوية، وطلع من البيت.

صمت ....

بقيت يومين على هاي الحالة نايمة عند إجر أمي الميتة.

صمت ....

ما اتحرّكت أبد.

صمت .....

يومين، وأنا متكورة هيك على نفسي، متخبّاية تحت الحرام، ما بعرف شو يللي يصير بره. كنت شعرت أني محمومة، وشعرت بالجفاف بلساني، وشفتي عم تنزف، بس ما فيني أتحرك. كنت عملت من الحرام مغارة صغيرة، وأنا داخلى جوه ألمي وخوفي. بقيت أيام وأيام، وأنا أتبول على نفسي، وما بشعر على نفسي.

صمت ....

مر أكثر من عشرين سنة، ولهلق أسمع نفسه. ولهلق أشعر بأن عينه طلّع فيّ. لهلق أشعر بأنو يدوّر عليّ، ويريد يقوّسني.

***

حين نظرت صوفي إلى صورة الفتاة التي تكلّمت في الفيلم شعرت أن شيئاً ما غير مريح، بالمرة. لقد شعرت، بضيق، من نوع ما، ذلك أن هذا الوجه قد رأته، في مكان ما، في الصور، وتساءلت أين رأت هذه الفتاة؟! راحت تقلّب الألبومات. فجأة عثرت عليها. إنها زوجة إدريان

كيف؟ تساءلت. كاد أن يُغمى عليها.

***

لم تستطع صوفي النوم. فلم تمض ليلتها هادئة منذ أن رأت هذا الفيديو. استيقظت منتصف الليل. مغمّسة، بالعرق، في سريرها. قلبها يخفق، بقوة. كلما حاولت أن تستبعد هذا المشهد، من ذهنها، تفشل كانت مثل شخص، لديه خطة، ينفّذها، بإصرار. كان المشهد يعاود نفسه، في ذهنها مرة بعد مرة. لقد استبعدت كل شيء يذكّرها، بهذا الأمر، لكنها لم تستطع النوم. بعدها شعرت بأنها تقترب من أن تنهار.

نهضت من مكانها، ذهبت إلى الثلاجة، تناولت قرصاً منوماً، وعادت إلى الفراش. بعد ساعة تقريباً، شعرت بأنها تستسلم للنوم، فقد غفت. ولكنْ؛ هذه المرة، بعمق، للمرة الأولى منذ أسابيع؛ حيث حلمت بأنها لم تكن نائمة. إنما تسير مع أدريان. كانت تقبض على يده؛ كي لا يغادرها. تشعر كما لو أنهما يسيران فوق غيمة، يده الناعمة تقودها نحو الضوء. كان وحده القادر على أخذها إلى ضوء الشمس؛ حيث يسمعان موسيقا وزقزقة الطيور، وحتى هدير السيارات في الشوارع. وحين استيقظت، شعرت، ببعض الراحة، شربت قهوتها، وانطلقت خارجة، من المنزل.

٢٧ تمّوز

بالأمس، لم أستطع النوم. كنت تعذّبت كثيراً. نمت فترة قصيرة، ثم استيقظت، وجدت نفسي غارقة، بالعرق. كنت مبلّلة تماماً، كأني سبحت، في بحر. حاولت النوم، إلا أن الكوابيس منعتني. تاريخنا مظلم، يا صديقي. ولكنْ؛ بعد ذلك، استنجدت، بالحبوب المنومة، فنمت، نمت نوماً عميقاً، وحلمت بك. كنت تقودني، للشمس. فرحت، قلبي طار، من الغبطة، قلت لك:

- "هو الحب". ابتسمت.

سألتك:

- " لمَ تبتسم؟"

أدرت وجهك إلى الناحية الأخرى. أعلم أنك تبتسم حينما لا تريد أن تقول لي شيئاً. الحب غير المتعة التي يولّدها جسد آخر. شيء مختلف، لكنها تتضاعف مع جسد مَن نحب.

- " هل جرّبته؟".

ضحكت.

- " شعور عارم، في روح، تتجه نحو روح أُخرى".

كنت نهضت من مكانك، ببطء، التفتَّ لي، وابتسامتك ما تزال

مرسومة على وجهك. وقتها، كنتُ أظن أني سأموت جوعاً، من دونها، سأموت خوفاً، وعيناي مفتوحتان، كمعجزة ...

قلت لك:

- "هذا الصيف مختلف عن كل صيف، الصيف الذي أعلنت لي فيه عن حبك ...".

هل كانت مشاعري تكذب، من قبل؟! لقد كذّبت كل عاطفة كانت لي من قبلك، أو قبل أن أعرفك. لقد جرّبت ما يكفي من رجال؛ كي أكتشفك!

حين قال لي زوجي قبل موته إن سبعين حورية، بانتظاره، في الفردوس، شعرت بإذلال كبير. وحين وصلت هنا، إلى أوربا، قررت أن أنام مع سبعين رجلاً، أجرّهم جراً إلى فراشي.

كنت أريد أن أرى الرغبة المتولّدة من حب عابر، أو من إعجاب جسدي ما، كنت أبحث عن أي جسد. مثل اكتشاف قارّة جديدة. اكتشاف عالم، لم أكن أعرفه. هو نوع من التصالح مع جسدي الذي أخفيته، وخشيته، وأزلته. إنه إعلان عن حياة، عن روح جديدة كانت تتولد لدي. أعرف أنك لن تفهم هذا، ولا تستوعبه. لكنْ؛ ماذا أصنع؟! لم تكن حياتي سليمة مثل الآخرين!

كنت أبحث عن أي شيء ينقذني من هذه العتمة. فصرت أذهب للبارات كل يوم تقريباً في المساء، كي أخترع أحاديث، لا معنى لها. هكذا كنت أقضي الأمسيات، بثرثرة نساء ورجال، بتوهّم، بكلام زائل، وعابر:

- "ألا تصبّ لي كأساً أخرى؟ تعجبني هذه الموسيقى، هل تعجبك؟ "

هكذا كانت الحوارات بيني وبين الآخرين.

"أحبّ هذا البار جداً، اختيارهم للموسيقى الراقصة موفّق جداً، كما

أني أحب زبائنه أفضل من ذاك البار على الجهة الأخرى، على العموم، أنا مولعة ببارات هذه المنطقة أكثر من أي مكان آخر، في بروكسل...".

هكذا أقضي الأمسيات، أواصل الحديث عن البارات مع الرجال الذين ألتقيهم هناك.

"نعم، أنا كل يوم هنا، لا، لا، لست في البار ذاته، ولكني أحب أن أجرب كل البارات، ولم لا؟! ... لا يمكنني أن أستقرّ، في بار واحدة، أضجر من ذلك، أحب أن أجرب كلّ يوم باراً جديداً ...".

الرقص له حصّة أيضاً.

"هل تريد أن ترقص؟ ألا تحب هذه الموسيقى؟ نعم، أحب الرقص كثيراً... شكراً. وأنت - أيضاً - ترقص، بشكل جيد... ماذا نحن؟! ثنائي رائع! ... هل تعتقد ذلك...؟ لا أعرف، وكيف أعرف؟! آه، الكل ينظر إلي، بإعجاب!! ... شكراً، هذا لطف منك...".

أشعل سيجارة أخرى، أشرب من كأس النبيذ الذي في يدي، وأستمر في الحديث مع رجل وسيم، في البار.

- "الطقس هذا اليوم جميل جداً، ألم تلاحظ ذلك؟! لقد أبهرني الطقس جداً، استمتعت به، أحب الأيام المشمسة، في بروكسل، مع أنها نادرة. آه، نعم، ولكنْ؛ كيف عرفت؟ في الواقع، نعم، أنا كنت اليوم، في السوق، هل رأيتني؟!... آه، كنت مع صديق، مع صديق هكذا، ولكنْ؛ لماذا تسأل؟ ماذا يهمّك منه؟"

أضحك في وجهه، وأستمر في الحديث:

- " آه، نعم، أنت محق. لقد ذهبت إلى السوق، واشتريت هذه الحقيبة، ما رأيك بها؟ ماذا قلت؟ إني في ملابس الأمس كنت أجمل! اليوم أيضاً جميلة؟ شكراً، هذا رائع، أحب أن أسمع هذا الكلام! ".

في الغالب، كنت أخفي من أين أتيت، أو ما هو أصلي:

- "أنا ؟ لا، لا، لست من أي مكان، ولماذا تسأل؟ أنا بلجيكية، وحسب. هل سألتك من أين أنت. الحقيقة لا أريد أن أعرف من أين أنت، لا يهمّني ماذا تعمل، لا يهمّني من أي بلد جئت، أو هل أنت بلجيكي؟ أم لا؟ لا يهمّني أي شيء منك، سوى أني أعجبت، بك، كجسد، رأيتك وسيماً، فقررت أن أقضي السهرة معك. اسمع، لقد مللت من الشرب والتدخين، ألا نذهب إلى المنزل؟ نعم، إلى منزلي. ألا يعجبك ذلك؟! حسن، ادفع الحساب، وأنا سأنتظرك عند سيارتي، في الخارج".

أرمي حقيبتي على كتفي، وأسير خطوات ثابتة نحو الجهة الأخرى؛ حيث تنطفئ المنطقة التي فيها البار، وتُثار شقتي.

***

أعرف الآن - أكثر من أي وقت مضى - ما معنى أن تقع امرأة في الحب ... كنت أسير، بصورة عشوائية، كمَن تبحث عن شيء، ثم تقف عند مكان محدّد. عند رجل ما؛ لتقول هذا ما كنت أبحث عنه. كان عليّ أن أصارحك ... كان عليّ أن أقول لك الحقيقة، كان عليّ أن لا أكتم مشاعري وعواطفي أبداً أبداً... كيف أكتمها، وأنا أشعر بها للمرة الأولى في حياتي؟! ... أتذكر ذلك اليوم الذي جلست أنت فيه على الأريكة قبالتي، ووضعت ساقاً، على ساق، وكما لو كنت تكلم شخصاً آخر، قلت لي:

- " ...تكلمي".

كانت الستارة خلفك، وأنت نصف عار، جسدك يشعّ تحت حرارة الصيف والرطوبة القادمة من النافذة المفتوحة. أشعلت سجارتك، أطرقت رأسك مفكراً، ثم التفتّ لي متسائلاً:

- " ما معنى الحب، بالنسبة لك؟".

- "ما معنى الحب؟ إنه هذا الصيف، باختلافه، عن كل صيف آخر".

- "هل أصبحت شاعرة؟"

- "لا، ولكني مع حبك، أدركت لم اخترع الناس الشعر..".

- "لماذا اخترعوا الشعر؟"

- "حينما تكون اللغة عاجزة عن وصف مشاعرهم إزاء شخص آخر، فإنهم يخترعون لغة أخرى، يخترعون كلاماً آخر، يخترعون أشياء، لا علاقة لها بالأشياء المحيطة بهم، لأن الحب لا علاقة له، بأي شيء، يحيط بهم".

صَمَتَّ، ثم قلتَ، بطريقة متسائلة:

- "ولكنْ؛ لمَ أنا، وليس شخصاً آخر؟"

- " أجهل لمَ هذا الافتتان، بشخص ما دون آخر!! أجهل هذا الافتتان!! بالعذاب!! أجهل هذه الحكمة، أجهل لماذا أرتجف، أجهل لماذا أبكي حين أراك، أجهل لماذا أشعر باليأس..".

هكذا كنت أقول لكَ، وتفاجأتُ مرة حين سألتني:

- " لكنك عرفت أشخاصاً كثيرين...؟"

- " نعم، عرفت أشخاصاً كثيرين. ولكن معرفتي بك مختلفة جداً، أنت تعرف؟"

- " كيف أعرف؟"

كنت تخترع الأسئلة دائماً، أنت تخترعها، وبطريقة تعجيزية أحياناً، يتعذر عليّ إجابتها. قلت لك:

"حسن، اتركني، أفكر قليلاً".

وضعت يدي على عيني. كدت أفقد عقلي معك. لا تقل لي لا. لم أعد أصدقك. لا لا أصدقك. أنت هكذا دائماً، تحاول أن تشعرني باليأس. حينما تتحدث معي، تحاول أن تخترع الأسئلة التي لا جواب لها. خصوصاً حينما تأتي في الويكيند، ونكون قد قررنا الخروج لقضاء الأمسية معاً... تضحك مني ضحكة خفيفة، تسخر مني. في عمق النقاش، أشعر بأن في داخلك طفلاً صغيراً، يشاكسني.

مع ذلك، أنت لا تتوقف عن طرح أسئلة لا يمكنني الإجابة عنها. أعترف أنها أسئلة سهلة، ولكن الأسئلة السهلة هي التي - على الدوام - لا جواب عنها! أنت كمَن تسألني لماذا تطير الطيور، ولا تطير القطط؟!...

كنت أغيّر ملابسي، وأتجه نحو المرآة؛ كي أعدّ ماكياجي، فسألتك:

- " هذا الروج أفضل؟ أم هذا أفضل؟ كيف ترى أنت؟ أجبني عن هذا السؤال، حبيبي، إنه أفضل من أسئلتك التي لا جواب لها. أوكيه، سأضع هذا، هل تعتقد أن الماكياج الخفيف يليق الليلة أكثر من الماكياج العميق ... حبيبي، هذه هي الأسئلة التي عليك أن تجيبها...".

***

كنت أعمل ماكياجي، وأنا أتكلم معك، كل ما تسألني عنه يبدو لي متعذراً إجابته، ألا تلاحظ؟ هنالك أشياء كثيرة، لا يمكننا أن ندركها. على الأقل، أنا لا أعرف الآن، ولا أريد أعرف أيضاً، ما أعرفه أني أحبك، هذا كل ما في الأمر.

قلت لك:

"ألا تسرع وترتدي ملابسك؟! وإلا سنبقى الليلة هنا دون أن نذهب إلى الحفلة، سنتأخر مثل كل مرة ... لا أعرف لماذا أنت تصر على هذه الأسئلة، وكل مرة ... أعرف، يا حبيبي، أعرف، أنت عليك أن تسرع، من الضروري أن أظهر معك الليلة، أحب أن أرى الناس تنظرني، وأنا أسير

إلى جانبك، أحب هذا، وكفى، لا تقل لي لماذا؟ أحب هذا، وكفى ... أرجوك توقف عن الكلام، وأكمل ارتداء ملابسك، وإلا سنتأخر الليلة عن الموعد"...

***

كنا تمشينا ذلك اليوم في جادة واترلو، ونحن نحاول أن نستمتع - إلى أبعد حد - بروعة النسيم العليل، في تلك الأمسية الصيفية، كنا مخمورين قليلاً، تستبدّ بنا سعادة غامرة، وشيء خفيف، من الدوار. كنا تناولنا العشاء معاً، في مطعم بول الفاخر، وتحدّثنا طويلا عن الحفلة التي قضيناها معاً. قلت لك سأحدّثك عن كل حياتي قبل أن أعرفك. مع أنها أشبه بنكئ جرح، ولكنْ؛ قد يولد أحيانا متعة. إنه أشبه بالاعتراف، نعم، إنه نوع من الاعتراف الذي يمنح راحة كبيرة، أنت لا تعرف كم عرفت من آلام في حياتي القصيرة! كم عرفت من مآس، في سنوات عمريَ الثلاثين! لقد تحملت من آلام، هي ضعف عمري!... هذه هي الحياة، يا صديقي. وحين عدنا، أكملنا سهرتنا، في الحديث.

أنت جلست على الطاولة، وأنا أعددت لك القهوة. كنت منشغلاً، بتلفونك، ولكنك تصغي. وعرفت أنك بحاجة ذلك اليوم؛ لأن أحدثك عن حياتي في بروكسل، عن كل الأيام التي كنت فيها قبل أن أعرفك. قبل هذا اليوم، لم تكن مكترثا بحياتي السابقة أبداً، لكني شعرت أنك بدأت تكترث لي شيئاً فشيئاً، لم يزعجني هذا الأمر، كما تتصور، بل، بالعكس، أفرحني.

شعرت بأنك أخذت تحبني، أصبحت تكترث لي، أصبح كل شيء فيّ يهمّك حتى ماضيي. وأنا من جانبي، كنت قررت أن أحدّثك أيضاً. أخذنا نشرب القهوة، كنت تنظرني، وتنفث الدخان، في الهواء، وأنا مستمرة، بالحديث، قلت لك:

"كانت حياتي أشبه بالإقامة في الجحيم، إقامة ذات طبيعة سماوية، تجارب الماضي أشبه بالنهر، وهو يتحرر من طينه، وحين تلامسني يدك، أشعر بأن نعومتها تخترقني حتى العظم، أشعر، بصوتك، مثلما تشعر ورود الحقل تحت أشعة شمس ناعمة ... لا تقل لي أصبحت شاعرة، الحب هو الشعر، بعينه، يا صديقي ... لا يمكنك أن تعرف معنى كلمة رقيقة إلا بعد أن تجرّب حياة معذّبة ومحرومة مثل حياتي".

تقدمت نحوك، وقلت لك:

"انظر إلى وجهي، أحب أن تنظر إلى وجهي، وجهي الشاب، إنه يذوي، كلنا سنذوي، يا صديقي، كلنا نذهب، في رحلة العمر، ما أحب أن أراه هو أنت، أحب أن أراك إلى جانبي، طولك الفارع، نحافتك، ملابسك الأنيقة، شعرك الأشقر الممزوج بلون بني. وجهك الذي يذكّرني بالحكمة، عيناك اللتان تذكراني بالحب ... أحب عطرك، أحب الطريقة التي تتكلم بها، أحب الطريقة التي تضحك بها، هل هذا خيال؟! سمّه ما تشاء، يا صديقي، إنه هكذا، وأكثر، لا يهمّني ما ترى أو تقول عن مشاعري، ما يهمّني أن أشعر، وأقول لك ما أشعر به، هذا هو المهمّ، بالنسبة لي .. فلا تضحك مني، أرجوك. أتراه ما يسمّى حباً هو الحاجة العظيمة إلى أن نبني في الآخر ما ينقصنا؟!"

صَمَتَّ دون أن تنطق، كنت أنتظر منك أن تقول أي كلام، ولكنك لم تتكلم أبداً، حينها، سألتك:

"اسمع، كنت جرّبت رجالاً كثيرين، هل هذا هو ما يهمّك، قلت لك هذا أكثر من مرة. أنا مَن ذكرت لك كل شيء حتى من دون أن تسألني. ولكنك أصبحت تلحّ على معرفة المزيد، وأنا لا أعرف حتى الآن، لماذا يخيفك هذا الأمر؟"

" اسمع، علي أن أعترف لك أيضاً، أن الأمر لم يكن نسبة لي سوى



انتقام محض في البدء، لم يكن سوى اكتشاف، معرفة، الذهاب إلى أقصى المجهول، لقد كان كل شيء نسبة لي مجهولاً، لم أكن أعرفه كفاية. لم أكن أعرف نفسي. لم أكن أعرف جسدي. لم أكن أعرف حاجاتي. ولدي جهل مطلق، بالرجال. أليس هذا أمراً طبيعياً؟"

صَمَتَّ، ولم تتكلم.

" لماذا تتغيّر ملامح وجهك فجأة، حينما نتكلم عن هذا الأمر؟! صدّقني، لم يكن الأمر، في البدء، إلا هكذا، ولكني أعترف أنه تحوّل - فيما بعد - إلى لعبة، تحوّل إلى تسلية، إلى شيء ممتع، أقوم به ضدّ الرجال؛ كي أتحدّى ذكاءهم. أحطّم لهم عنجهيّتهم، واعتدادهم، بنفسهم. أستخدمه للسخرية والضحك منهم، لأكتشف كم هم هشّون وساذجون وأغبياء أحياناً؛ لأكتشف شيئاً فشيئاً، كم هم مضحكون ومثيرون، للسخرية، ولكنهم، لا يعرفون.

إنهم يحملون عن أنفسهم صورة عالية، لا علاقة لها، بالواقع، وكان يعجبني أن أجعل هذه الصورة، في الحضيض. كنت أنغمس شيئاً فشيئاً، في هذه الحياة، كنت أشتري الملابس الغالية، الماكياجات، أعتني بصحة جسدي، أذهب للجم؛ لأجعل من نفسي مرغوبة، محبوبة؛ لأجعل الرجال يلاحقونني، وكنت أستجيب - بشكل سهل وعاجل - لأي شخص، كان يعجبني.

كنت أجرب كل أشكال الرجال: الطويل والقصير، السمين والنحيف، الطبيب والعامل، الأشقر والأسمر، وأختارهم من الشباب، ومن متوسطي العمر، وكنت أحب أن أتناول الطعام معهم، وفي أحيان كثيرة، على حسابي، وأشرب معهم، وأنام معهم. كله لم يكن سوى احتفاء، بالحياة الجديدة، وتجريب طعم الفردوس، الفردوس الذي جعل زوجي ينحر نفسه، من أجله".

أطرقت قليلاً، وأنت تشرب قهوتك، وسألتني:

كيف جرى الأمر؟!

قلت لك:

"كل شيء جرى ومرّ بصورة عفوية دون أن يكون لي فيه أدنى مسؤولية!"

قلت لي:

"كيف؟".

- "كيف أشرح لك؟"

- "أريد أن تتكلمي، بالتفاصيل".

- "أية تفاصيل؟"

***

أنا محقة، يا صديقي. إن الأمر سخيف، ولا يستدعي غضبك. أنت تعرف أن لدي علاقات كثيرة، من قبلك. لماذا تريد أن أشرح لك كيف كانت هذه العلاقات. المشكلة أنك أخذت تشكّ في كل شيء. كلما أسلّم على شخص، أو أتكلم مع شخص، تسألني إن كان هذا الشخص من السبعين الذين نمت معهم. هذا جنون منك. قبل يوم، كنت سلّمت على موظف في شركة التلفونات. شعرت بنار الغيرة، في عينيك، سألتني إن كنت نمت مع هذا الشاب؟ أم لا؟!

قلت لك أنت تريد أن تعذّب نفسك فقط. أنت تريد أن أتكلم لك عن هذا الأمر، ومن ثم؛ تغرق في دوامة اللوم والحزن، ومن ثم؛ تبدأ بتعنيفي.

قلت لك لا، لم أنم معه، ولكنْ: كانت لي معه قصة. طلبت مني أن أشرح لك القصة. رفضتُ. الأمر لا يستحقّ، صدقني كانت القصة التي بيننا بسيطة. يا إلهي، ماذا فعلت بي؟! ماذا أقول لك؟! لم أكن أشأ أن أخفي عنك شيئاً. ولكني شعرت أنك تبالغ في الأمر. أصبحت أسئلتك

عن هذا الموضوع، بالذات، مهينة، بالنسبة لي. إصرارك على معرفة كل شيء هو من نوع الشك والغيرة، والذي يشعرني بعدم الثقة والإذلال.

القصة مع هذا الشاب لا تستحقّ منك الغضب. كانت حكاية عابرة، لا أكثر.

مرة، كنت في بار، في لأل دو سونجيري، وكان هذا الشاب الذي يعمل في شركة بيز للتلفونات هناك. ذهبتُ؛ لأجلب لنفسي كأساً، من البيرة. دفعت ثمنها، وعدت. بعد دقائق، انتبهت أنه يراقبني. ثم شعرت أنه نهض من مكانه، وتقدم من طاولتي، ووقف قريباً مني، وقد أعطاني ظهره، كما لو أنه لم يلتفت، إلى وجودي، بعدها التفت نحوي مبدياً عدم رضاه عن البار ... في الواقع، أراد أن يصطنع لنفسه حجّة للكلام معي، وأراد أن يوحي بأن الأمر كله كان عفوياً .. أنا من جانبي، كنت أدركت أنها حجّة، للكلام، بطبيعة الأمر، وعرفت من دون جهد أنها محاولة منه، للتقرب مني. كان يتصنع العفوية، يريد التقرب مني، فيجعل نفسه غير مهتمّ بي، في البداية. ثم تقرب مني، وأبدى ملاحظة عن البار، قال لي:

- "إن عامل البار هذا اليوم لا يهتمّ، بزبائنه، أرأيت؟"

- "نعم، هذه الأيام زبائن هذا البار كثيرون".

- "أعرف أن زبائن هذا البار كثيرون، كما أنه يوم ويكيند، نعم، أعرف كل هذا، ولكنْ؛ على عامل البار أيضاً أن يلتفت إلى زبائنه القدامى".

انتظر مني جواباً، ولكني لم أجبه، بأي كلمة، ورحت، أرتشف من كأسي رشفة، أو رشفتين. كان ينتظر مني جواباً ... لكني اكتفيت بأن ابتسمت له. فاسترسل، بالحديث معي.

- "أنا هنا، من خمس سنوات، خمس سنوات، ولم أغيّر هذا البار أبداً ... أليس هذا زمناً طويلاً؟"

- "نعم، أنت محق، إنه زمن طويل!"

- "أنا لست ممّن يغيّرون البارات كثيراً، هذه طبيعتي، في واقع الأمر، أتلقّى انتقادات - أحياناً - من أصدقائي، ولكن هذه عادتي!"

محاولة التخلص منه، بأسهل طريقة!:

- "نعم. أنت محق!" دون أن أزيد على هذا الجواب كلمة واحدة. لكنه لم يتوقف، إنما استمر، بالحديث، وقال بشكل مفتخر جداً:

- "في الواقع، أنا أحب أن أكون مخلصاً لبار واحد، أنا هنا منذ كنت في الجامعة، قبل أربعة أعوام، كنت أدرس في جامعة بروكسل، وكنت آتي هنا مع أصدقائي".

- "أوه، يا له من زمن طويل!".

- "نعم، أنا أحب أن أبقى أميناً لبار واحد، أليس من الأفضل أن نفعل هذا؟"

- "نعم، بالتأكيد".

- "أنا أراك، للمرة الأولى هنا، لا أظن أنك ممّن يرتادون هذا البار، من زمن طويل، لأن عملي قريب من هنا، وأنا - في واقع الأمر - أعرف كل زبائن هذا البار. أعمل في شركة بيز القريبة من هنا، إذا احتجت يوماً إلى شيء، فأنا موجود".

- "شكراً، هذا لطف منك!"

- "هل تعملين قريباً من هذا المكان؟"،

- "لا، في واقع الأمر، أنا لا أعمل في الوقت الحاضر!".

لقد قلت هذا؛ لأني لا أريد أن يعرف أحد أين أعمل، كما أني لم أكن أحب أن أستمر، بالحديث معه، هنا ابتسم، وقال لي ضاحكاً:

- "يبدو عليك ثرية، ولا تحتاجين إلى عمل!"

في تلك اللحظة، لا أعرف لماذا جاءتني فكرة أن ألعب معه، فكرة أن يصبح هذا الأمر كله تسلية ... لماذا لا أتسلى به؟! ... لقد تحول الأمر برمّته إلى محض لعبة، بالنسبة لي، جعلني أفكر بشيء ممتع، لماذا لا أتسلى بهذا الرجل الذي يظن نفسه ذكياً، ويريد أن يتسلى بي؟! لماذا لا أعملها، وألعب معه اللعبة ذاتها التي يريد أن يلعبها معي، لعبته المفضلة لاختبار ذكائه مع الأخريات؟!

- "نعم، أنا ثرية، ولا أحتاج إلى عمل".

- : هل تقطنين قريباً من هنا؟"

- "لدي منزل في لويز".

- : أوه، مكان جميل ... مكان للأثرياء فقط".

- "أنت تعمل في شركة بيز؟"

- "نعم، أنا أعمل في الشركة، من أعوام، أقوم بشرح وتقديم العروض الجديدة للزبائن. أنا أخدم الزبائن الذي يطلبون خدمة من الشركة".

اقترب قليلاً، من طاولتي، فابتسمت له، وقلت بصورة مشجّعة:

- "عمل جميل، على ما أظن".

"جميل، ولكنه صعب أيضاً، يحتاج إلى شخص لبق في الكلام، ومهذّب، كي يقنع الآخرين، بما لدى الشركة، من عروض!"

اقترب حتى وصل إلى حافّة طاولتي. وقف مبتسماً، وبيده كأسه الفارغ:

- "حين أردت العمل في هذه الشركة كبائع، أخضعوني لاختبار دقيق،

من جهة الملبس، والشكل، وطريقة الكلام! لا أبالغ إن قلت لك، اختاروني من بين عشرين شخصاً".

- "اجلس، مالك واقف! لهم الحقّ في اختيارك! أنا لو كنت مكانهم؛ لاخترتك! كل شيء واضح على مظهرك! الأناقة، الاهتمام بالنفس، وبالحضور الشخصي، أنت لديك حضور عال".

ابتسم، وقال:

- " كلهم يقولون لي ذلك!"

وقبل أن أنطق بكلمة، سألني:

- "ماذا تشربين؟! أرجوك، أنا أدعوك، لشرب كأس".

- "أريد كأس بيرة، من نوع لف شقراء!"

أزاح كرسيه، ونهض من مكانه، وهُرع هذه المرة نحو البار، وجلب لنفسه كأساً من النبيذ الأحمر، وجلب لي كأساً من بيرة اللف الشقراء. قدم الكأس لي، وقال:

- "نعم، في الواقع، أنا لدي حضور شخصي، ولباقة عالية، لا أبالغ إن قلت لك، أنا أكثر شخص يقنع الزبائن بشراء العروض التي تقدمها الشركة".

- "أنا متأكدة من ذلك، هذا واضح عليك، لديك حضور شخصي عال!"

- "نعم، حين يدخل الزبون، ولاسيما النساء، فإنهم يُهرعون نحوي مباشرة، كأنهم لا يرون أحدا غيري".

- "أوه! ومع ذلك، أنت تصرخ منذ مدة في البار، ولم يرك النادل!"

- "أوه، أرجوك، لا تسخري مني!"

- " لا، لا، أبدا، أبداً! ولكني أقدر أن معظم الناس الأذكياء، يثيرون الغيرة لدى مَن هم أقل ذكاء منهم"

- "نعم، أنت قلت الحقيقة، لقد أصبت في قولك، نعم، هنالك الكثيرون ممّن يعمل معي، يغار مني، أو أقول لك إن أكثر مَن يعمل معي، يغار مني".

"لا أستغرب من ذلك أبداً، إنه أمر، كنت أدركته حتى قَبل أن تقول لي هذا، ألم أقل لك أنا في الأول؟! إنها الغيرة، قد عرفت هذا الأمر مقدماً، وأنا أعرف - أيضاً - أن الرجال يغارون أيضاً!"

- "بل أكثر من النساء، أكثر من النساء!". قال هذا، بصورة حزينة، وآسفة، ثم استأنف:

- "لا يمكنك أن تتخيلي ما عانيته من هذا الأمر، في حياتي، وفي عملي!"

- "بل يمكنني أن أتخيل هذا، بصورة واضحة، لقد رأيت كيف أهملك النادل، إنها الغيرة، بالتأكيد...".

التفت لي؛ ليغيّر الحديث، ويجعله عني:

- "أنا أرى أنك أنت أيضاً تعانين من الغيرة؟"

- "ولكن الأمر يختلف معي، ذلك أني لا أعمل في مكتب أو شركة، ولذلك، فأنا أعيش بصورة أفضل هكذا، من دون الاحتكاك، بالناس".

هنا التمعت عيناه. وقال:

- "ولكني أردت أن أخبرك بشيء، إذا أردت شيئاً مني في شركة البيز، في الواقع، أنا أعمل يوماً واحداً فقط في الأسبوع!"

- "يوم واحد فقط...؟"

- "في الواقع، أنا عاطل عن العمل، وأعمل يوماً واحداً، هنا في هذه الشركة! ألم أقل لك الغيرة! كنت أعمل في فرع آخر للشركة في إكسل، ولكنْ؛ بعد عدد من المشاكل، وجدت نفسي خارج العمل، وها أنا حصلت على عمل آخر، قبل شهر، ولكنْ؛ ليوم واحد فقط في الأسبوع ... هل أنت متزوجة؟"

- "أنا أرملة ..."

هنا التمعت عيناه! قال، بصوت واهن:

- "أرملة وشابة ... وتقطنين، في لويز.. شيء عظيم"!

***

لقد أدركت حينها ماذا يريد هذا الشاب مني. كان قد توهم أني ثرية، هنا بدأت اللعبة. أنا أعطيه الحبل؛ ليسحب، وحين نصل إلى نقطة، أفلته من يده. إنه يداريني، يركض ورائي، يتوسّل بي، يحاول معي. أما أنا؛ من جهتي، فلا أقول له: لا.

في البداية، أقول نعم! وفي النهاية، أقول لا.

كلمة يسمعها مني في اللحظة الأخيرة. أقول لا! في اللحظة التي أرى أن هذه الكلمة، لها وقع حقيقي، وساحق على نفسه!

لقد أعجبتني هذه اللعبة معه، لقد أغرتني بالسير بها إلى النهاية. كنت أستمتع بها جداً، كنت أحب أن أراه هكذا مندفعاً، راكضاً، واثقاً من نفسه، وفي اللحظة الأخيرة، أرى صورته الحقيقية، أراه متعباً لاهثاً ومهزوماً. هل كنت قاسية عليه؟ هل كنت أستغل مشاكله المالية؛ لأسخر منه؟!

نعم، أنا أشفق عليه. ولكني كنت أسخر من شخص، يريد خداعي، شخص يريد أن يوهمني بالحب، ولكنه - في الحقيقة - كان يريد حياة سهلة له، يريد أن يبقى عاطلاً عن العمل، ويأتي؛ ليعيش معي، في شقتي، أنا أصرف عليه، من مالي، وهو - من وقت إلى وقت - يخونني مع مَن تعجبه، مع هذه المرأة، أو تلك!

***

لقد منحني هذا الأمر نوعاً من الراحة، ذلك أني حُرمت طويلاً من الاهتمام والحب، كنت أجهد نفسي؛ كي يحبني الآخرون، لقد عشت وقتاً طويلاً في الظلام ... لا تلمني، عشت طويلاً، لا أحد يعرف مَن أنا، كان جسدي مغطى كله، كل جسدي تحت ستار كثيف، لا أحد يعرف عنه شيئاً. ولا حتى أنا، لم تكن لي مرآة مثل المرآة التي وجدتها هنا؛ كي أرى نفسي كلاً كاملاً، لم أعرف في يوم أن لي هذا الجسد ... لم أعرف أني جميلة ورشيقة، ولي بشرة، يحبها الرجال هنا.

***

ولكنْ؛ في يوم ما، وجدتك. كل شيء مرّ هكذا، وبسرعة خاطفة. لقد استمعت لصوتك، صوتك النحيف، الهادئ. كان أجمل يوم، في حياتي. كنت قرّبت وجهك من وجهي، وكنت أُصغي لكلماتك، ولشفتيك، وهما تتحركان. بينما أخذت يدك، تتنقل إلى موضع رقبتي؛ لتضيع الأنامل في شعري. ثم أخذت يدك تلامس الشفتين، مارة بحنو على موضع الأنف والعينين والجبهة، مختفية مرة أخرى، في شعري.

"ألا تشعرين بيدي؟" قلت لي، وعيناك شاخصتان فيّ؛ لتترقّب أي رد فعل.

وضعت أذنك عند فمي، تسترق حسيس صوتي. الفم منفرج، والعينان شاخصتان معلّقتان، في فمي، متى أنطق كلمة.

- أريد أن أرد الستارة .... ستارة الشباك ...

نهضت سريعاً من مكانك، عيناك تومضان رغبة، وحين عدت، وهبتني كل جسدك.

VIII

حين ركّزت صوفي في صورة الشخص الذي كان يتكلم في الفيلم الوثائقي عن الحرب الأهلية اللبنانية، أدركت أنه والد أدريان. لكنها لم ترَ في صورته أثراً للحقد أبداً. إنما وجدت فيهما ندماً ودموعاً ندية.

الرجل هو ذاته، لا تخطئه العين مطلقاً، الملامح ذاتها، للشخص ذاته، في الصورة الموجودة، في محفظة أدريان:

عيناه سوداوان، شعره أسود. قامته متوسطة، يرافق سحنته بعض النّمش المنتثر على الخدين. يرتدي نظارات طبية، بينما لا وجود لأية علامات تميزه، عن أي شخص، يسير في الشارع. فهو لا يحمل إلا ندوباً ضئيلة، على الوجه، ووشمين: الأول صليب على الذراع الأيمن، واسم شقيقته إيلين على الذراع الأيسر.

كانت صوفي تبحث، وهي تشاهد هذا الفيلم الوثائقي عن الحرب الأهلية، في كلماته عن الحقد الذي رعاه خلال ثلاثين سنة، لم تجده.

لقد اشترك والد أدريان في المجزرة التي حدثت أثناء الحرب الأهلية للانتقام لشقيقته إيلين. استحضر اللحظة التي قرر فيها الانتقام، من أجلها، فلم يجد الخلاص. لقد وجدها لعنة مستمرة. ذلك أن الدم لن يقود إلا إلى الدم. وفي اللحظة التي لف فيها غابرييل رفات شقيقته في شرشف، عرف أنه لن ينجو من هذه اللعنة، فليس في الانتقام السعادة المنتظرة، إنما الحزن والأشباح والكآبة العميقة.

غير أن أدريان الذي فكر كثيراً في انتقام والده، تحولت لديه فكرة الانتقام من هؤلاء الناس إلى عاطفة عميقة. لقد انقلبت عواطفه، وانتهى به المطاف إلى الوقوع في حب ضحايا والده. وقد شرع بعدها بالبحث عن تلك الصبية التي فلتت في يوم المجزرة من والده، وأخذت تطارده حتى أذهبت عقله، ومن ثم صرعته، من أجل أن يتزوجها.

لا تعرف صوفي إن كان تصرف أدريان هذا هو نوع من التكفير، أو نوع من التطهير، أو إنه نهاية لما سمّاه مرة في رسالة بعثها إلى والدته بـ"نهاية اللعب بالدم". فما كان منه إلا أن يودع هذه القصة ذات الكابوس والأشباح بالزواج من هذه الفتاة التي رآها حتماً في هذا الفيلم الوثائقي الألماني، والذي صنع حول جرائم الحرب الأهلية اللبنانية.

فالقاتل اعترف بنفسه وعلناً بجريمته. كما جاءت الفتاة الضحية؛ لتتكلم، بنفسها، عن الموضوع. هذه الفتاة التي كان يبحث عنها والده أخذ يراها أدريان في الحلم في كل ليلة، كما كتب في مذكراته، مرتدية بدلة العرس، وهذا ما دفعه أن يذهب إلى لبنان، للبحث عنها.

بحث عنها أدريان في بيروت حتى وجدها، اتصل بها دون أن يعلمها أنه ابن هذا الشخص الذي أراد قتلها، والذي ظل شبحه يطاردها، حتى أحبّته. ومن ثم؛ جمع كل ما يخصّ والده من صور وصحف وكل مخلّفات ووضعها، في شقة، في بروكسل؛ لتبقى الزوجة بعيدة عن ليلة الشؤم التي قلبت حياتها.

***

الأيام الأولى مع هذه الزوجة كانت أياماً سعيدة، كما استدلّت صوفي عن ذلك في أوراقه ورسائله مع أمه، كانت تتعلم اللغة، وهي جالسة على كرسي أمام الوجاق، بينما هو يستمع للموسيقى، ويدخن. كانت السعادة تلفّهما مثل دثار، كانت هذه الفتاة قد محت من ذهنه كوابيس الزمن

الغابر، ليلة الشؤم التي قلبت حياة والده وحياته إلى جحيم. محت من ذاكرته - أو كادت - القصة القديمة المرعبة. كان هذا الزواج قد أعاد له الأمل، فأراد أن يحيطها بالحنان والجمال، وأراد أن يمنحها كل ما يمكن للنقود أن تشتريها.

لم يكن يعرف أن الذعر لم ينته بعد. وأن هذه القصة المشؤومة لن تختف بالبساطة التي تصورها بها.

فقد ولدت زوجته طفلته سالي. كانت الأعوام الأولى طبيعية، أو شبه ذلك، ولكنْ؛ حينما أخذت الطفلة تكبر، وأصبحت، بعمرها، بالعمر الذي كانت عليه الأم في اليوم الذي قتلت فيها عائلتها، ورأت بعينيها القاتل حتى أخذت تنتابها نوبات من الخوف غريبة.

لقد أخذت تتغيّر يوماً بعد يوم. في البداية، لم يستطع أدريان أن يقرأ علامات وجهها، إلا أنه بدأ يدرك فيما بعد أن الشبح لم يختف تماماً، من حياتها؛ إذ أخذت تعتقد أن الشبح يطارد ابنتها؛ ليقتلها.

هل كانت تعرف أن الشبح هو والد أدريان، والد زوجها المنتحر من بضعة أعوام، وأن ابنتها - الآن - في منزل جدها الآمن؟ أو لا ... هل أخبرها أدريان، بالحقيقة؟

صوفي لا تعرف تفاصيل هذا الأمر في الحقيقة، ولم تعثر على أي شيء يدلها على كنه الموضوع برمته، وما وضعته في ذلك الوقت عن هذا الموضوع هو تساؤلات فقط..

لكن ما عرفته من أوراق أدريان الموجودة في شقته أن الطريقة الوحيدة التي كانت متاحة لأدريان ذلك الوقت هي الهرب من كوابيسه، الهرب من منزله، من أمه، من زوجته، من طفلته، والنوم هنا، في بروكسل، في هذه الشقة التي حبس فيها ذكريات والده، ومن ثم؛ قيامه، بعلاقة عاطفية مع صوفي.

لقد هرب أدريان من المنزل، وجاء إلى هذه الشقة هنا. كي يتمكّن من إسكات شبح القاتل.

***

لم تتمكّن صوفي من النوم تلك الليلة. كانت تنام أحياناً، وعيناها مفتوحتان.

أخذت تقلب صور الألبومات، تراجع الأوراق، المذكرات التي يكتبها أدريان. تقلب الصور. الصور القديمة من الحرب الأهلية، صو العائلة في بيروت. الرحلة إلى أوسلو، الصور في ستوكهولم.

ومن ثم حفلة العرس، عرس أدريان في الكنيسة. المدعوون. صورة أدريان وهو شاب صغير أشقر. صورته بذقن صغيرة، وزوجته سمراء نحيفة، بشعر أسود كثّ. صورة أخرى أدريان يجلس على الأريكة، يقرأ كتاباً. زوجته السمراء إلى جانبه. أمه تجلس قرب البيانو الأسود ويدها تلمس لوحة المفاتيح العاجية.

***

نظرت صوفي إلى النافذة. تابعت القراءة، دون أن تنتبه إلى الساعة.

فكرت: ربما كان قد تزوجها؛ ليتخلص من الشبح الذي كان يلاحق والده.

نهضت من مكانها. جلست على الأريكة. عاودت القراءة. نسيت بعض المعلومات. عادت إلى البداية، تعلّقت أصابعها، ببعض الأوراق. كانت تبحث عن كل ما يهدّئها. هنالك ضجيج في رأسها. أخذت تسمع أصواتاً متعددة، مالت برأسها جانباً، كانت قد شعرت بالتعب. شعرت أنها أشبه بالغائبة عن الوعي، بعد ذلك، وفجأةً بدأ يعود كل شيء إلى الانتظام ولكن ببطء شديد. كانت أصابعها تتدحرج فوق السطور، أخذت تقرأ كل ما تراه دون ترتيب، دون توقف، تعود إلى الوراء، تستذكر، تندفع.

ما عادت ترى شيئاً، كانت كما لو كانت داخل صندوق الحكاية.

أخذت تسير في المنزل جيئة وذهاباً. استمعت إلى صوت والده في الفيلم، ليس بأذنها، إنما، بكامل جسدها. رعشة تسري فوق جلدها، تؤلمها حتى الأعصاب، حتى عظامها.

***

خرجت صوفي في الصباح من شقة أدريان. هذا آخر يوم، تنام فيه في شقته. سارت في الطريق. تحسّست المفاتيح في حقيبتها. كانت ساهمة، مرّت سيارة سريعة إلى جوارها. قدمان تصعدان الدرجات من الرصيف، وتختفي خلف سيارتين بيضاوين. رأت مزيداً من الناس، وهم يدخلون المقهى. رأت زوجين يختصمان أمام سيارة التاكسي. رجل يتحدث إلى صديقته، عن حفلة الأمس. مرّت سيدة من جانبها، وقد منحتها نظرة سريعة. يمكن لأي مراقب أن يرى تعبيراتٍ على وجه صوفي غير مألوفة.

كانت الشمس تقترب من الأفق، وكان الجو نيّراً، على الرغم من أن مقدار النور قد تغيّر منذ منتصف الصيف. سارت صوفي سريعاً حتى إنه إذا ما قورن بطريقة مشيتها المعتادة كان خطوها لافتاً للنظر. كانت في حالة نفسية متردية. إنها الحالة نفسها دائماً حين تقترب أي حادثة من أحداث الحياة العظيمة على شخص ما. تذكرت موت أمها حين وقفت، وهي تراقب تابوتها، ينزلونه في حفرة في الأرض مخضبة بالوحل. سارت على طول جادة واترلو، كانت عيناها تراقبان المحلات بنظرات سريعة:

بنطلونات من الجلد الأسود، بنطلونات مخططة، فساتين من الستريتش الأحمر، سليبات، مشدّات كورسيه، جينزات ضيّقة جداً، بلوفرات صيفية، قمصان حريرية، أحزمة، أحذية، حقائب، موديلات من بولو، كالفن كلين، ايف سان لورون، نوتيكا، قمصان بيض من لورا آشلي، بدلات رياضية.

كانت صوفي ترتدي بنطالاً من الجينز الأسود، وقميصاً أحمر وبيرية

أنيقة. كانت ترى صورتها، وهي تنعكس على زجاج الفترينات التي تمر بها، كان صورتها تخيفها أحياناً، ترى بطنها اندفعت بعض الشيء، ترى نفسها أسمن قليلاً مما كانت عليه، ترى عينيها متعبتين، تقول في نفسها:

"كأني لست أنا، إنما واحدة غيري".

تبحث عن نفسها في الألوان الساطعة، في الأقمشة اللامعة، في الفترينات.

مرت من الكنيسة. هنالك غرباء مشغولون في مقبرة الكنيسة، في ذلك الوقت. كأنهم يراقبونها. تخيلت أنهم يتساءلون ماذا تفعل هذه المرأة الغريبة هنا؟! اعتراها الشعور نفسه حين وقفت بجانب أدريان يوم التقيا أول مرة. لم يعد سوى شيء واحد، في ذهنها. إنه يراها الآن، ويسمعها. شعرت أن زوجته شبه المنهارة يخامرها الشعور نفسه.

***

حين دخلت صوفي المستشفى مثل كل يوم، شاهدت زوجته تخرج من حجرته. شاهدت وجهها الجميل الأملس والقاتم، عينيها اللوزيتين الشديدتي السواد وشعرها المجدول جديلة واحدة ثخينة مثل ذراع. شعرت، كما لو أنها أمامها، تجلس قربها، وهي تتطّلع في عينيها، وتنغمر في نظرتها.

ارتجفت. تعثرت أقدامها. تمسكت، بالحائط. لم تكن تعرف إن كان حقيقة ما رأته؟ أم أنه خيالها؟ لم تعد تعتمد اليوم على وعيها. شعرت أنها تتخيل أشياء غريبة، لا يمكن أن تحدث لشخص سوي أبداً.

دخلت التواليت. نظرت إلى صورتها في المرآة. شعرت أن حول عينيها تجاعيد أشبه بتجاعيد عجوز. شعرت أنها كبرت في هذين اليومين أكثر مما حدث لها طوال عمرها. مع ذلك كانت مصمّمة أن تدخل إلى أدريان؛ لتكلمه، للمرة الأخيرة، وترحل عنه.

٢٨ تمّوز

حين رأيت بطاقة المعايدة التي أرسلتها لك ابنتك، انتابتني مشاعر متناقضة. فرحت، ربما لأني عرفت السبب الذي يجعلك حزيناً ومتلبكاً. ولكنْ؛ حزنت أيضاً، لأني شعرت بأنك ستعود، من حيث أتيت، وبأني سأضيّعك، عرفت أن طرقاتنا التي التقت مرة في هذا المكان، سوف تعود؛ لتفترق مرة أخرى.

ولكن ما فاجئني حقاً، هو أني حين واجهتك ... أنت ارتبكت. نظرتَ إلى الأسفل. باحثاً عن شيء ما، ربما كنت تتخيّر كلماتك. شعرت بأنك تستجمع القدرة على التجرؤ على لفظها. تصمت؛ لأنك لم تعثر على ضالتك. لم تجد العبارة المناسبة؛ لتنطقها. ولكني شعرت، بشيء ما، في روحك. شعرت، بأنك لا تستطع أن تقدم لي أي شيء.

شعرت بأن كل شيء يمكن أن يتلاشى، أو يزول، بهذه السرعة. عرفت من نظرات عينيك أنك تخفي عني شيئاً ما. لم أكن أعرف سبب حزنك وصمتك. لم أشأ أن أكون في عجلة من أمري. لمَ علي أن أعرف هذا الأمر الآن؟! كان والدك في مليشيا مسيحية.

لا تشمتْ بي، يا صديقي إذن؛ لأن والدي كان في مليشيا مسلمة.

كان يمكن أن يكون كلانا أيضاً في خطوط متقدمة في جبهات القتال الدائر بين الفصائل. أنت تقتلني، أو أنا أقتلك.

توقفت كثيراً، وأنا أبحث في وجهك، عن جواب ما. لم أكن على جلية من الأمر. أصمت أمامك برهة، وأسترجع قواي، ثم أعود مؤكدة لك بأني من أرض غريبة عنك، من أرض ملعونة، من أرض مقدّر لها العنف والموت والأحزان. إذنْ؛ كنا شربنا من ماء البئر ذاته.

أتصور أنك على علم، بجليّة الأمر، أليس كذلك ؟

تصمت برهة؛ لتسترجع قواها، ثم تعود مؤكدة:

لقد تخلى عنا الله. نحن هكذا بمحض الصدفة ما نزال على قيد الحياة. كنت تبلع ريقك أمامي مثل طفل صغير، ارتكب حماقة أمام أمه. وتصمت دون أن تجيبني، بشيء. أشعر بحزنك دون أن أعرف شيئاً عنه. تتكلم معي بنبرة أقل إصراراً، وأنت تقول لي:

- "كان بإمكان الأشياء أن تكون مختلفة، لو..."

"لو ماذا، يا صديقي؟".

تصمت صوفي، وهي تمسّد له شعره، بيدها، بشكل رقيق.

أية صدفة جمعتنا كلانا، في هذا المكان. أراك تأخذ نفساً طويلاً، تريد أن تقول لي شيئاً. أشعر بتهكّمك الداخلي، وبنبرة صوتك. أجزم أني كنت أشعر، بكل شيء، في داخلك، ولكني كنت أعتقد أنك مختلف عني، أنك مختلف عن الجميع، لم أعد أحتمل مشاهدتك هكذا. صورتك أمامي، كلما تريد أن تتكلم عن والدك، ثم تأخذ يدك بالارتعاش. كنت أعرف في داخلي أن لك قصة أخرى، ولكنْ؛ لم أعد أحتمل.

كنت أشعر أن في داخلك شيئاً، من وخز الضمير.

تتردد، تنطلق. تتوقف. تروح في الحجرة جيئة وذهاباً. قلت لك تكلم:

- أنت متزوج؟

- نعم، متزوج.

- لديك أطفال؟

- لدي بنت؟

- كم عمرها؟

- سبعة أعوام.

- لماذا لم تتكلم أبداً عن هذا الأمر؟

- .....

صَمَتَّ، يا صديقي، لا يمكنك أن تنطق، بشيء. كنت تدير وجهك، إلى مكان آخر، تحاول إخفاء تعبيرات وجهك، تحاول أن تغمض عينيك؛ كي لا تراني.

- حسن، قلت لك أريدك لي وحدي.

- ليس الأمر، بهذه السهولة.

- ماذا تقصد؟

- هنالك أشياء كثيرة ... لا أستطيع الإفصاح عنها ...

- مثل ماذا؟

- لا يمكن أن أقولها.

- أريد أن أعرفها.

- لا أستطيع الكلام.

- لمَ لا تستطع الكلام؟

تحدّث، يا صديقي. أريد أن أسمعك. تحدّث. قل كلمتك. تحدّث! صرخت بك. وأنت صامت.

- أبي ..

- ما به؟

صَمَتَّ، وأخذت يدك ترتعش.

- زوجتي؟

- ما بها؟

صرخت بك: تكلم. لكنك لا تستطيع الكلام. كأنك تبحث عن شيء، ليس بوسعك الإمساك به. لا يمكنك استعادة هدوئك معي. لا يمكنك العودة إلى السكينة التي كنت عليها. صرخت بك ... وأنت لا تتكلم.

***

حين دخلت صوفي، على أدريان اليوم، رأت تغيّراً قد طرأ، على صحته. لقد رفعت كمامة الأوكسجين عن أنفه. وهنالك الكثير من الضمادات قد رفعت، وقد بقيت فقط قنينة المغذي موضوعة أُعلى السرير. تقدّمت بخطوات هادئة نحوه. جلست في المكان المعتاد قبالته.

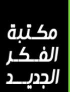
وجدت آثار شخص، كان قد زاره، وهنالك علكة في الصحن الموضوع على الكومدينو.

تساءلت:

"هل كانت زارته زوجته فعلاً؟ هل هي مَن رأتها؟... لا تعرف".

***

حين عرفتُ أنك نصف لبناني، شعرتُ لحظتها بغياب طفيف للوعي. شعرتُ، بدوار. أما أنت؛ فقد صَمَتَّ، كعادتك، أمامي.



حين عرفت أن والدك مات منتحراً، في يوم ميلادك. شعرت بالدوار ذاته. وأنت صَمَتَّ أمامي، كعادتك.

عرفت أن عائلة والدك ماتت، بمذبحة، في بيروت. شعرت، بالدوار، ولا سيما لشقيقة والدك إيلين.

عرفت بعدها أن والدك اشترك في مليشيا أهلية رداً على مقتل شقيقته. أصبت، بدوار أيضاً.

حين عرفت أن طفلة أراد قتلها، ولم يستطع، وظلت تطارده، تحوّلت إلى شبح، يطارده ليلاً ونهاراً، شعرت بدوار أيضاً.

ثم عرفت أنك رحت تبحث عن هذا الشبح؛ لتتزوجه.

سألتك عنها، لم تجبني، إنما صَمَتَّ.

لماذا صَمَتَّ أمامي؟

كلنا تزوجنا أشباحاً، يا صديقي. نحن أمة أشباح.

أعرف، يا صديقي، كان من الصعب عليك أن تعترف لي، بما فعلت. ولكنك كنت شجاعاً، وواجهت أشباحك. أما أنا؛ فما زالت هاربةً من أشباحي. وأشعر بأني سأبقى طوال حياتي مطاردة، من قبلها.

نحن لن ننجو.

ما لك صامت، يا صديقي، أنا عرفت كل شيء.

تكلم، يا صديقي، انطق، تيقّظ.

لا تنمْ طويلاً، أنا، بانتظارك.

أنا منك، أيها العربي. خدعتني بسحنتك الشقراء ولون عينيك.

لقد عرفت كل شيء عنك.

كما أني عرفت بأنك مني، وأني من لحمك ودمك.

نعم، عرفت من اللحظة التي سمعت فيها الضجة التي تأتي من أعماق روحك. أشبه بالهديرِ الغامض الذي يأتي من أعماق روحي.

عرفت اليوم أننا ولدنا من أرض الحجارة السوداء ذاتها. جئنا من صحارى الأنبياء المطرودين نفسها. ولدنا من الحشود الآهلة، في مدننا كالنمل. من تحالفات القبائل لقتل المارقين، ومن بيوتنا الزجاج في معارك الحجارة! جئنا من أمة، تتوحّد، وتتبعثر.

نحن كلانا جاء من دورانِ الحشود على أنفسها. من أسلحة المليشيات وأسلحتها التي تتساقط كأحجار من سفح. جئنا من الضجيجِ الأصمّ لعظام آبائنا الساكنة، في قعر مقبرة. من مدننا التي قهرتها السنون. من أمتنا التي أنجبتنا، وافترستنا. اخترعتنا، وخدعتنا.

أنا فاطمة العربية ... يا صديقي، ولست صوفي التي عرفتها، أنا - في الحقيقة - لا شيء، أنا عدم ...

أنت لم تتعرف على نقابي ... على سوادي، على جسدي المخبوء وراء طيات هذه الملاءات الثخينة ... لم تتعرف على وجهي في البارات، ولا على الجسد الذي نام تحت أجساد كثيرة. لم تتعرف على صوتي، على لغتي ... على زفيري وشهيقي ...

كنت جسداً ... جسداً، عبروا عليه إلى نزواتهم، إلى جنائنهم، وجحيمهم.

عبروا عليه إلى آلهتهم وقناعاتهم ... إلى فلسفاتهم وهذياناتهم ... إلى شرقهم وغربهم ... لم أكن سوى تمثال من الرمل في الشرق، أو تمثال من الثلج، في الغرب ... أنا تمثال، بلا ملامح ... أنا امرأة وقفت عند حافة الصحراء؛ لتتحدث مع هذا العالم هراءً ...

كنت أنظر وراء ظهري خرائب العالم ... كنت أنظر ما خلفه أبي وزوجي بعد الانفجار ... أراقب بقلب بارد ما خلفاه من دمار ... أطفال، برؤوس مقطوعة ... نساء، بلا صدور، ولا عيون ... رجال، بلا أعضاء تناسلية ... دماء تختلط مع النعالات البلاستيكية ... وسخام على الحيطان ...

تركت ذلك العالم، وجئت إلى الغرب ... كي أكون لاجئة ... دخلت المشهد مع الذين يعرفون أفكاري المليئة بالدم ... قالوا لي وصلت متأخرة، لا مكان لك في مسرحيتنا ...

مع ذلك، كنت أظهر لهم، بمجرد لفظ اسمي، وهم ينظرونني، في البار في الشارع، وفي كل مكان، كنت أحرك مؤخرتي أمام عيونهم، وهم ينظرونني دون أن يعرفوا أني أمثل ...

أما اليوم ... فها أنا أمامك، وقد اعترفت لك، بكل شيء. أنا لن أنجو؛ لأن آلافاً من الأشباح تسير معي، وإن متّ، سيعيدني الله عذراء مرة أُخرى؛ كي يلهو بي الأشباح الشهداء حين تحين لحظات أعراسهم الدموية ...

***

سأرحل عنك، أعرف أن زوجتك، بانتظارك، وابنتك بانتظارك. فأنت لك أشباحك كما أنا لي أشباحي. لا يمكن لنا أن نكون معاً، فأشباحنا لا تجتمع مطلقاً.

كان وقتنا هو وقت هروب قصير من العالم الذي كنا نعيش فيه، ولكنه هروب.

لا بد لنا من العودة إلى المكان الذي جئنا منه. لا بد لنا من العودة إلى مواقعنا القديمة. كنت أشعر في داخلي، أن هذا الأمر الذي بيننا لن يستمر طويلاً. السعادة، سعادتي أنا على الأخص، لن تكون دائمة. فهي لم تكن، ولا مرة واحدة، في حياتي دائمة. وكنت أعرف وأقدّر أن

هذه هي أقدارنا التي لا يمكننا أن ننفلت منها أبداً. ولا بد لنا من العودة إلى سابق عهدنا.

في البدء، كنت أشعر بهذا الأمر، كنت أحدسه، لذا؛ كنت - على الدوام - خائفة، ذلك أني لم أكن أعرف جلية الأمر، الآن عرفت. إذنْ؛ هذا هو وقت الفراق، يا صديقي. لقد انتهى كل شيء بيننا.

***

في تلك اللحظة، رأت صوفي دمعة، سالت على خد أدريان، من دون أن يتحرك. فارتجفت.

أخذت يدها ترتعش، اقتربت منه، مسحت الدمعة، من خده، ثم قبضت على يده، فقبض على يدها، بقوة.

شعرت به حياً، شعرت به أنه كان يسمعها.

بمقدار ما انهمرت دموع صوفي لحظتها، شعرت، بسعادة كبيرة. شعرت أنه حيّ، وسيعود إلى زوجته وابنته، أما هي؛ فستعود إلى حياتها.

تركت يده، بهدوء، حملت حقيبتها، وخرجت.

IX

كانت سماء بعد الظهر في بروكسل صافية، ما خلا بضعة غيوم أشبه بالقطن متناثرة في السماء. ذهبت صوفي إلى الجانب الآخر، من الشارع. هنالك طلاب وعشاق فوق العشب الأخضر يضطجعون تحت المظلات المنصوبة، في الحديقة. سارت شاعرة بالارتياح، لكنها متعبة أيضاً. في الطريق، التقت بيير، وهو صديق قديم، اشترك معها في مظاهرة للربيع العربي، ورفع معها يافطة كبيرة مكتوب عليها:

" الحرية، للعرب".

أرادت أن تمضي النهار مع أحد، أرادت أن تكلم أحداً. فطلبت منه أن يمضيا بقية النهار معاً. فأخذا يجوبان الشوارع، يذهبان، من مقهى، إلى مقهى. كان هنالك أشبه بالضجيج، يدوي في رأس صوفي، كانت تتحدث، وتتحدث، لا تتوقف أبداً. لم تكن راغبة بالتفكير في أي شيء، فأخذت ترمي الكلام كيفما كان، وكان بيير يتحدث معها من جهته. أخذ يحكي لها عن طفولته التعيسة في فلسطين، أخوته وأخواته في بيت لحم. ثم أخذا يضحكان لتبادل بعض النكات، باللغة العربية.

كان الوقت قد تأخر، ولكنها لم تشأ العودة إلى البيت، كانت تشرب زجاجات البيرة الباردة، وتأكل البسكويت المملح، فلم تكن لها رغبة بالطعام. في الليل، أصبحت شاحبة ومتعرقة، ولكنها لم ترغب بالعودة إلى المنزل. إنما عزمته على مقهى في اللاآل دو سون جيري. وهو بيت قديم من الخشب الرمادي، له درج خارجي، وواجهة من القرميد، فوقه لافتة مضاءة، وفي الأسفل، نافذة عريضة أشبه بالسينما. قال لها بيير:

- ألا تعودين إلى المنزل، شكلك تغيّر هكذا؟

- ماذا تعني شكلي تغيّر ؟

- مَنْ يراك يظن أنك عاهرة عابرة. قال مازحاً معها.

- ما عدتُ خائفة من شيء.

جلب لها بيير بعض شرائح اللحم، وكأساً من الفودكا، شربت الكأس، فشعرت أنها مخمورة تماماً، اقترب منها شاب، يبيع الحشيشة. اشترت منه قطعة صغيرة، بعشر أوروات، ولفّت لها سيجارة، وأخذت تدخن. لم تعد ترى، بوضوح، أخذت الموسيقى تعلو، وهنالك العديد من الفتيات المخمورات، ومروّجي المخدرات الرخيصة، والأشخاص الغامضين. نصحها بيير، بالتوقّف، وإيصالها إلى منزلها، ألا أنها رفضت. كانت تريد أن تسكر - بقوّة - هذا اليوم.

تقدّم منها شاب طويل ونحيل وشعره طويل، يغرس ألماسة صغيرة في أذنه اليسرى ... طلب أن يرقص معها، فرقصت معه، أثناء الرقص، أراد التحرش بها. فتوقفت، عادت إلى مكانها. كانت غاضبة بعض الشيء. أرادت أن تصنع شيئاً، لم تكن تريد هذه المساء أن يمر بهدوء ... اقترب منها شاب آخر، بشعر طويل، ووشوم على يده. إلا أنها لم تكلّمه، بقي بالقرب منها، يحاول أن يكلمها إلا أنها رفضت الاستماع إليه.

عند ذاك الوقت، صاحت بكل زبائن البار أن يستمعوا لها، توقّفت الموسيقى، وأخذ الجميع يصغي لها. وقفت صوفي، في منتصف البار، رافعة كأسها، وصرخت:

بصحتك .... بصحتك ...

الجميع رفع كأسه لها.

اشرب، بصحتك، هذا هو كأسك الأول.

في الكأس الأول، تريد أن تتكلم عن نفسك، مَن يسمعك يقول ليس هنالك شخص مثالي مثلك على الأرض، ستقول كل ما تود عن نفسك، ستخلق لنفسك بطولات وأعاجيب وأخلاقاً عظيمة ومُثُلاً ...

أعرف أعرف أنك الرجل الأوحد في التاريخ.

أعرف أنك الشهم والرائع والجذاب وكل النساء تخرّ لسماع صوتك

ستقول عن نفسك إنك ثري، وتعمل، بشكل دائم، وعندك منزل، وأنت لطيف جداً مع النساء. وستنتقد الرجال الآخرين؛ لأنهم ماشيست، ولا يعرفون قدر المرأة.

أما أنت؛ فلا... أنت مختلف ... الجميع حقراء، ولا يستحقون الاحترام من قبل المرأة سواك ...

أنت الذكي، والأنيق، والمحب للموسيقى والفن والسفر.

... اشرب بصحتك، هذا هو كأسك الثاني ... تريد أن تعرف كل شيء عني، ولاسيما نوعية الرجل الذي أحبه، وكل شيء عن علاقاتي الغرامية السابقة، ولا سيما الآن هل أنا مرتبطة، بأحد، أو لا. وستقول إنك غير مرتبط ...

طبعاً طبعاً... تقول عن نفسك غير مرتبط حتى لو كان لك امرأة، وثلاثة أطفال، في المدرسة!

وتريد أن تعرف موقفي من الجنس، وهذا هو الأهم، وتريد أن تعرف ماذا أفعل في حياتي، ومَن هم أصدقائي، وكيف أنتقيهم، ولا سيما الرجال، وتريد أن تعرف الشراب الذي أفضله، والطعام الذي أحبه،

والمطاعم التي أريد الذهاب لها، والمقاهي التي أريد أن أقضي سهرتي فيها.

كما أنك ستمدح ملابسي وشكلي، وتريد أن تعرف من أين أشتري ملابسي ...

اشرب بصحتك، هذا هو كأسك الثالث ...

سندخل مرحلة أخرى معك، مرحلة المديح، ستقول لي إني امرأة مختلفة، وأنت تحب المختلفات، ستقول لي إنك اخترت أن تتكلم معي؛ لأنك رأيتني لا أشبه الأخريات.

ستقول لي إنني امرأة نموذجية، امرأة فذّة حتى لو كنت لا تعرف أي شيء عني.

ستقول لي إني أنا الأجمل في هذا المكان، وأنا الأروع، وأنا الأفضل ... وملابسي هي الملابس الأكثر أناقة، في هذا المكان، حتى لو كانت ملابس بالية، ستقول لي إني أنا الأثقف بين النساء حتى لو لم أكن أميّز بين قراءة دستيوفسكي والرقص على موسيقى الدسكو فسكي.

اشرب، بصحتك، مرحلة التذلّل، يا صديقي ...

ستذلّ نفسك إلى الأرض؛ كي تنام معي، ستلمع عيونك، ببريق واحد، هو بريق الرغبة، ستعمى تماماً، لن ترى شيئاً فيّ سوى أني جسد، فيه ثقب ... ستجعل من نفسك ممسحة على الأرض. ستمسح نفسك، بالبلاط، أمامي، سوف تتوسّل، وتتوسّل. سوف تلهث أمامي، سوف تتكلم، كما لو كنت كلباً، يلعق يد سيده، تريد أن تبكي، تريد أن تخر تحت أقدامي على ركبتيك ...

سيذهب كل ذاك البريق الذي أردت أن تضفيه على نفسك في الكأس الأول، ستذهب، وتجيء حاملاً الكؤوس لي كأساً بعد كأس، كي أسكر أنا أيضاً.. وأذهب معك ...

ترفع يدها يميناً وشمالاً، وتقول بصحتك ... بصحتك ... بصحتك

تبدأ، بالرقص، بشكل مثير، وتقول:

ها أنت ترقص معي ... أنت ترقص الآن معي ... وتحاول أن تمدّ يدك شيئاً فشيئاً نحوي.

تحاول أن تمسّ يدي، لتعرف ردة فعلي، ومن ثم؛ تمد يدك، بحذر، وأنت ترقص دون أن تنظر نحوي، تمدّ إلى خصري، من ثم؛ تحاول أن تلمس مؤخرتي، أو تحاول أن تمس صدري، بصدرك، تريد أن تعرف رد فعلي، كلما كان رد فعلي إيجابياً، أو كلما سكتُّ عنك، كلما تجّرأ أكثر، وتأخذ لنفسك معي خطوة أبعد ...

تتوقف، وتلتفت إلى الجمهور، وهي تقول:

ها أنا أعرفك ... وأعرف كم ستكون سعيداً، لو مكّنتُكَ أن تفعل كل هذه الأشياء.

وستكون سعيداً أكثر حينما ترى أن الرجال الآخرين في البار ينظرونك، بحسد، ينظرون إليك، بغيرة كبيرة، أما أنت، يا صديقي ...؛ أنت سوف تنفش ريشك أمامهم مثل ديك، ستكون فخوراً، بنفسك، وبذكورتك، وبفحولتك التي استطاعت أن تقهرني ... ستمر هكذا بحذر، لتخبر أصدقاءك، بأنك صدتَني، وأنك ستذهب معي ...

أمامك خياران ... إما أن أقول لك لا .... وسأضحك عليك في نفسي ...

ستنقلب سعادتك إلى تراجيديا، كل شيء سيذهب بك إلى الدرجة الصفر، ستعوض هذا، بمعانقتي، وبقوة، خيارك الأخير.

لم يبق لك شيء مني سوى هذه المعانقة التي ستأخذها غصباً عني.

سأضحك عليك، في سري، وأنا أراك تعود خائباً، وأعرف أنك الآن عائد إلى شقتك؛ لتأخذ دوشاً بارداً، وتنام إلى الصباح على وجهك ...

تنحني، وتقول:

بون ويكيند، يا صديقي...

تغيّر لهجتها:

أو أقول لك، نعم، تعال معي ...

سوف تنطّ من الفرح، تقفز أمام الآخرين، ستكون سعيداً، ستتبسم لي طوال الطريق. بل أقول لك أنت يكاد أن يغمى عليك من الفرح.

أنت لا تصبر أبداً، لا تطيق أن تكون بعيداً عني، ستلتصق بي، وطوال الطريق تريد أن تلمسني، من كل مكان. سيتوقف الكلام، سيندحر الغزل والمديح، ويتحول إلى ملامسات وإثارات. وكأنك تريد أن تضاجعني في الشارع ...

وحين نصل البيت، ستكون أسعد رجل على الأرض، ستلتمع عيناك، وسيتوهج خداك، ستذهب إلى الحمام؛ لتبول، وتعود، ربما من دون بنطلون ... في رأيك، أنك هكذا في قمة الإثارة، لن تحتمل أن أتأخر في الحمام، أو أقول: "هل تريد أن تأكل شيئاً؟..."

تحاول أن تقلّده:

" ليس الآن، ليس الآن، ليس الآن ... فيما بعد، فيما بعد".

هذا ما سأسمعه منك، هذا ما تقوله لي ... بعدها، تخلع ملابسك تحت الفراش، بانتظاري، ستكون متأهّباً...

وسأعرف أنك أخذت أورغازم جيداً ... حين تنقلب على الجهة الأخرى، وتبدأ تشخر.

عادت صوفي إلى منزلها مخمورة وحيدة، ومنهكة من التعب.



رواية

علي بدر

الكافرة

مكتبة الفكر الجديد

أعظم مؤرخ للتواريخ الهامشية وللقصص والحكايات المهملة والتي يصوغها بإطار ساخر، بل يعد علي بدر من أبرز الأصوات في الرواية العربية التي ظهرت في السنوات الأخيرة، وترجمت أعماله إلى لغات أوربية عديدة.

الصحفية الأمريكية ماري وايمبل

رواياته ثرية اللغة والأحداث، حين تقرأها تتمنى أن تطول مئات الصفحات الأخرى، فقط لتشعر أن هذا النسيج الآسر من الكتابة الروائية يستمر ولا ينتهي.

الصحفي البريطاني شولتو برايز في صحيفة الأندبندت البريطانية

يعد علي بدر واحدا من أبرز كتاب الجيل العربي الجديد، ذلك الجيل الذي اصطلحنا على تسميته في مصر بجيل التسعينات لأنه الجيل الذي بدأ ممارسة الكتابة والنشر بشكل جدي مع تسعينات القرن الماضي. والواقع أن علي بدر هو أحد أغزر كتاب هذا الجيل انتاجا وأرهفهم موهبة.

الدكتور صبري حافظ في صحيفة أخبار الأدب المصرية

روايات علي بدر تتضمن مجموعة متنوعة من السجلات، أحداثها تجري في أوقات مختلفة وأماكن بعيدة عن بعضها البعض، يسلط النور على عالم من التعقيد والثراء والحوار المفتوح، ويحمل في الوقت ذاته خصائصه وديناميكياته الذاتية، عالم من الحيوات الصغيرة، ومن السكارى ومدمني المخدرات، والحانات، والعاهرات، فضلا عن المثقفين والسياسيين، كل هذه الشخصيات في الواقع قريبة جدا منا، وإن تصورها أنها قصص خيالية إلا أنها من الأدب العظيم بل هي درس بالغ الثراء للبشرية جمعاء.

عالمة الاجتماع الفرنسية سونيا دايان هرزبرون في الكانزان ليتارير الفرنسية

علي بدر الكافرة

تروي الكافرة قصة فاطمة التي تعيش في مدينة نائية سيطر عليها المتشددون الإسلاميون وأجبروها وعائلتها على خدمتهم. قُتل والدها في عملية انتحارية، بعدها تزوجت من شاب عاطل عن العمل يبحث عن مجده الضائع في عملية انتحارية لينعم بوعد الحوريات، ويلبس ثوب البطل بعدما كان الفشل حليفه في الحياة. بعد موته قرر الإسلاميون تزويجها إلى عنصر من جماعتهم المسلحة لكن هذه المرة لم تمتثل لأوامرهم وقررت اللجوء إلى أوروبا. اتفقت مع أحد المهربين الذي ساعدها في الوصول إلى بروكسل ولكنه كان قد اغتصبها في طريقهما إلى هناك. فور وصولها تنزع فاطمة النقاب، وتتحول من فاطمة إلى صوفي لتتقمص شخصيتين، فاطمة التي تعمل صباحاً مع شركة تنظيف، وصوفي الفتاة الأوربية التي تذهب إلى البار لتعود كل ليلة مع شاب وسيم، لتنتقم من زوجها الذي أخبرها أن سبب قيامه بعملية انتحارية هو حصوله على سبعين حورية في الجنة، فتقرر مضاجعة سبعين شاباً في أوربا إلى أن تقع في قصة حب معقدة، تزيد الرواية حبكة وثراء.

يتقصى علي بدر في هذه الرواية جذور العنف في الشرق الأوسط عبر تقنيات سردية بارعة، ممزوجة بلغة شعرية شفافة هذه المرة. تلعب الرواية هنا دوراً مهما في استقصاء وتحليل التطرف في مجتمعاتنا، عبر جسد المرأة الذي يتحول إلى مدونة يكتب عليها الرجال عنفهم وقسوتهم وحبهم وخذلانهم. هذه الرواية هي رواية الأنوثة المقهورة ولكنها القاهرة أيضاً، حيث تكشف عن هشاشة الثقافة الذكورية وانسحاقها. ومن خلال هذه الترسيمة ينتقل السرد سياسياً وجغرافياً من بغداد إلى بيروت حيث الحرب الأهلية، ومن الشرق الأوسط إلى أوربا حيث التجربة الاستعمارية.

يعيد علي بدر في هذه الرواية تقنياته التي عرفت بها رواياته السابقة، الدراسات الثقافية، أدب ما بعد الاستعمار، الأنثربولوجيا وأدب الاعتراف الجنسي، ممزوجة هذه المرة بلغة شعرية مميزة.

المتوسط

مكتبة الفكر الجديد

علي بدر روائي عراقي حصل على العديد من الجوائز، وترجمت أعماله إلى العديد من اللغات الأجنبية، صدر له: بابا سارتر ٢٠٠١، شتاء العائلة ٢٠٠٢، صخب ونساء وكاتب مغمور ٢٠٠٣، الوليمة العارية ٢٠٠٤، الطريق إلى تل المطران ٢٠٠٥، الركض وراء الذئاب ٢٠٠٦، مصابيح أورشليم ٢٠٠٧، حارس التبغ ٢٠٠٨، ملوك الرمال ٢٠٠٩، الجريمة الفن وقاموس بغداد ٢٠١٠، أساتذة الوهم ٢٠١١.

ISBN 978-91-87373-64-0



المتوسط